الدكتور عبد العزيز سعيد الصويعي

حديثُ الحِلِّ والتَّرحالِ

بين الجوش والجوف

دراسة اجتماعية ثقافية لغوية تأثيلية تحليلية تبحث في لهجات البدو بالمنطقة الغربية لليبيا وعاداتهم وتقاليدهم
(قبائل الصيعان زمن بداوتهم أنموذجا)



https://archive.org/details/@hassan_ibrahem

حديثُ الحِلِّ والتِّرحال

بين الجُوش والجُوف

الدكتور/ عبد العزيز سعيد الصويعي

حديثُ الحِلِّ والتِّرحَال

بين الجُوش والجُوف

دراسة اجتماعية ثقافية تأثيلية تحليلية للهجات البدو
بالمنطقة الغربية لليبيا وعاداتهم وتقاليدهم
(قبائل الصيعان زمن بداوتهم أنموذجاً)



محمد بوعزة العويثي

https://archive.org/details/@hassan_ibrahem

الدكتور عبد العزيز سعيد الصويعي
حديث الحل والترحال بين الجوش والجوف

رقم الإيداع المحلي: 2012/780
رقم الإيداع الدولي: 978-9959-683-6

دار الكتب الوطنية بنغازي - ليبيا
هاتف: 7165022.21821+ - بريد مصور 4843580-21821+
ص.ب: 75454 - طرابلس Email: almosgb@yahoo.com

بسم الله الرحمن الرحيم

* والله جَعلَ لكُمْ مِن بُيوتِكُمْ سَكناً وجَعلَ لكُمْ مِن جُلودِ الأنعَامِ بُيوتاً تَسْتَخِفّونها يوْمَ ظعْنِكُمْ ويَوْمَ إقامَتِكُمْ، ومِن أصْوافِها وأوْبَارِهَا وأشْعَارِهَا أثَاثاً ومتَاعاً إلَى حِين *

صدق الله العظيم

النحل 08



الإهداء

إلى أرواح

والدي سعيد، وإخوته: بلقاسم وعثمان وعلي والجيلاني، أبناء خليفة بن علي بن عثمان بن سعيد شريوط الجهراني السلامي الصويعي.

ابنهم عبد العزيز



تقديم:

يختلف البدو عن ساكني الحواضر اختلافات واضحة، من حيث التكوين الجسمي بملامحه ووظائفه المتعددة، والتكوين النفسي بمركباته الوجدانية والانفعالية المختلفة.

فمن الناحية الجسمية تغلب على البدوي – عموماً – نحافة الجسم ورقة الأطراف، ولكنه قوي البنية صلب العظام قليل العلل والأمراض. ويعود ذلك إلى أهم عاملين، أولهما: الغذاء الطبيعي الذي يعتمد –في غالبه– على الحبوب وألبان الأغنام والإبل ولحومها، بالإضافة إلى الهواء النقي الذي تنعم به البادية. والعامل الثاني: حركته الدؤوبة التي لا تعرف الاستقرار إلا نادراً، علاوة على المسافات المقطوعة سيراً على الأقدام، والمشي من أهم الرياضات التي يقرها العصر للحفاظ على الصحة. كما يتمتع البدوي بسلامة الحواس، إذ يمكنه التقاط الأصوات البعيدة وتمييزها، ويمكنه السير ليلاً دون تعثر، كما يمكنه معرفة الأماكن بواسطة شم تربتها ومعاينة نباتاتها. ناهيك عن معرفة الاتجاهات بواسطة النجوم، ودراسة حركة الرياح وتقدير سرعتها، وتمييز السحب الممطرة من غيرها، وتحديد بداية ونهاية فصول السنة، وقد يستعين في تلك الفراسة بسلوك حيواناته وتصرفاتها، وقد يعتمد في كل شيء على حسن ذاكرته ونفاذ بصيرته وطول خبرته وتجربته.. وبالتالي فالبدوي يتمتع ببيئة نظيفة خالية من الملوثات البصرية والسمعية والشمية والحسية. ورغم التقلبات المناخية بين برد قارص وحر شديد، فالبدوي له قدرة التأقلم مع الجو الصحراوي القاسي بإمكانيات بسيطة ومتواضعة، بل وتنعدم أحياناً، فيعتمد فقط على إمكانياته الجسمية دون تأففٍ أو تأوهٍ أو ضجرٍ.

أما الجانب النفسي فقد تتدخل العوامل المادية السابقة في التكوين المزاجي والانفعالي لدى البدوي. فإلى جانب الفطرة التي فُطر عليها فهو متقلب المزاج حسب المواقف والظروف. فقد يكون قاسياً مع أهل بيته وعنيفاً مع حيواناته ومجحفاً في حق نفسه أيضاً أثناء تأدية الأعمال مثل مراسم الحِلّ والترحال وما يصحب ذلك من فك وتركيب بيوت الشعر وزرائب الحيوانات وتجهيز القافلة، أو أثناء جمع الحطب وورود المياه، أو وقت الحرث والحصاد إذا هطلت الأمطار، أو (التونية) حول البيوت وحمايتها من السيول، أو عند جز الحيوانات وجني أصوافها.. وغير ذلك من الأعمال الشاقة التي لا تُنجز بصورتها المطلوبة دون تصرف حاسم وصارم، فتراه (يكش وينش وينت وينتور ويتنهزر وينزر..) ويحث كل من يمر بقربه على سرعة الحركة وجدية العمل. أما إذا ركن الجميع للراحة، فتراه ليناً لطيفاً ودوداً محباً، خفيف الظل والروح، طيب النفس والقلب، ليس مع أهل بيته فحسب وإنما مع حيواناته أيضاً، حيث يتعامل معها كما لو كانت إنساناً عاقلاً ناطقاً، فيطعمها بيده، ويسهر على المريض منها، ويساعد بعضها عند الولادة، ويضم صغارها تحت جناحيه ويناغيها كالأطفال. أما إذ طابت نفسُه وانشرح صدرُه فلا ينقطع عن المرح والدعابة وسرد القصص الطريفة وتأويل بعض المواقف التي سبق وأن كان فيها قاسياً أثناء تأدية الأعمال الشاقة السابقة، فتراه (يهدرز ويقجّم ويبصّر ويقنتر..)، في جو عائلي يعيد الثقة بالنفس ويبعث فيها الأمن والطمأنينة ويهيئها لاستقبال يوم جديد قد يكون أشد قسوة من سابقه، فلا يتأثر البدن بكرّ الجديدين وما يحملانه من تعب وشقاء ومعاناة يومية جُبل عليها البدوي واعتاد على مُرّها قبل حلوها.

وهذه العوامل تدخل في صلب التكوين الجسمي والنفسي لكل فرد من قبائل الصيعان، باعتبارهم من البدو الرحل وليس من أشباه الرحل. ولا بد لهذا التكوين الممزوج بين لين وصرامة من سرعة بديهة تُجاريه ولغة تُحاكيه وتراكيب لفظية تُعبّر عنه وتُثريه. ورغم أن جميع البدو يشتركون في مواصفات ذاك التكوين، إلاّ أن لكل قبيلة منهم خصوصيةً تختلف مواصفاتها بحسب اقتراب القبائل وابتعادها عن بعضها البعض. ولكن للصيعان خصوصيةً لا يجهلها جيرانهم من القبائل الليبية الأخرى. وتتمثل تلك الخصوصية في الطباع والأمزجة والتصرفات، وكذلك في الحركة وطرق إشباع الحاجات والدوافع وحل المشكلات والتفاعل مع البيئتين الاجتماعية والطبيعية.. وهذه العناصر وغيرها لها تأثير مباشر على السلوك اللغوي كأداة للتعبير عن التصرفات المادية الظاهرة، من جهة، والإفصاح عن المكامن الوجدانية، من جهة ثانية. فيظهر ذلك جلياً على ألسنة القوم، على هيئة لهجة يتداولونها فيما بينهم ويتميزون بها عن غيرهم. وقد يتمثل ذلك في أسلوب الإلقاء ونبرة الصوت واختيار العبارات والتراكيب اللفظية وطريقة السرد والاستعداد النفسي والوجداني أثناء الحديث وغير ذلك. وقد تكون للمواقف والأحداث الجارية دورها في استحداث وإضافة الجديد للمخزون السابق من عبارات وألفاظ وتراكيب، فيزيد ذلك من تدعيم وترسيخ تلك الخصوصية. وهذا ما دعانا لاستطلاع أحوال قبائل الصيعان زمان بداوتهم، قبل أن ينصرف الجميع إلى الأخذ بأسباب الحضارة المعاصرة التي أفقدت البدو خصوصيتهم وأثرت في فطرتهم وبساطتهم وأخضعتهم لركوب أمواج التطور العاتية ومصارعة نوع جديد من الحياة المعقدة التي لا تعرف غير العلوم الحديثة والتكنولوجيا المتطورة مطية لبلوغ الغايات وتحقيق الأهداف. فاشترك الجميع في خصوصية استخدام الآلات

الكهربائية والأجهزة الإلكترونية، بل وقد تصبح لغة الكمبيوتر والإنترنت في القريب العاجل مسيطرة -دون غيرها- على الجميع. وقبل أن تكتسح هذه الموجة (التسونامية) تراث الآباء والأجداد، علينا واجب احترامهم والاعتراف بفضلهم علينا، وذلك بواسطة جمع آثارهم وتدوينها قدر الإمكان وحفظها ونقلها إلى أجيالنا اللاحقة نقيةً وغير ملوثة.

ورغم أن هذه الدراسة يجب أن تخضع -قبل كل شيء- لأساليب البحث العلمي كالمسح الاجتماعي واللقاءات الشخصية والجماعية والملاحظات المباشرة وغير المباشرة وتحليل المحتويات والنصوص والقصص، وأحياناً تحتاج لتسليط أدوات علم اللغة المقارن.. رغم ضرورة وجود هذه الأساليب العلمية وتجهيزها قبل بداية البحث، إلاّ أن فكرة الكتابة عن حياة الصيعان كانت تدور في خاطري، ومادتها تكاد تكون جاهزة في ذهني منذ أن بدأت تتجمع في ذاكرتي قصصٌ ورواياتٌ سمعتها من والدي وأعمامي، ومن شيوخ وعجائز القبيلة، ومن بعض من كانت لهم مع الصيعان علاقات ما، بالإضافة إلى التجربة الشخصية باعتباري أحد أفراد المجتمع الأصلي لعينة البحث. إلاّ أنها بقيت كلها في حالة من الحضانة الفكرية مدة طويلة من الزمن، إلى أن جاء موعد تفريغها وصياغتها وعرضها على صفحات هذا الكتاب.

عقدت النية والعزم على أن أتنزه -قدر الاستطاعة- عن حب الذات والتعصب لها والانجذاب إلى مغناطيس الانتماء، وهي دوافع لا يمكنني إنكارها نظراً لأصالتها في النفس البشرية، ولكنني حاولت أرجحة كفة النزاهة والتجرد والأمانة العلمية على كفة تلك الدوافع الذاتية. وبعد صياغة تلك الأفكار ونقلها

من صفحات الذاكرة إلى صفحات الورق، عدتُ إلى من لهم القدرة على التذكر والسرد، بهدف مراجعة المعلومات المتراكمة منذ الصغر، والتأكد منها وتصحيح المفاهيم التي لم تكن ناضجة من قبل، وإضافة ما لم أكن أعلم. إلى جانب رجوعي إلى بعض المصادر والمعاجم التي تخدم تلك الأفكار وتشرحها. فوجدت نفسي أسيرُ بصورة تلقائية في مسار يتفق مع منهج البحث العلمي الذي لطّف حدّة الذاتية وجعلها متفقةً معه لا معارضة له. والحقَّ الحقَّ أقول أن قبائل الصيعان تستحق أن تُدرس كنموذج للبداوة الأصيلة التي كانت قائمة بهيئتها الواقعية قبل قرنين من الزمان على أقل تقدير. ولم يكن اختياري لهذه القبائل بعينها إلاّ من باب الأخذ بحقيقة القول المشهور (أهل مكة أدرى بشعابها)، ولم يكن قط على حساب غيرها من القبائل الليبية الأخرى صاحبة الفضل في بناء صرح هذا الوطن الذي نعتزّ به جميعاً ونفتخر بالانتماء إليه.

قد لا تعتمد هذه الدراسة على أهم عناصر البحث التاريخي، كالمراجع التاريخية الموثقة من كتب وبحوث ودراسات سابقة، وهي عناصر يفتقدها الباحث في تاريخ القبائل العربية المعاصرة عموماً، والليبية على وجه الخصوص، وقبائل الصيعان بالتحديد. فيلجأ مكرهاً لتتبع خيوط الأساطير المتواترة عبر الروايات الشفوية الشعبية، وتسليط بعض الأدوات المتاحة عليها، لتحليلها واستخراج منها ما أمكن من حقائق قد تتفق وقد لا تتفق مع عقلية الإنسان المعاصر. فإذا اتفقت ستكون إضافةً جديدةً يجد فيها الباحث والمتلقي ضالتهما، وإذا لم تتفق ستكون سجلاً مدوّناً تستفيد منه الأجيال القادمة في معرفة أفكار أجدادهم مهما كانت بسيطةً وبدائيةً وساذجةً، قد يجدون وسائل أكثر تطور لتحليلها وكشف مكامنها

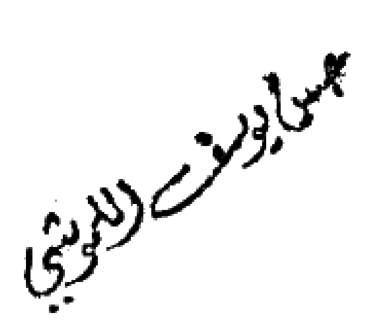
في المستقبل. والواقع أن هذه الدراسة لم تكن – منذ البداية – دراسة تاريخية بأتم معنى الكلمة، وإنما تميل ميلاً شديداً إلى الدراسات الاجتماعية واللغوية والثقافية التي تبحث في العادات والتقاليد وأساليب العيش وطرق التفكير والعقائد والآداب واللهجات المتداولة وغيرها من عناصر الحراك الاجتماعي التي تختص بها الجماعات الإنسانية وتتميز بها عن غيرها. لذا، اعتمدتْ هذه الدراسة – أساسا – على العمل الميداني واللقاءات مع كبار السن وأصحاب الخبرة والتجربة والضالعين في التحدّث والتذكّر وحافظي القصص والأساطير الأولى والشعراء الشعبيين، وغيرهم ممن وفاهم الأجل ومن لا يزالون على قيد الحياة (أطال الله أعمارهم)، والذين لولاهم لضاع كمٌّ هائلٌ من معلومات وأفكار وقصص لها أهمية بالغة في الذاكرة الشعبية التي قد تكون –في يوم ما– أساساً لبحوث ودراسات تاريخية تظهر قيمتها العلمية فيما بعد. وهذا ليس بالأمر الغريب، فأيام العرب الأولى كانت في الأساس قصصاً شفويةً متواترةً تميل إلى الأسطورة أكثر منها إلى المنهج العلمي، وصارت – مع الزمن – جزءاً لا يستهان به من تاريخ العرب في عصرهم الجاهلي. أما اعتمادنا على الشعر الشعبي فهو أيضاً عنصرٌ مكملٌ للتاريخ، إذ يحمل كثيراً من المفاهيم والأفكار التي كانت متداولة عند القوم. وهذا يتفق مع عناصر تاريخ العرب الذي اقترن بقصائد شعرائهم، فالشعر كان ديوانهم كما يقولون.

ونحن – إذ نتوخى هذا الأسلوب – لم نشذ عن القاعدة العلمية، بل سرنا على نهجها. فعلم التاريخ – كغيره من العلوم الإنسانية – تشعب كثيراً، ولا ينكر العلماء المعاصرون فرعاً مهماً من فروعه، وهو علم الأساطير الذي يسمونه

(الميثولوجيا). وهذه الميثولوجيا قد أتاحت لنا قراءة التاريخ القديم الخاص بالشعوب صاحبة الحضارات القديمة مثل قصص الطوفان عند قدماء البابليين والآشوريين، وعقائد قدماء المصرين في مسألة البعث والحياة الأخرى، وقدماء الإغريق في أشعار هوميروس، وأفكار زراديشت وكونفشيوس وبوذا عند قدماء الفرس والصينيين والهنود.. وغيرها من الآثار التاريخية التي عبّر عنها القرآن الكريم بلفظ (أساطير الأولين). إلاّ أن هذه الأساطير تشكل حالياً – دون غيرها – أساساً فريداً للتاريخ القديم، إلى جانب كونها مدوّنة على ألواح الطين والحجارة وأوراق البردي.. ثم انتقلت إلى كتب مطبوعة يعود إليها المؤرخون كمراجع أساسية عن تلك الحقب الموغلة في القدم. وبالتالي فيمكننا اعتبار بعض القصص الأسطورية الواردة في هذه الدراسة جزءاً تاريخياً مكملاً للحياة الاجتماعية لدى قبائل الصيعان زمن بداوتهم وعلاقتهم بالقبائل الأخرى المجاورة لهم. وبهذا الجهد المتواضع جدا، لا ندعي بأننا أتينا على كل ما أردنا الإتيان به، بل وضعنا لبنة بسيطة على صرح الحضارة الليبية العريقة. راجين من الله مزيد التوفيق.

د. عبد العزيز سعيد الصويعي





الباب الأول

خصوصيات الصيعان وعلاقتهم بالبدو والحضر

فوت النخلات..

تلقاهم لربع لحمات..

ولاد أمّي..

(علي العنّابي)



الفصل الأول

علاقة الصيعان بغيرهم من القبائل في الداخل والخارج*

تمهيد:

يشكّل الصيعان أربع قبائل كبيزة وليس قبيلة واحدة كما يذكر البعض. وهي قبيلة (أولاد سلاّم) وقبيلة (أولاد امحمد) وقبيلة (أولاد شرّادة) وقبيلة (الهمايلة). تنقسم كل قبيلة إلى عدة لحمات وكل لحمة إلى عدة بيوت وكل بيت إلى عدة أسر أو عائلات. ومركزهم جميعا - في البداية - كان (الجوش)، ففيها روضة جدهم (امحمد أبو صاع) ومقبرتهم العامة. وبها أضرحة عدد من أولياء الله الصالحين، يسمونهم (رقود الجوش). وتشكل قبائل الصيعان الأغلبية الساحقة بين بقية القبائل في المنطقة. فكانوا يرحلون ويحلّون - بحسب الظروف المعيشية والمناخية - في رقعة شاسعة من الأرض دون قيود، يحطّون فيها تارة ويتركونها تارة أخرى، وكانت بيوتهم تُضرب أوتادها بأراض عُرفت عندهم - إلى عهد قريب - بالأسماء التالية: (الوطية، الزرير، الطمنية، الهبيلية، الفهدية، غدّو، الوخيم، سافل الجبّارة، القصور، سواني الكردي، سانية الشاهي، سانية الأكلال، أم الخنفس، أم الفار، العجمية، عقيلة الخرشى، الأمّازير، قرع الصيعان، الميشار..) وغيرها من المناطق والأراضي والفضاءات التي تمتد من ساحل البحر شمالاً إلى كعوب جبل نفوسة جنوباً (الجبل الغربي)، ومن (ردايد بئر

الغنم) شرقاً إلى (العَسّة) غرباً[1] ، وهي ما كان يُعرف في عهد الإدارة العثمانية – أحياناً – بقضاء الحوض[2]. وكانوا يتجاوزونها إلى (بر ورغمّة) بل وإلى (بر نفزاوة) في جنوب القطر التونسي و(بر سوف) بالجزائر حالياً، حيث كانت المنطقة الشاسعة بين طرابلس شرقاً والحامّة غرباً مجالهم الذي يتجوّلون فيه بحرية ويجاورون القبائل المنتجعة والمرتحلة فيه، في زمن لم تكن فيه الحدود الحالية مرسومةً على خريطة المنطقة. لذا تكون قبائل الصيعان من البدو الرّحل التي لا تستقر في مكان محدد، فتختار المكان المناسب للإقامة المؤقتة حسب فصول السنة. وهذا السبب الذي جعل البعض يصفهم بأبعد الناس عن الحضارة بقصد توجيه الإهانة وليس بقصد نقل الواقع المعاش، مثلما فعل الشيخ الجليل (الطاهر الزاوي) في كتابه (معجم البلدان الليبية)، حيث يقول في فصل (الجوش): "تسكن قبيلة الصيعان فيما حولها – أي الجوش – وهي مركزهم.. وقبيلة الصيعان قبيلة كبيرة من القبائل الطرابلسية تعيش في بادية جافة، وشظف من العيش وجهالة مطلقة، وكانوا يغيرون على ورغمّة، وهم من أبعد الناس عن الحضارة"[3]، سامحك الله يا شيخ. وعن (الوطية) في موقع آخر يقول: "وهي من أملاك الصيعان"[4]

---

* المقصود بالخارج -هنا- جمهورية تونس الحالية، أما في ذاك الزمان فلم تكن الحدود قد رسمت بعد، إذ كانت حركة القبائل حرة خصوصا البدوية منها. وكان التفاعل -سلبا وإيجابا- طبيعيا جدا، حسبما تفرضه الظروف البيئية والاقتصادية، فلم يكن هناك داخلا وخارجا.

[1] **(ردايد)**: جمع ردة، وهي المكان الذي يُردُّ منه، أي بمثابة نقطة حدودية غير رسمية بين الأماكن. أما **(العِصّة)** فيبدو أنه مكان حراسة أقيم في عهد الاستعمار الفرنسي أو الإيطالي.

[2] تتألف متصرفية الجبل الغربي في العهد العثماني الثاني، ومركزها يفرن، من قائمقاميات يفرن وفساطو والحوض والجوش ونالوت وغدامس، ومن نواحي الأصابعة والزنتان وككلة ومزدة. أنظر: **كورو**، فرنشيسكو: **ليبيا أثناء الحكم العثماني الثاني**، تعريب: خليفة محمد التليسي، ط2، 1984، المنشأة العامة للنشر والتوزيع والإعلان، طرابلس/ليبيا، ص28.

[3] الزاوي، الطاهر: **معجم البلدان الليبية**، ص 119.

[4] الزاوي، نفس المصدر، ص 358.

ويصمت عن ذكر أي شيء آخر، ولكنه يطلق العنان لقلمه ليصف بقية الأماكن الأخرى مثل (الحرشة) مسقط رأس الشيخ الفاضل، وأحياء مدينة الزاوية وما حولها من قرى بالتفصيل الممل. لا نرى عيباً في ذلك، فكل البدو كانوا بعيدين عن الحضارة قبل أن يستقرّوا ويتحضروا مع الزمن، وهاهم الآن يثبتون عكس ما وصفوا به. فالبداوةُ – كما يقول ابن خلدون – سابقةٌ الحضر، وما الحضرُ إلاّ بدوٌ كانوا في زمن من الأزمان متوحشين في البوادي قبل أن يؤسسوا العمران أو يلتحقوا به.

ستنكتفي في هذا الباب بالحديث عن الصيعان من حيث النواحي الاجتماعية والثقافية المتأصّلة في الحياة البدوية، وإظهار الأساليب الشعبية في شرح ذلك، أما النواحي العلمية التي تستند إلى الوثائق فسنأتي عليها في الباب الرابع المخصص لها.

ولكن كيف تكوّنت قبائل الصيعان الأربع؟

الصيعان – كما ذكرنا – منقسمون إلى أربع قبائل: أولاد سلاّم، وأولاد امحمد، وأولاد شرّادة، والهمايلة. وهي منحدرة –كما يبدو من أسمائها الحالية – من أجدادهم الأول أبناء (امحمد أبو صاع) الأربعة (ولدان وبنتان): سلاّم وامحمد، شرّادة وهميلة. أمّا (دي أوغستيني)[1] فذكر الأبناء الأربعة باسم: (خليفة وامحمد وعبد الناصر وسلاّم)، ولم يحدد علاقة أولاد شرّادة والهمايلة بأي من الجدّين خليفة وعبد الناصر، واكتفى بالتنويه إلى مجيئهما من أسماء أمهاتهما (شرّادة وهميلة).

---

[1] **دي أوغستيني**، هنريكو، **سكان ليبيا**، تعريب وتقديم: خليفة محمد التليسي، ط1، 1975، دار الثقافة، بيروت/لبنان، ص 421.

ولكن الأسطورة التي يرويها الأولون ويرددها كبار السنّ حاليا[1] تختلف اختلافاً جوهرياً عن التنسيب المذكور آنفا، حيث تقول: أن (امحمد أبو صاع) كان عالماً جليلاً ووليّاً صالحاً له علاقة ما ببقية الأولياء مثل سيدي (عبد السلام الأسمر) وغيره، يتقرّب له الناس ويعتقدون في جاهه عند الله ويتبركون به. وتقول إحدى الأساطير التي نُسجت حوله أنه في زمن ما حصلت مشكلة حول امرأة من قبيلة (عوين) وهم من (رابايعة ورغمّة) التي تنقسم حالياً بين ليبيا وتونس، فاستنجدوا ببركة (امحمد أبو صاع) ليضع حدّا للفتنة التي تأججت نارُها بين المختصمين. فقررت المرأة المتنازع عليها الذهاب مع الولي الصالح والزواج منه، فلم يجد أهلُها مفراً غير القبول بالأمر الواقع. وبعد زواجه منها حصلت البركة، حيث لطمها بـ(شملة جرده)، وسبحان الله الذي يقول للشيء (كن فيكون)، فأنجبت له ولداً سمّاه (الكوني). وهذا (الكوني) هو الجد البعيد لقبائل الصيعان التي تشكلت من أحفاده وليس من أبنائه مباشرة. والصيعان يذكرون جدّهم الثاني (الكوني) تماماً مثلما يذكرون جدّهم الأول (امحمد أبو صاع)، وهذا الشاعر (حمد الشرادي) يقول:

(ذرية الكوني شغلوني.. هم ميم عيوني.. وبيهم ينحلّو لنظار)[2].

ومن أبرز أحفاد (الكوني) كان (خليفة) الذي تزوج من امرأتين الأولى (صويعية ابنة عمّه، ربما يكون اسمها هميلة)، والثانية (نفزاوية، من أولاد سيدي حامد، من توات، اسمها شرّادة). فمن المرابطة الصويعية أنجب (عثمان وبلقاسم)، ومن المرابطة التواتية أنجب (عبد السيد). وبدأت تتضح بعض معالم التنسيب

---

[1] مثل الشيخ بلقاسم بالزعيمة الذي روى لي هذه القصة، وهو من لحمة الأبقار، قبيلة أولاد سلاّم.

[2] **زاز**: جاز وتجاوز. **الميشار**: مكان خلف بئر الغنم. **ينحلّوا**: تتفتح.

الأسري في هذا النسل، حيث أنجب (عثمان بن خليفة) ابناً اسمه (سلاّم) ومنه انحدرت قبيلة (أولاد سلاّم)، كما أنجب أيضاً (عبد العظيم وعبد المؤمن وغيرهما) فانحدرت منهم قبيلة (أولاد امحمد). أما أخوه (عبد السيد) فانحدرت منه قبيلة (أولاد شرّادة) التي تسمت باسم الأم الأولى (شرّادة) تبركاً بها وبجدّها سيدي حامد (وهو جد الحوامد كما يقولون). وبقي الابن الثالث للجد (خليفة) وهو (بلقاسم) الذي انحدر منه (أولاد بلقاسم)، ولم يذكر المنسّبون علاقة قبيلة (الهمايلة) بهم. إذ يبدو أنهم انتسبوا لأمهم هميلة، وهي قد تكون زوجة خليفة ضرة شرادة، المهم أنها حملت كثيراً من البركة إلى أبنائها وأحفادها فتسمّوا بها[1].

أولاً- الجد الأول بين الجوش وسبيبة (الجوف):

دخلت القبائل العربية المضرية من بني هلال وبني سُليم إلى الشمال الأفريقي عندما أطلقها الخليفة الفاطمي (المستنصر أبو تمام) كردة فعل على قطع والي أفريقيا (المعز بن باديس الصنهاجي) الدعوة للفاطميين وحوّلها للعباسيين[2]. وذلك في منتصف القرن الحادي عشر الميلادي. فانساحت كالطوفان في جميع أرجاء المغرب العربي، مخلفةً من بطونها العديد من القبائل العربية. وكانت قبلها القبائل العربية تتوافد على المغرب منذ الفتوحات الأولى، وأسسوا فيه العديد من الدول كالأغالبة بالقيروان والرستميين بالمغرب الأوسط والأدارسة بالمغرب الأقصى والأمويين بالأندلس والفاطميين بالمغرب الأدنى وغيرهم.. ومع مرور الزمن بدأت

---

[1] سنتعرض لهذه المسألة بمزيد من التحليل في الباب الرابع من هذه الكتاب.

[2] أنظر: **البرغوثي**، د. عبد اللطيف محمود، تاريخ ليبيا الإسلامي، ط؟، 1972، منشورات الجامعة الليبية، ليبيا.

تظهر – بين الحين والآخر – هجرات عربية عكسية (من الغرب إلى الشرق)، إلاّ أنها لم تكن جماعيةً بالكثافة التي كانت عليها الهجرات الضخمة الأولى. بل أن بعضها لا يتجاوز أفراداً قاصدين الحجاز لتأدية فريضة الحج، وعند العودة يستهويهم المكان هنا أو هناك فيستقرون فيه. وباعتبارهم من الحجاج التقاة الورعين الحاملين لكتاب الله والعاملين على تحفيظه، كانوا يوصفون أحياناً بأولياء الله الصالحين أو بالمرابطين. وفي ليبيا كثير من القبائل تعود بالأصالة إلى أولائك الحجاج والتجار والعلماء القادمين من المغرب خصوصاً بعد سقوط الأندلس. إلاّ أن كثيراً منهم أيضاً يعود بالأصالة إلى الشرفاء من آل البيت، (ربما من أصول إدريسية أو ممن جاءوا مباشرة من الشرق). حيث استقر بعضهم نهائياً في ليبيا وخلّفوا أبناءً وأحفاداً، كان منهم مثلا (سيدي عبد السلام الأسمر) وليد ودفين زليطن، و(سيدي الزروق) وليد فاس ودفين مصراتة، وغيرهما، وبعضهم ممن لم يستقر في ليبيا ولكنه ترك فيها أثراً صوفياً مثل (سيدي امحمد بن عيسى) و(سيدي عبد القادر الجيلاني) وغيرهما.

ولعل في ذلك سببُ إرجاع قبائل الصيعان إلى بطون بني سُليم وهلال، من جهة، وإلى أجدادهم الأوائل المرابطين القادمين من الساقية الحمراء ووادي الذهب بالمغرب، من جهة ثانية، وأحيناً إلى الشرفاء القادمين من المغرب، من جهة ثالثة. وليس في ذلك اختلاف، فالقبائل العربية من بني سُليم وهلال وصل كثيرٌ منهم إلى المغرب ودخلوا في جيش يوسف بن تاشفين وجاز بهم الزقاق إلى الأندلس، فصاروا مع الزمن من المرابطين. وقد نجد في قبائل الصيعان عدة خصائص في طرق العيش وضرب بيوت الشعر السوداء وإيلاف رحلتي الشتاء

والصيف، وفي كثير من العادات البدوية الأخرى التي تتفق - قليلاً أو كثيراً - مع تلك التي في الحجاز وشبه الجزيرة العربية عموماً، مما يشير إلى صدق الانتماء إلى الأصول العربية الصريحة. وقد نجد فيهم أيضاً الميل الشديد إلى الجوانب الروحية والصوفية التي تتخذ منها بعضُ الفرق طرقاً لعبادة الله والصلاة والسلام على نبيه الكريم، والتحلق حول ولي صالح يذكرون الله في حضرته، إذ كان الصيعان يقيمون حلقات الذكر ومراسمَ المدائح والأذكار المعروفة بـ(الحضرة) التي لا تتم بغير قرع الدفوف وحرق البخور وإنشاد القصائد الدينية. وهذا أيضاً يؤيد فرضية انتمائهم إلى أولياء الله الصالحين أو المرابطين أو الشرفاء القادمين - عبر هجرة عكسية فرديةً كانت أو جماعيةً - من المغرب الأقصى.

ومع مرور الزمن تناست تلك القبائل العربية هجرة أجدادها الأولى من الشرق، بينما بقيت هجرة أجدادها من الغرب عالقةً في الذاكرة. مما أدى إلى التفكير في هجرات عكسية نحو الغرب دون الشرق. وهذا -على ما يبدو- الدافع الذي جعل الولي الصالح (امحمد أبو صاع) يفكر في الاتجاه نحو المغرب الأقصى. وقد قيل عنه أنه عندما شعر باقتراب منيته قرر مغادرة مقره بسهل الجفارة جنوب غرب طرابلس قاصداً المغرب. وكان طاعناً في السن. فأشار لأبنائه بأن يتوقفوا به في المكان الذي تحرن فيه بغلته، فتوقفت به في مكان يقع غرب القيروان على الحدود التونسية الجزائرية الحالية. حيث بقي هناك إلى أن وفاه الأجل. فبنى له أولادُه ضريحاً فيها وعادوا إلى أراضيهم، لاقتناعهم بأن الهجرة توقفت بموت أبيهم ودفنه في المكان الذي أراد.

أما المكان الذي دُفن فيه فيُعرف بـ(سبيبة). ولذلك قصة أسطورية كنّا نسمعها منذ الصغر مختلفة عن سابقتها، ولا علاقة لها بالولي الصالح (أبو صاع)، غير أن البعض ينسبها إليه، فيقول أن فرس (امحمد أبو صاع) غرقت في وادٍ يجري في المكان المذكور، وكانت محمّلةً بكل ما يملك من مال ومتاع، فحاول إنقاذها وتلّها بالسلاسل حتى تقطعت، فخسر أمواله. وبعد رحلة طويلة – ربما إلى المغرب – ذاق فيها مرارة الفقر والعوز عاد من نفس المكان فلاحظ سبيبَ الفرس يطفو فوق المياه الراكدة، فتناول السبيبَ وجذبه إليه، وإذا بالفرس النافقة تخرج من طمم الوادي بكل سهولة ويسر وهي محتفظةً بكامل حمولتها، فاسترد أمواله وخسر فرسه. وقال فيها القولة المشهورة (إذا مشت تقطع السلاسل وإذا جت تجيبها سبيبة)[1]، فسمي المكان الذي أقام فيه بقية حياته ثم دُفن فيه بـ(سبيبة) تبركاً بسبيب الفرس الذي اعتبر كرامة من كرامات (امحمد أبو صاع)، وصارت مدينةً كبرت مع الوقت. ورُوي في السنوات الماضية، أن (حفيظ) ضريح سيدي (امحمد أبو صاع) في سبيبة حلم به، حيث أمره بالبحث في بقايا الوادي القريب من المدينة المنحدر في ذاك الفصل المطير عن قطع من الذهب والفضة. وما كان من الأهالي إلاّ أن هُرعوا إلى الوادي والتقطوا منه بعضاً من تلك النقود. ولعلّ في ذلك بقايا من أموال الولي الصالح أثناء غرق فرسه في الوادي حسب الاعتقاد السائد!

وحقيقة الأمر أن قصة غرق الفرس كثيراً ما ترد في قصص خيالية أخرى بنفس الكيفية وتحمل نفس المقولة، فصارت مثلاً شائعاً بين الناس: (ليا مشت تقطع السلاسل وليا جت تجيبها سبيبة). غير أن (سبيبة) المدينة ذُكرت في تاريخ

---

[1] وهذه الحادثة نسمعها في العديد من القصص الشعبية.

الفتح الإسلامي للمغرب، وكذلك أثناء قيام الدول العربية في الشمال الأفريقي[1]، ولا ندري ما علاقة (سبيبة) بسبيب الفرس الوارد في تلك الأقاصيص الخيالية. ولكن الثابت أن الصيعان يندهون دائما جدّهم عن بعد بالقول:

(بو صاع يا راقد سبيبة.. ندهتك للغايب تجيبه)[2].

(ديِّر يا بو صاع عليَّ.. وعجّل بالطلّة والجيّة)[3].

(يا جد راني نبغيك.. هات الشفي والعز لضراريك)[4].

والندهة أو (المدحة)[5] الأولى تشير إلى أن الصيعان يكثر عندهم الغائب، فمعظم الرجال يسافرون ويغيبون عن بيوتهم وأهاليهم، فتنده الصويعية جدّها – عن بعد – لعل الله يستجيب – بجاهه – ويعيد لها ابنها أو زوجها أو أخاها في أقرب وقت. أما الثانية والثالثة ففيهما طلب الشفاء والعز للأبناء والأحفاد، علاوة على أن المطالبة بالإطلال والمجيء دليل على بعد المسافة بين الناده والمندوه. ويُذكر أن قبة ضريح (سيدي امحمد أبو صاع) كانت تتشقق دائماً، لأنها مصنوعة من الطين، فيلين شتاءً بماء المطر ويتصلب صيفاً بحرارة الشمس، فتحدث تلك العوامل الجوية شقوقاً في القبة. لذلك اعتقدت المرأة الصويعية – ببساطة تفكير ذاك الزمان – أن جدّها يستجيب لها دائماً، فتنتقل

---

[1] فإلى جانب مرور الفاتحين منها إلى المغرب، فقد وصلها أبو يزيد مخلد بن كيدان اليفرني الزناتي (صاحب الحمار) أثناء صراعه مع الفاطميين في منتصف القرن الرابع الهجري. أنظر مثلا: **سالم**، د. السيد عبد العزيز، **المغرب الكبير، العصر الإسلامي**، ط؟1981، دار النهضة العربية، بيروت/ لبنان، صفحات متفرقة. وسنتعرض لهذه المسألة بمزيد من التحليل في الباب الرابع من هذا الكتاب.

[2] **والنده** عربية فصيحة، يقال: **نده الرجل ينده ندها:** إذا صوّت. (اللسان).

[3] **ديّر** عليّ: فعل أمر من الإدارة والتدوير، أي أحطني برعايتك. **الطلة والجية**: الإطلالة والمجيء.

[4] **راني** (في الأصل: أرى أنّي). **نبغيك**: أحبك. **الشفي**: الشفاء. **ضراريك**: أولادك، ذريتك.

[5] **المدحة**: كل قصيدة دينية تمدح الرسول (ص) أو أي ولي صالح.

روحُه من سبيبة إلى أرض الصيعان بسهل الجفارة لتكون بركتُه مع بناته وأبنائه، ومع تكرار النده والاستجابة كانت قبة ضريحه تتشقق دائماً وتسقط[1]! ويقال أن (حفيظ) الضريح، وهو من سكان سبيبة الأصليين، حلم به وأوصاه بألاّ يعيد بناء القبة حتى يسهل عليه الاتصال الروحي بأبنائه عندما يندهونه! وفي سبعينيات القرن الماضي سافر صيعان بنغازي إلى (سبيبة) وبنوا لجدّهم قبّة عصرية بالأسمنت المسلح، فقال فيهم (بلقاسم شريوط)[2]:

(يا ساكن في غير بلادك.. جدّي بوصاع النغّار،
من بنغازي جوك اولادك.. دارو قبّة للزيار).

(دارولك قبة وثابوت.. عليك ديما نرغث بالصوت
يذكر بلقاسم شريوط.. عليك جايب مدحة واذكار
انت فكّاك المربوط.. وتسهّل عنده الأوعار)[3].

لذا كان الصيعان يشدّون الرّحال إلى الغرب والتوجه إلى سبيبة لزيارة ضريح جدهم، بل ويتجاوزونه إلى أماكن أخرى مثل باجة التي يجلبون منها الحبوب. فألفوا تنظيم تلك الرحلات الموسمية واشتهروا بها دون غيرهم من القبائل الطرابلسية الأخرى. ولعل سعي أبناء (امحمد أبو صاع) الأوائل لإرضاء أبيهم وتحقيق رغبته في الهجرة إلى المغرب، سبّبت لقبائل الصيعان عموماً هذا التذبذب بين البقاء في أراضيهم ومراعي مواشيهم، من جهة، وزيارة ضريح جدّهم

---

[1] وكانت عمّتاي (فاطمة وريم) يذكران ذلك في (مدحة) عُرفت عنهما تقول: (رانا أولاد فزّاع، تنغرش يا بوصاع؟)، أي: أنهم أبناء رجال يهرعون (يفزعون) لنصرة جدهم، ويطلبون منه الحضور لنصرتهم.

[2] وهو عمّي بلقاسم بن خليفة شريوط، وكان قد بنى قصيدته هذه على قصيدة قالها أبوه خليفة بن علي شريوط: (يا ساكن من غير بلاده.. دير حدادة.. قعّد راسك ولدك نادى)، سيأتي ذكرها لاحقا.

[3] **النغّار**: الفزّاع الذي يهبّ لنصرة أبنائه. **داروا**: صنعوا. **نرغث**: أصيح بالصوت العالي مستغيثا.

في سبيبة والاهتمام به وصيانته والتبرّك بقربه، من جهة ثانية، فاعتادوا على ذلك مثلما اعتادت قريش على رحلتي الشتاء والصيف بين اليمن والشام. وقد مكّنهم ذلك من توسيع رقعة تحركهم وامتدادها حتى في القطر التونسي حالياً، خصوصاً في الأماكن القريبة من ضريح جدّهم، مؤثرين ومتأثرين بمن عاشرهم وعاشروه من القبائل الواقعة بين أراضيهم في (ليبيا) وضريح جدهم في (تونس)، مثل قبائل نفزاوة القريبة من سبيبة، وقبائل ورغمة على الحدود التونسية مع ليبيا حالياً، وهي حدود مصطنعة لم تكن معروفة في تلك الأزمان.

وكان أبناء (امحمد أبو صاع) وأحفاده يتمنون لو دُفن جدّهم بالجوش ، وهي حاضرتهم التي يلتفون حولها وينتجعون السهول القريبة منها في حالات الاستقرار، ويعودون إليها كلما ابتعدوا عنها. وهذا جدّي خليفة شريوط[1] من المتمنّين ذلك، فيقول:

(يا ساكن من غير بلاده.. دير حدادة.. قعّد راسك ولدك نادى.
ساكن في الجوف.. بين سبيبة والعيطوف..
قبره محدوف.. يا ريته في الجوش رقاده)[2].

وهو يلوم جدّه الذي قرر أن يكون قبره في أرض غير أرضه، وحدّد مكان قبره بين سبيبة والحدود الجزائرية الحالية. إلاّ أن أبناءه تمنوا لو كان قبره في الجوش. وتلبيةً لتلك الرغبة التي فات أوانُ تحقيقها، كان البسطاء من الصيعان يزورون جدّهم في سبيبة، ويعودون منها بحجارة في كل مرّة حتى تجمّع لديهم ما

---

[1] وهو: **خليفة بن علي بن عثمان بن سعيد شريوط**،ـمن مرابطي الشرايطية، من لحمة الجهر، قبيلة أولاد سلام.

[2] **دير حدادة:** لا بد أن تضع حلاً لهذا البعد الذي بيني وبينك. **قعّد راسك:** انهض. **الجوف:** أرض منخفضة. **العيطوف:** منعطف في الجبل. **يا ريته:** يا ليته. **الجوش:** مدينة على الطريق بين طرابلس والجبل الغربي. **رقاده:** قبره، ضريحه.

يبني لهم (روضة) أو (حوطة) في الجوش، يزورونها ويتبرّكون بها!. والغريب أن القبائل الأربع تقاسموا منطقة (الحوض) فيما بينهم، ففي شرقه قبيلتا (أولاد امحمد وأولاد شرّادة) ومركزهم (الجوش)، وفي غربه قبيلتا (أولاد سلاّم والهمايلة) ومركزهم (تيجي)، وقد حاول بسطاء صيعان أيضاً تيجي جلب حجارة من (سبيبة) لبناء (حوطة) لجدّهم في مركزهم (تيجي)، إلاّ أن (حوطة الجوش) بقيت الأكبر والأكثر شهرة[1]!!.

ثانياً- عادة التسوق إلى باجة:

الصيعان – رغم إيلافهم رحلتي الشتاء والصيف – لم يهتموا كثيراً بالتجارة إلاّ نادراً. فهم بدو رحل وأهل وبر وعمود، ينبذون الأمصار ويتوحشون في البوادي، يرعون الغنم والإبل، ويستغلون أية بقعة من الأرض تسقيها الأمطار النادرة فيحرثونها ويزرعونها ويحصدونها، وهذا أقصى ما يمكن استثماره في مجال الزراعة لتوفير الغذاء لهم والعلف لحيواناتهم. وإذا لم يتمكنوا من ذلك يجهزون قوافلهم لرحلة صيفية طويلة، إلى (باجة). وهي في أقصى شمال القطر التونسي، يسمونها عادة (بر فْريقا)، إذ يعود هذا الاسم إلى أول ولاية أفريقية أنشأتها الإمبراطورية الرومانية في الشمال الأفريقي بعد سقوط قرطاجة سنة 641 ق.م. وتتميز هذه المنطقة ببرودة مناخها وغزارة إنتاجها للقمح الجيد. وهذا سبب اختيار الصيعان لها وجعلها سوقاً دائماً لهم يبيعون فيه الإبل ويجلبون منه حاجتهم من القمح، فاشتهروا به دون غيرهم، حتى أن سكان جبل نفوسة يطلقون على باجة اسم (سوق

---

[1] سنتعرّض لمسألة أصل الصيعان وجدّهم الولي الصالح (امحمد أبو صاع) بالدراسة والبحث في الفصل الرابع من هذا الكتاب.

الصيعان)[1]. والقافلة تتكون عادة من أفضل ما لديهم من الإبل، ويختارون لها أقوى ما عندهم من الرجال لحمايتها من أهوال الطريق ذهاباً وإياباً. وكانوا عند مغادرتهم النجع مباشرة ينشدون أو (يهاجون)[2] قائلين:

(أجنابها والمطارق لين تنقضى كل حاجة.. يا مبعدك يا لبرق ويا مقربك يا سوق باجة).

والأبرق أو البارق أو البّيرق هضيبات رملية تقع شمال (تيجي) منها لبرق تيجي ولبرق ضبع الغار[3]. وبعد الانتهاء من كيل القمح، يغادرون (باجة) منشدين:

(رمينا عليها ومدّت بعد انقضت كل حاجة.. يا مقربك يا البارق ويا مبعدك يا سوق باجة)[4].

وفي ذلك اختصارٌ معنوي للمسافة الطويلة جداً، وطمأنةٌ لقلوب الرجال وحثُّهم على تحمل مشاق السفر وأتعابه، إلى جانب تهدئة الإبل التي تأنس صوت الحداء. وهذا يعني أن للكلمة أثرَها العميق في النفس البدوية، خصوصاً إذا كانت مصحوبة بأصوات منغّمة تجعل أركان الجسم تقشعر وتهتز مستجيبة لتلك الصيحات المؤثرة، فتستيقظ همم الرجال وتتأجج عزائمهم ويُقبلون على خدمة

---

[1] أكّد لي ذلك أحد كبار السن من سكان كاباو (الحاج بوشكيوات رحمه الله) عمّر أكثر من 111 سنة.

[2] **المهاجاة:** نوع من الأهازيج والأصوات التي يطلقها الرجال لتبعث فيهم الحماسة وتشجع الإبل على السير: الحداء.

[3] والأبرق مشهور في المنطقة، حيث يشير إليه بيت يقول: (الأبرق وتيجي وجبل نالوتي.. فيهم صبايا يبايعوا سالوتي، أو جو دون هللي ظافرة سالوتي)، وسالوتي أو صالوتي تعني التحية باللغة الإيطالية (Salute) بمعنى الصحة والعافية والخلاص والنجاة.. (التليسي، قاموس إيطالي-عربي)، وهذا يعني أن البيت قيل في زمن الاحتلال الإيطالي لليبيا.

[4] هذا الحداء مشهور عند بعض الليبيين، ولكن عادة التسوق إلى باجة اقترنت بالصيعان أكثر من غيرهم.

القبيلة بنفسٍ مطمئنة راضية مرضية مهما كانت الصعوبات، كما تأنس لها الإبل فتسرع السير رغم طول المسافة وثقل الأحمال.

ثالثاً- قصة اختراع الألقاب، سعيد شريوط أنموذجا:

المعروف عن أهل الزمان الأول أنهم يهتمون بالألقاب والكنايات أكثر من الأسماء التي يسمى بها الشخص منذ ولادته. فسبأ القحطاني – مثلاً – كان اسمه الحقيقي (عبد شمس)، ثم سمي بـ(سبأ) لأنه أول من سبى في العرب، وغيره كثير. والصيعان مشهورون جدا بذلك. فقد عُرف عنهم قدرتهم على صنع (اللكاكيع) جمع (لكّاعة)[1]، وهي صفة يوصف بها الواحد إذا تصرف بما يخالف الجماعة – سلباً أو إيجاباً – فتصير له لقباً أو كنايةً، ومع الوقت يتناسى الناس اسمه الأصلي. ومن بين الضحايا الواقعين في شرك (اللكاكيع) كان الطفل (سعيد) ابن العاشرة أو الثانية عشر، وهو من لحمة (الجهر) من (قبيلة أولاد سلاّم)[2]. قيل عنه أنه كان قوي البنية شديد المراس محباً للمغامرة منذ صغره، يقوم بما لا يقدر عليه البالغون، حتى صار مضرب الأمثال. وكان أبوه يفتخر به في المجالس. وفي رحلة من رحلات الصيعان إلى (باجة) للتسوق كالعادة. أراد (سعيد) أن يكون ضمن الرجال المختارين لحماية القافلة. فرُفض طلبه لصغر سنه. فكتم ذلك في نفسه، وانتظر حتى خرجت القافلة، وانسل من بين أهله ولحق بها، وراح يتعقب أبناء عمومته ويقتفي أثرهم وهم عنه غافلون.

---

[1] أصل الكلمة عربي، فاللُّكع عند العرب اللئيم أو الأحمق، وأيضا خبيث الفعال (اللسان لابن منظور). أو ربما يكون الأصل بالقاف والحاء، حيث يكون اللقاح أو التلقيح في الكلام جائزاً مثلما هو الحال في علم النبات وغيره.

[2] النظام القبلي عند الصيعان يبدأ بالبيت، ثم اللحمة، ثم القبيلة، ثم العرش (وهو مجموعة القبائل).

وصلت القافلة إلى أرض قرب القيروان، وفي إحدى مداخلها ممرٌّ ضيقٌ تسيطر عليه جماعة من الأقوياء وشديدي البأس. وذاك المضيق الواقع بين مرتفعين يسمى (خنقة الشريطة). وهذه أحد الأسباب التي جعلت الصيعان يجهّزون قوافلهم بأقوى الرجال لحمايتها من تلك الفرقة. وكالعادة مرت القافلة بسلام من ذاك المضيق الخطير. أما (سعيد) فوقع في المصيدة دون علم أبناء عمومته. حيث أمرته الجماعة بإخراج ما لديه من مال أو خلع (جرده)[1] من على ظهره، فرفض ذلك بشدة، وتحدّاهم بمنازلته رجلاً لرجل دون سلاح، فإذا غلبوه كان لهم ما أرادوا. فقبلوا التحدّي. وما هي إلا لحظات حتى (تحزّم سعيد بشملة جرده)[2] وراح يصارع الرجال ويطرحهم أرضاً الواحد تلوى الآخر. فاعترفوا له بالشجاعة وقوة البطش، ولكنهم منعوه من مواصلة الرحلة التي تكبّد في سبيلها كل هذا العناء، وطلبوا منه الانضمام إليهم والاستفادة من إمكانياته البدنية. وبشيء من الدهاء وافق (سعيد) على أداء ذاك العمل الذي رآه مناسباً لخوض تجربة يختبر فيها قدرته على استخدام القوة، واختار البقاء مع تلك الفرقة التي كانت تعرف جيداً أنه صويعيٌّ (طرابلسيٌّ)[3] الأصل.

وفي طريق عودتهم من (باجة) فوجئ أبناءُ عمومته بوجوده في ذاك المضيق المشهور، وأنكروا عليه ذلك، وطلبوا منه العودة معهم، فرفض. وعند وصولهم إلى أرض الصيعان وجدوا والدته في حالة يرثى لها، (أيامها سود وخلالها

---

[1] **الجرد**: عباءة صوفية تلف جسم الرجل، فلا يخلعه، وإذا فعل ذلك في مثل هذه المواقف يكون في نظر غيره جبانا.

[2] **شملة الجرد**: طرفه الذي يُحذف على الكتف الأيسر (الشمال)، وربما لأنها تشمل كامل الجسم، أي الشاملة.

[3] **طرابلسي**: كل قادم من ليبيا في زمن ما قبل الاحتلال الإيطالي لها، حيث كانت كل البلاد تُعرف بـ(طرابلس الغرب).

عود[1]، وحزامها ريّ[2]، ورأسها عريان ورجلها حفيانة..)، وليس لها سؤال إلاّ عن وحيدها (سعيد)، فأخبروها بأنه في (خنقة الشريطة). وفي العام الموالي أو الذي تلاه، كان أبناء عمومته (الدانيين) أي الأشقاء، من بين رجال القافلة المتجهة إلى (باجة). وفي المضيق استضافهم (سعيد) وسأل عن أحوال الأهل. وعند رجوعهم من (باجة) نصبوا له كميناً، حيث شغلوه بالحديث طوال الليل حتى أخذه النعاس، فقفزوا عليه قفزة رجل واحد، وأوثقوا يديه ورجليه بالحبال ودلفوه في الغرارة وأحكموا عليه قفلها وحملوه على ناقة أعدت خصيصاً له مع غرارة أخرى مليئة بالقمح، ولم ير النور إلاّ وهو أمام أمه وأبيه وأبناء عشيرته. ومنذ تلك اللحظة بدأ يُعرف باسم (سعيد شريوط) نسبةً لخنقة (الشريطة) التي خاض فيها تلك التجربة القاسية.

تزوج من ابنة عمّه، واشتهر بعلاج داء (الجرب) الذي يصيب الإبل، وكانت إبل المنطقة قد ابتليت بذاك المرض، فكان (سعيد) يطليها بالقار (القطران) حتى شفيت، فحاز على احترام وتقدير كل القبائل بما فيها قبائل منطقة جبل نفوسة. إلاّ أن لقب (شريوط) انتقل إلى أبنائه وأحفاده إلى الآن. ولوقت قريب كانوا يُعرفون بالشدة والبأس وخوض غمار التجربة والقيام برحلات سندبادية لا تخلو من المغامرة وركوب الصعاب. وهذه إحدى بنات أخواتهم تفتخر بهم وتتغنى بمآثرهم وتقول: (خوالي الشرايطية ركّابين الخيل ردّاعين الميل)[3]. إذ كانوا يمتازون

[1] **الخلال**: أداة تمسك بها أطراف رداء المرأة، يصنع عادة من المعادن، ربما الثمين منها، أما في حالة الحزن أو الفقر فيستبدل المعدن بعود من الخشب أو شوكة من جريد النخل. وأصل اللفظ عربي.

[2] **الري**: حبل يفتل من شعر الحيوانات، وهو متين صعب القطع، سمي هكذا لأنه تُروّى به الأثقال على الإبل.

[3] وهي (الفقيرة علاهم) من (لحمة الجهر، قبيلة أولاد سلام)، توفيت عن عمر يقترب أو يناهز 121 سنة، وكانت دائما تروي لنا قصص الشرايطية وغيرهم من الصيعان.

بثلاث خصال: اللباس الفاخر وركوب الخيل واصطحاب كلاب الصيد (السلوقي). كما كان بعضهم يجيد المدائح والأذكار وقرع الدفوف، ولهم أصوات شجية باقية في أحفادهم إلى الآن.

وفي أواخر العهد العثماني الثاني ارتبطت علاقة متينة بين (محمد بن عثمان) وهو حفيد (سعيد) سابق الذكر، و(البي عبيدة المحجوبي) شيخ (صرمان) وكبير أعيانها، وكان محمّد شاباً جميلاً وسيماً يجيد رياضة سباق الخيل. وكانت (عائشة) بنت (البي عبيدة) تقارعه في ذلك، وهي فتاة تجمع بين الجمال والفروسية وعلوّ الشرف والمكانة ما جعلها محل احترام عشيرتها. ومن فرط إعجاب أبيها بالشاب (محمد) زوّجه إياها، فعقّب منها إبنه الوحيد (الصادق)[1] قبل أن يُقتل غدراً وهو في ريعان شبابه. والمعروف أن (البي عبيدة) أصبح فيما بعد من أشهر المجاهدين ضد الغزو الإيطالي في المنطقة، حيث قيل عنه أنه كان يقتل العساكر الطليان ويلقي بهم في البئر حتى يمتلئ، غير أن الطليان غرّروا به وأعدموه شنقاً في الزاوية[2] ضمن الظروف التي لحقت بالمجاهدين عقب صلح (بن يادم) المشهور في تاريخ جهاد الليبيين ضد الغزو الإيطالي.

---

[1] يعتبر الصادق الابن الوحيد لمحمد من عائشة المحجوبية، له ثلاثة أبناء وهم (الهاشمي وعلي والمحمد) يعيش كل أبنائهم الآن في مدينة طرابلس.

[2] ذكر ذلك المجاهد (محمد غالب الكيب الفتحلي) في مذكراته التي نشرها ابنه المرحوم (نجم الدين)، منشورات مركز الحضارة العربية، القاهرة/ مصر، 2116، ص38.

رابعاً- الصيعان وقبائل نفزاوة وورغمّة بتونس:

قلنا أن الصيعان كانوا يشدّون الرّحال – عادة – إلى الغرب لزيارة جدهم في (سبيبة) أو للتسوق من (باجة) أو لمآرب أخرى تتطلبها ظروف الحياة البدوية المتغيرة دائماً. وكان بعض تلك الرحلات يستدعي البقاء لبعض الوقت حسب الحالة المعيشية والاقتصادية المحكومة بأهم ظاهرتين: نزول الغيث النافع أو حلول الجفاف القاتل. فيتجولون في الأرجاء باحثين عن الكلأ والماء. وكانت القبائل العربية في القطر التونسي حالياً تقدّر الصيعان وتحترم جّدهم (امحمد أبو صاع) وتأنس لقربهم وتتبرّك بمجاورتهم ومعاشرتهم طيلة بقائهم بين ظهرانيها. حتى صار للصيعان – مع الوقت – أراض ومراع وآبار خاصة بهم في (بر نفزاوة) و(بر ورغمّة). ومن بين الأسباب الأخرى التي جعلت الصيعان يغادرون أوطانهم ويتجهون إلى (ورغمّة) و(نفزاوة) رفضهم للهيمنة العثمانية وامتناعهم أحياناً عن دفع (الميري)، رغم التزامهم الدائم بدفعها، وهي الضريبة التي يلتزم الأهالي بدفعها لباشا طرابلس الغرب عن كل رأس من الغنم أو الإبل وعن كل شجرة مثمرة، دون مراعاة للفصل ممطراً كان أو جافاً. فكلما سمع الصيعان، بل وكثير غيرهم، بعساكر الباشا تتجه نحو مضاربهم لإرغامهم على دفع تلك الإتاوات بالقوة خاصة في زمن القحط، تركوا مكانهم خالياً. فلا يجد عساكر الباشا من يدفع لهم الميري، فيعودون فارغي الأيدي. وكانت بعض الضرائب –زمن العهد العثماني الثاني– تُقدّر بـ53 قرش عن كل ذكر بالغ، و53 قرش عن كل جمل، و65,38 قرش عن كل بقرة أو ثور، و5,38 قرش عن كل شاة ومعزة[1]. وفي إحدى الوثائق

[1] ميكاكي، رودولفو: طرابلس الغرب تحت حكم أسرة القرمانلي، تعريب: حسن محمود، 1961، القاهرة، ص37

التركيـة التـي اطلعـت عليهـا بنفسـي فـي دار الوثـائق التاريخيـة بالسـراي الحمـراء بطرابلس، يعود تاريخها إلى العهد العثماني الثاني، تعهّدت فيها قبائل الصيعان بألاّ يغادروا أوطانهم إلاّ بإذن رسـمي يصـدر مـن ولاية طرابلس الغرب. ولا نـدري هـل طبّق الصيعان ما جاء في ذاك التعهد أم أنهم واصلوا عصيانهم وتحدّيهم لقوانين الولاية. وفي وثيقة أخرى، مؤرخة بسنة 6161م، نشرها (الدكتور إبراهيم أحمد أبو القاسـم) دون أن يـذكر أسـباب نشـرها ولا الحـديث عنهـا ضـمن مـتن أطروحتـه[1]، تتضـمن الوثيقـة التماسـاً قدمـه مشـايخ أولاد سـلام (الصـيعان) إلـى الإدارة التونسية/الفرنسـية يطلبـون منهـا أن تعيـد لهـم أراضـيهم وآبـارهم بمنطقـة (نفـزاوة) و(ورغمّة)[2]، وهي الأراضي التي اشتروها وامتلكوها واتخذوها – حسب ذكرهم – مرعى لأغنامهم في أوقات سابقة وصارت – مع الزمن – من ممتلكاتهم الخاصة، وذلـك قبـل توقيـع اتفاقيـة ترسـيم الحـدود بـين البلـدين مـن قبـل الإدارتـين التركيـة والفرنسية. ولا ندري هل استجاب الوزير الأكبر لذاك الالتماس أم لا، والظاهر أنه لم يفعل، لأن قبائل الصيعان لا يملكون الآن شبراً واحداً من الأرض في بر نفزاوة وورغمة، وأن الموقعّين في تلك الوثيقة بقوا في أراضيهم بـ(تيجي) إلى وفاتهم.

والعلاقة بين الصيعان وقبائل ورغمّـة قديمـة قدم تـاريخ المنطقـة، فأولاد سلاّم – مثلا – كانوا يشتركون – في وقت ما – مع (أولاد شهيدة) بين (تطاوين) و(رمادة) فـي المكـان كمـا لـو كـانوا أسـرة واحـدة، حيـث كانـت لهـم بـالقرب مـن المكـان أراضـي ملك تُعرف باسم (قرع الصيعان). فاتصلت بهـم الإدارة العثمانية

---

[1] أنظر: **أبو القاسم**، د. إبراهيم أحمد: **المهاجرون الليبيون بالبلاد التونسية**، 1992، منشورات عبد الكريم بن عبد الله للنشر والتوزيع، تونس، ص ص 224، 225.

[2] **قبائل نفزاوة**: شمال جنوب تونس، وقبائل **ورغمّة**: في أقصى جنوبها.

في آخر عهدها وطلبت منهم التشريق قليلاً والاقتراب إلى وسط قضاء الحوض حتى يمكن الاستفادة من الضرائب المقررة باعتبارهم ملاّك حيوانات. وكانت في المكان جابية ماء يسقي منها الصيعان وأولاد شهيدة إبلهم وأغنامهم، فرفضوا اقتراح الأتراك وفضّلوا العيش في المكان معتبرينه وطنهم الأصلي. وكان من بين وجهاء أولاد سلاّم وقتذاك (عثمان بن بلقاسم) وهو شاعر من الأبقار، فردّ عليهم بالقول:

(أني ما نخلّي منزلي وفلاتي.. كانش نخلّي قبلتي وصلاتي..
ما نــــــــــزوزش داري.. ونكريف ما نبيعاش للّي شاري..
والبــرّ ليَّ ظاهري وجفاري.. وقريات فيه يربّعوا خلفاتي)[1].
مسعود ومسيعيدة.. وجت قُرعتي وقُرعة ولاد شهيدة..
نجيهم انّواوي من بلاد بعيدة.. عماهم نربّع زاهية قمراتي)[2].

ويبدو أن هذه القصّة لها علاقة ما بما جاء في الوثيقة سابقة الذكر، والتي وجدناها صدفة في دار الوثائق التاريخية بالسراي الحمراء، علّق عليها المترجم التركي الذي استعانت به الدولة الليبية لترجمة الوثائق التركية المكتوبة بالحرف العربي القديم الذي أوقف التعامل به مصطفى كمال أتاتورك. يقول التعليق أن جميع قبائل الصيعان تعهّدوا لباشا طرابلس أن يستقرّوا في مكان يمكن جباية الضرائب منه بسهولة، وألاّ يغادروه إلاّ بإذن رسمي من الولاية.

---

[1] **نخلّ**: أترك وأتخلّى. **كانش**: إلاّ إذا كان. **ما نزوزش**: لا أتجاوز. **نكريف**: مكان قريب من الرمادة جنوب تطاوين. **ظاهري وجفاري**: جبلاً وسهلاً. **يربّعوا**: يقضون فيه فصل الربيع. **خلفاتي**: خلفائي.

[2] **مسعود ومسيعيدة**: يقعان جنوب رمادة. **القُرعة**: هنا بمعنى النصيب والمكتوب. **نجيهم**: آتي إليهم. **انواوي**: بقوة كقوة النوة التي تتجه مباشرة إلى المكان الذي تُسقط فيه الغيث. **عماهم**: معهم. **نربّع**: أقضي فصل الربيع. **زاهية**: مضيئة، أي فرحة. **قمراتي**: قمر+تاء جمع التأنيث+ياء الملكية.

خامساً- قصة تيجي حسب بعض الروايات الشعبية[1]:

تقول الأسطورة أن جماعة من العرب سكنوا (قصر تيجي) وهي عاصمة مملكة (قنطرار) القديمة. هجمت عليهم -ذات يوم- فرقة قوية يقال لهم (الدرايسة) وأبادتهم عن بكرة أبيهم باستثناء فتى أشفق عليه أحد الفتيان المهاجمين وساعده على الهرب مع عدد من النساء. فهاجر بهن إلى تونس، واستقر بالقرب من عاصمتها، ربما في منطقة (الفحص) المعروفة بخصوبة تربتها. وبنى للنساء أربعين بيتاً، وكان يتزوج منهن أربع نساء في كل مرّة. وبعد بضعة عقود من السنين صار له منهن أبناء وأحفاد، دون إفشاء سرّه لأحد منهم. وفي يوم من الأيام استفز أحدُ الجيران الابنَ الأكبرَ للرجل بأن قال له: (يا طرابلسي) مشيراً إلى انتمائه الليبي. فاتجه مباشرة إلى بيت أبيه، ورفض الترجّل من على فرسه قبل أن يخبره حقيقة أمره. وما كان من الوالد إلاّ الرضوخ لطلب ابنه الغاضب، وروى له القصة بحذافيرها. فاتفق مع أبنائه على الرحيل والعودة إلى أرض الوطن، وأعدّ العدة، واستلف بعض الدواب من جاره. وما هي إلاّ أيام قلائل حتى كانت القافلة متجهة نحو الشرق.

أما التونسي صاحب الدواب فقد وجّه له أهلُه لوماً جارحاً، حيث أنكروا عليه فعلته تلك، وأشاروا عليه بأن الطرابلسي (الليبي) قد لا يعيد إليه أرزاقه. فدبّ الندم في نفسه، وقرر اللحاق بصاحبه وتقفي أثره. ولكنه عندما وصل إلى سبخة قريبة من صفاقس وجد أثراً يفيد أن صاحبه لا ينوي خيانته، فتراجع عن ملاحقته، وقفل عائداً إلى بيته.

---

[1] رواها لي المرحوم (علي بن عظيّم) سنة 1972، وهو (فوقي) من أولاد سلام.

وصل الرجل بقافلته إلى (تيجي)، وبقي متربصاً بالفرصة عند إحدى حوافها الغربية. إلى أن شاهد فتيات يردن الماء، وعلم أن ابنة صاحبه الذي أنقذه وساعده على الهرب كانت من بينهن، وقد صار شيخاً لقبيلة الدرايسة. فأوصاها بأن تقرئ والدَها السلام وتنقل له هذه العبارة: (عليك الطويل ينادي)، وهي شفرة تمكن الشيخ من فكّها وفهم رموزها. ومع الفجر تسلل مع نسائه وأطفاله من الوادي المعروف باسم (الطويل)[1]. وكان ذلك بمثابة إشارة لبدء الهجوم على القرية والناس نيام. فانقض الرجل على (الدرايسة) وعمل السيف في رقابهم واستأصل شأفتهم ولم يترك منهم أحداً، وتمكن من استرداد وطنه وانتقم من الدرايسة بنفس الوحشية والإبادة الجماعية التي عملوها في أهله عند احتلالهم (تيجي) أول الأمر.

وعند تحليل محتوى هذه الرواية يرد السؤال التالي: (هل حدث ذلك قبل تشكل قبائل الصيعان أو بعده؟) وفي ذلك فرضيتان رئيسيتان:

الفرضية الأولى= إذا كان المقصود بـ(الدرايسة) هو (الأدارسة) الذين تشكلت دولتهم بالمغرب الأقصى بقيادة (إدريس بن عبد الله)، فإن تلك الدولة حكمت المغرب في الفترة الواقعة بين القرنين الثامن والعاشر الميلاديين. وهذا يعني أن حادثة احتلال تيجي واسترجاعها وقعت قبل هجرة بني هلال وبني سُليم في القرن الحادي عشر، والتي يقال أن الصيعان ينتمون لإحدى بطونها على ذكر بعض الروايات. وأيضاً وقعت قبل قيام دولة المرابطين الذين يقال أن الصيعان منهم[2]، بدليل قدوم أجدادهم الأوائل من الساقية الحمراء ووادي الذهب على ذكر

[1] لازالت هذه العبارة (عليك الطويل ينادي) تضرب كمثل لإعطاء مهلة مفتوحة الأجل لإنجاز عمل ما.

[2] ليس بالضرورة أن ينتمي المرابطون في ليبيا إلى رباط عبد الله بن ياسين بجنوب المغرب الأقصى، فالمرابطون أيضا من التزموا الأربطة للحراسة ونذروا حياتهم لخدمة الدين وتحفيظ كتاب الله للناشئة، وهذه الحركة الدينية تقابل حركة (العزّابة) عند الإباضية.

روايات أخرى. وهذا يؤكد أن أحداث تلك القصة وقعت قبل تشكل قبائل الصيعان المعروفة. وهنا يرد رأي ثالث يوحي بأن قصة الاحتلال مبالغ فيها، إذ قد يكون أبطالها هم أفراد جاءوا من المغرب بقصد الاستيطان وليس بقصد الاحتلال والتقتيل الجماعي. ولا يُستبعد أنهم من الأدارسة الذين تشكلت منهم بعض القبائل في المنطقة، ولا يُستبعد – أيضاً – أن (امحمد أبو صاع) الذي ترجعه بعضُ الروايات إلى (الشرفا)[1] كان منهم قبل أن يحمل لقب (أبو الصاع) ويسري في أبنائه وأحفاده.

الفرضية الثانية: أما إذا كان (الدرايسة) غير (الأدارسة)، وهو مجرد انتماء إلى أي إدريس، فلا تكون تلك الجماعة إلا فرقة من المغامرين وقطاع الطرق، بدليل همجيتهم ووحشيتهم التي احتلوا بها (تيجي) وإبادة أهلها إبادة جماعية. وفي هذه الحالة لا يمكننا إرجاع تلك الحادثة إلى زمن معين. فقد يكون نفس الزمن الذي تشكلت فيه الصيعان على هيئة قبائل بدوية تجوب الصحاري والبوادي بعيداً عن المدن والعمران. وربما استعان بهم الرجل وهو في قلة من أبنائه وأحفاده عند استرجاعهم لـ(تيجي) من أيدي الدرايسة. والبعض يقول أن ذاك الرجل قد يكون جد أولاد طالب، وهذا أمر لا يجانبه الصواب، لأن أولاد طالب ظلوا إلى وقت قصير قلة تابعة لأولاد سلام (أكبر قبائل الصيعان)، وهم من العرب البدو الرحل، ولم ينفصلوا عن الصيعان إلاّ مؤخرا. وقد نجد لذلك دليلا عند (دي أغستيني) الذي أرجع أولاد طالب إلى (دبّاب، جذم بني سُليم) ولهم أصل مشترك

[1] الشرفاء: من آل البيت.

مع الحرابة والحوامد والرحيبات ويتبعون تقليدياً أولاد سلام[1]، وبالتالي تشترك أصولهم الأولى مع الصيعان في زمن التشكل، قبل أن تنزل جماعة منهم (ربما برئاسة جدهم الأول المدعو: طالب) من قرية (تملوشات) بالحرابة وتختلط مع الصيعان بالمعاشرة والجوار ثم بالانتماء. بذلك تكون قصة استرجاع (تيجي)، إما أنها كانت سابقة ولا علاقة للجميع بها، أو أنها لاحقة واشترك فيها جميعهم. أو أن تكون مجرد قصة خيالية لا أساس لها من الصحة.

أما علاقة أولاد سلاّم بأولاد طالب، فيقال أن (خليفة بن عثمان) دفين (زلطن) تزوّج طالبية، وأنجب منها (سلاّم) جد قبيلة أولاد سلاّم. وفي يوم من الأيام وجدت قبيلة أولاد سلاّم نجعاً من أولاد طالب في (بر نفزاوة) مسالين ومطالبين بدفع دين من قبل أهل المكان. وكان لأولاد سلاّم عيون ماء في (نفزاوة) فباعوها ودفعوا دين أولاد طالب. وبالتالي يكون أولاد طالب، أو جزء كبير منهم، أخوالاً لأولاد سلاّم الصيعان.

سادساً- صيعان ورفلة (بني وليد):

كانت وجهة الصيعان غالباً إلى الغرب كما ذُكر[2]، حتى انطبق عليهم القول الشعبي المأثور: (واخذ على الرحيل مغرّب). وتعتبر الرحلة إلى الشرق شذوذاً. إلى أن حصل ذات مرّة أن هاجر أحدُهم إلى الشرق، يقول (دي أغستيني) أنه من قبيلة (أولاد شرّادة) أو من قبيلة (الهمايلة)[3]. وقد حصل ذلك

---

[1] **دي أوغستيني**، هنريكو، **مصدر سابق**، نفس الصفحة. والمعلوم أن المعلومات التي نقلها دي أوغستيني عن أهالي المنطقة تعود إلى سنة 1917 وهي سنة كثرت فيها الهجرات بسبب المجاعة والاحتلال الإيطالي لليبيا وأحداث الحرب العالمية الأولى..

[2] البعض من مرابطية الصيعان وصل إلى فزان، ولكن في رحلات فردية وليست جماعية كما يحصل مع الغرب.

[3] أنظر: المصدر السابق، نفس الصفحة.

تحت ضغوطٍ قبليةٍ معينةٍ. وكان مصحوباً بكافة أهل بيته وحاملاً معه كل ما خف وثقل وزنه من متاع. حتى وصلت قافلته في نهاية يوم من الأيام إلى مكان يجهله (ربما منطقة وشتاتة)، فقرر المبيت فيها لمواصلة الرحلة في الغد. ولم يكن يعلم أن المكان الذي نصب فيه خيامه كان محل خصام بين القبيلتين الشقيقتين (ورفلة وترهونة). وما أن لمح بعضُ أفراد القبيلتين بيوتَ الشعر ودخان النيران حتى ظن كل منهما أن خصمه الآخر حل بالمكان متحدياً ومعتدياً على حرمات الهدنة بينهما. و(صار الفزع)[1] و(ضرب الطبل)[2] لدى الفريقين، فركب الرجالُ الخيولَ وامتشقوا السلاحَ وقصدوا المكان، وعندما وصلوه اكتشفوا أن الوجوه التي تنتجعه غريبة ولا عهد لهم بها. وفي غفلة من الصويعي عما يجري قام بالترحيب بأعضاء الفريقين، و(علّق) لخيولهم[3]، وأمر رجاله بذبح الخراف، ونساءه بإعداد الطعام. وطلب من الضيوف الدخول إلى خيمة الضيافة. فدخل الفريقان وكلاهما في حالة من الذهول والحيرة، ولم يستطع أحد منهم الإفصاح عما بداخله، مكتفين فقط بتبادل النظرات المريبة بينهم، وهم يردّون على الصويعي تحيته ويتبادلون معه عبارات الترحيب بكثير من المجاملة. والمعروف عن البدو أن التعارف لا يتم قبل تناول الطعام واحتساء (طاسة الشاهي). وبعد الانتهاء من ذلك علموا أن مضيّفهم لم يكن (ترهونياً) ولا (ورفلياً)، وإنما كان (صويعياً) ساقه القدرُ إلى هذا المكان محل الخصومة. فاتفق الفريقان على أن (بركة امحمد أبو صاع) حضرت، وأن إرادة الله حالت دون مواصلة الاقتتال بين الأشقاء، واتفقوا أمام الصويعي أن تكون

---

[1] **صار الفزع**: لفظ يشير إلى حالة الاستنفار.

[2] من عادة البدو أن يقرع الشيخ الطبل يطلبُ من خلاله حضور الرجال إلى بيته لأمر هام.

[3] **علّق للخيل**: زودها بالعلف بواسطة نوع من الأكياس الخاصة تُعلق في أعناقها.

أوتاد بيته المبارك الحد الفاصل بين أراضي الفريقين، وتعانقوا بحرارة، وتعاهدوا على نبذ الخلاف بينهما. وساد الجميعَ جوٌّ من الإخاء والانسجام التام، حتى دفعت الشهامة البدوية أحد الفريقين أن يدعو الصويعي إلى الإقامة بينهم. فعارضه الفريقُ الآخر بشدة مبدياً رغبته في استضافة الصويعي. فشبّ بينهما الخلاف من جديد وتعالى بينهما الصراخ والصياح، إلى أن حسم الصويعي الجدل باقتراحه إجراء القرعة. فهدأت أنفس الجميع، ورموا القرعة، فكانت من نصيب (ورفلة) ورضيت بها (ترهونة). وما أن جاء الصباح حتى كانت قافلة الصويعي تتجه نحو مضارب بيوت (ورفلة). وهناك بدأت قبيلة (صيعان ورفلة) تتشكل وتتكاثر، ومن نسلهم جاء المجاهد الكبير (عبد النبي بالخير). وهم الآن يدخلون في صميم التكوين القبلي لقبائل (ورفلة)، بل ويرتقي عندهم الشعور بالانتماء لوطنهم (ورفلة)[1] إلى أعلى درجات الغيرة عليه والتفاخر به.

أما في هذا العصر فلم تعد الهجرة والسفر فقط في اتجاه الغرب، وإنما كثير من عائلات الصيعان شدّوا الرحال إلى الشرق، حيث يوجدون حالياً بأعداد كبيرة في المنطقة الوسطى وبنغازي والجبل الأخضر. وبدأوا يُعرفون بصيعان الشرق أو بصيعان بنغازي، مثلما عرف قبلهم صيعان ورفلّة.

وبالعودة إلى أي القبائل يعود صيعان ورفلّة، فإننا نعتقد أن الذي رحل إلى هناك، لا يكون غير هميلي (من الهمايلة). وبنينا اعتقادنا على بعض الظواهر اللهجية عند أبناء قبيلة الهمايلة لا توجد في غيرهم من قبائل الصيعان الأخرى. وذلك مثل إثبات نون النسوة في الأفعال، وهي عادة لهجية انفرد بها ليبيو الشرق،

---

[1] أصل ورفلة من بني ورفلّة من بطون هوّارة، أما سكان المكان الحاليون فهم عرب من بني وليد.

لا سيما قبائل ورفلّة، وذلك مثل قولهم: (جن مشن)= (جئن ومشين) بدل (جَوْ ومشَوْ، أي النساء والبنات) كما ينطقها قبائل الصيعان في الغرب. ويقول الشاعر الهميلي: (اليوم ما وردنشي.. يعطيهن قبيلي باش ما يغبّنشي). علاوة على نطق: (هذاتّا، وهناياتّا)= هاذاك، وهنا، وهي تختلف عن نطق سكان المنطقة الغربية وتقترب من نطق سكان المنطقة الشرقية. إذ يبدو أن الشخص الذي ارتحل هناك لم ينقطع عن أهله، بل تبادل معهم الزيارات، فانتقلت تلك الظواهر اللهجية إلى أبناء عمومته وأقاربه من صيعان الغرب، وكان الهمايلة أقرب إلى ذاك التأثير.

سابعاً- الزواج من بنات القبائل المجاورة:

العصبية في مسألة الزواج من شيم العرب، وهي ليست فيهم نقيصة، بل هي حفاظ على تماسك القبيلة وحمايتها من التفكك والانحلال والتشتت والتفرق. والصيعان – كبدوّ – كانوا متمسّكين بهذه العصبية وحريصين عليها ومتشدّدين في الحفاظ على أنسابهم، والابتعاد عن الزواج من خارج قبائلهم، بل ومن خارج القبيلة الواحدة أحياناً. ومع الزمن بدأت تلك العصبية تفتر ولو بنسبة قليلة، حيث سمحوا لفتيانهم بالزواج من خارج القبيلة، وحرّموا ذلك على فتياتهم. ربما كان ذلك مدفوعاً بالعادة العربية السائدة منذ العصر الجاهلي بأن يبحث العربي دائماً عن بنت الشرف وذات الأصل النقي للاقتران بها واتخاذ أهلها أخوالاً لأبنائه. وقد نجد عند البدو أمثالاً تكرّس هذا المبدأ وتمتدحه، مثل: (حصتين للخال..)، و(يا خالي عليك ريحة أمي)، و(إذا جعت عليك بأخوالك، وإذا انضمت عليك بأعمامك).. وقد تتدخل (بركة امحمد أبو صاع) أحياناً في زواج الصويعي من غير ابنة عمه. فإذا خطب فتى صويعيٌ فتاةً من قبيلة تمنع تزويج بناتها للغرباء أيضاً،

فلا يجد أهلُها بدّا من الموافقة دون تردد، ربما يكون ذلك بدافع التبرّك بجد الخاطب. أما إذا أراد فتى من قبيلة أخرى خطبة فتاة صويعية، فلا ينالها بحجة أن جدّها لا يقبل خروج بناته عن دائرة الصيعان، وهو أمرٌ لا يجوز مخالفته وحدٌّ لا يمكن تجاوزه. فلا يجد أهل الخاطب – أمام هذا الواقع المفروض – إلاّ الرضوخ له بقناعة تامة. وهذه الظاهرة باتت معروفة ومحترمة من قبل كل قبائل المنطقة.

ومن آثار التقاليد السابقة في مسألة البحث عن الزوجة الصالحة لعمارة البيت والخؤولة المناسبة للذرية، كان لأبناء الصيعان أخوال كثيرون من القبائل القريبة منهم، سواء من سكان السهل أو من سكان الساحل، وأحياناً من سكان الجبل أيضاً. إلاّ أن القبيلة التي لها نصيب الأسد في دخول بناتها إلى بيوت الصيعان، كانت قبيلة (أولاد شبل) المنتشرة حول مدينة (شكشوك)[1]. والتي يقول (دي أغستيني) أنها من المحاميد، بينما يرجعها (النائب الأنصاري) إلى بني رياح[2]. لذا فهم من البدو الرحل يشتركون مع الصيعان في البداوة والترحل والتجول في المكان. وربما كان ذلك سبباً في كثرة زواج أبناء الصيعان من بناتها. حتى أن البعض يسمي (الشبالة) بأخوال الصيعان.

إلاّ أن هذا التوجه بدأ يحيد عن مساره لعدة اعتبارات حضارية. إذ بدأ الاقتناع بعدم خروج الفتاة الصويعية عن دائرة قبيلتها يبتعد شيئاً فشيئاً عن أفكار الأجيال الحالية، فلا يضير كثيراً من العائلات زواجُ بناتها من غير أبناء عمومتهن، خصوصاً بعد أن أكّد علم الجينات الحديث خطورة زواج الأقارب على المواليد

---

[1] شكشوك: تقع قبل الجوش على الطريق بين طرابلس ونالوت.

[2] دي أغستيني، نفس المرجع، ص498.

وما يسببه لهم من إعاقات. ورغم ذلك لا زال كثير من العائلات تتمسك بزواج أبناء العمومة، فلا يسمح البعض بخروج ابنته خارج الأسرة إلاّ لمن ليس لها (قبل) أي ابن عم قريب يصلح أن يكون زوجا لها.

ثامناً- الإغارة على الإبل (الزغوب):

العلاقة بين القبائل البدوية المتجاورة كانت تحكمها الأعراف وتُقيّدها المواثيق الشفوية التي تُعقد بين رؤسائها وشيوخها حول كثير من المسائل، وذلك مثل تحديد أو تقسيم أراضي الحرث والمراعي ومعاطن ورود المياه، واستضافة النجوع وطلب الجيرة وتبادل الزيارات واللجوء عند القحط والجفاف، وحتى الطرق والمسالك أحياناً، إلى جانب المشاكل الجنائية كالقتل والثأر والدية والدم والهروب بالنساء وإيواء الجناة والهاربين، ووضع حلول مؤقتة أو دائمة لتلك المشاكل مهما كانت مستعصيةً. وفي جميع الأحوال كانت سماحة البدو ولين عريكتهم وبعد نظرهم هي العوامل المسيطرة على أفكارهم وسلوكهم وتصرفاتهم. كما أن الصدق والوفاء بالعهد تأصيل يكشف عن أخلاق البدو.

غير أنه في بعض الأوقات التي تتردى فيها الأحوال الاقتصادية، بسبب قلة الأمطار أو أي سبب آخر يؤدي إلى اختلال الموازين المعيشية وبروز ظاهرة التمايز بين فقير معدم وغني مترف، عندها لا تجد تلك الأعراف والمواثيق من يحترمها ويطبّقها، خصوصاً إذا بلغ الأمر درجةً عاليةً من الفقر المهدد بالهلاك جوعاً أو بالموت عطشاً. فلا تجد الجماعة غير الدفاع عن النفس ضد الموت والبحث عما يسد الرمق ويشبع الحاجات الضرورية والملحّة مهما كانت الوسائل. وكما يقول المثل الشعبي (الشر كافر بالله) والشر هنا هو الجوع، والجوع عند

الإنسان غريزة حيوانية إذا بلغت مداها وتجاوزته لا تكون إنسانية مهذّبة بل تصبح حيوانيةً شرسة. في هذه الحالة تتحامل القبيلة المحتاجة على نفسها وتجمع شتات قوتها وتستعد للإغارة على قبيلة أخرى لها مقوّمات حياتية أفضل.

والواقع أن مجرّد التفكير في الإغارة (الزغوب) والتعدّي على أرزاق وحرمات الغير مهما كانت الدوافع لا تخلو من الغرابة، بل من الأنانية المفرطة المتطابقة مع الأفكار الغائية الميكيافيلّية (الغاية تبرر الوسيلة)، وهي – في جميع الأحوال – مرفوضة أخلاقياً واجتماعياً، ناهيك عن أنها محرّمة دينياً. ولكن لحظة الجوع والعطش كانت عصيبة على رجال تُشرف نساؤهم وأطفالهم ومواشيهم على الموت وهم يتفرّجون. فلإغارة الإغارة، ولا شيء ينقذ الحياة غير الإغارة!

وقد يتبادر للذهن أن هذا الوضع يشبه حياة العرب في الجاهلية، لا سيما حياة الصعاليك، إلاّ أن الإغارة في العصر الجاهلي لم تكن في الغالب من أجل سد رمق الحياة، بل كانت مدفوعة بالشهوة لزيادة المال وطلب الجاه والسلطان بدليل أنها كانت مصحوبة بسبي النساء والأطفال إمعاناً في إذلال القبيلة المغار عليها. أما إغارة البدو في الزمن المتحدث عنه كانت مدفوعة بغريزة البقاء، فلا تستهدف غير الرزق المتمثل عادة في الإبل نظراً لبعد مراعيها عن مضارب بيوت أصحابها. ومن أخلاق المغيرين أنهم لا يؤذون الرعاة، فلا يأسرونهم ولا يقتلونهم. والمعلوم أن الإبل كانت إحدى مصادر رزق البدو الرئيسية، فيقولون فيها: (يا عوجة السيقان يا مدّادة.. يا سعد من ربَّى عليك أولاده)[1]، فبواسطتها يسافرون ويرتحلون، ومن لبنها يقتاتون، وبوبرها يتدثرون، وبجهدها يحرثون الأرض

---

[1] **عوجة السيقان:** صفة للإبل للقبج الذي في سيقانها.

ويدرسون، وفي الأسواق يبيعون ما تُنجبه ويحصلون على المال ويثرون، فتخاطب الفتاة خطيبها بالقول: (لزرق فحل البل برّ بيعه.. واشريلي بيه أخراص بالتربيعة)[1].. ولهذه الأسباب تكون الإبل هدفاً للمغيرين وقبلة للجائعين الجشعين. وبالتالي تقوم القبائل بتجهيز أبنائها وتدريبهم على المصاولة والمجاولة وركوب الخيل والذود عن أرزاقهم وحماية إبلهم أو حيازة إبل غيرهم.

وعندما يشتد موسم الإغارة ضراوةً، تلجأ القبائل إلى عقد الأحلاف بينها لرد غارات القبائل الأخرى، أو استعداداً للإغارة عليها. ولم تكن تلك الأحلاف دائمة وطويلة الأجل، فالقبيلة الغائرة بالأمس قد تكون اليوم حليفةً والعكس صحيح. وقد أشار (الشيخ الطاهر الزاوي) في كتابه (معجم البلدان الليبية) إلى أن الصيعان كانوا يغيرون على (ورغمّة)، وهي قبائل تقع الآن داخل الحدود التونسية، ولم يقرن مسألة الإغارة بأية قبيلة ليبية أخرى غير الصيعان، كما لو كانت الإغارة سمة خاصة بهم، ولم يذكر أن (ورغمّة) هي التي كانت تغير على الصيعان وعلى النوايل وحتى الزنتان في الجبل وغيرهم. إلى جانب ذلك كانت بعض القبائل المحلية المغيرة تُعرف لدى الجميع بـ(المحارم)، أي دائمي الإغارة، أو (المزارقية) أي المسلّحين (وهم في الأساس حاملي المزارق = الرماح). لكن الصيعان – بحكم أنهم من المرابطين الأشراف – لا يغيرون على غيرهم، إلاّ في حالة رد إبلهم المغتصبة من قبل غيرهم مهما كانت الوسائل، والتي تتأرجح بين استخدام القوة واللين، وذلك بحسب الظرف وقوّة القبيلة المغيرة.

[1] أخراص بالتربيعة: نوع من الأقراط.

وللإغارة على الإبل أو استردادها من مغتصبيها مراسم ومواقف خاصة تتسم بالجرأة والشجاعة والتضحية وبذل النفس رخيصة فداءً لممتلكات القبيلة أو حياة أفرادها. و(لاحق البل) أي المكلّف باستردادها -فرداً كان أو جماعةً- لا يعود بدونها، إما مستردّها أو ميّتٌ دونها (يا قاتل يا مقتول)، وإذا فشل في ذلك لا يعود إلى أهله، خوفاً من أن تندبه أمه ويتبرّأ منه أبوه. كذلك الأمر إذا كُلّف بالإغارة على إبل الغير، فلا يعود إلاّ ظافراً بها. وإذا نجح في كلا العمليتين يُستقبل بالأهازيج والزغاريد وطلقات البارود. ومن الأهازيج التي كانت تُردد في هذا الخصوص تلك التي تقول:

(البل يا بن حديدان.. ما تنزل الطرف بيها
وراهي كما قدحة النار.. واللي حازها راح بيها)[1].

ويقال أن ابن حديدان هذا صاحب إبل كثيرة أو هو خبير بها، وهو من قبائل (ورغمّة) والأرجح أنه من (الرّبايع) المجاورين للصيعان والنوايل. كما يقال أن هذه الأرجوزة من (برّاش الهلالية) القديم الذي يتقنه نساء البدو إلى الآن. وقائلها إما أنه يهدد صاحب الإبل بالإغارة عليها، أو أنه يتوعّد باسترجاعها منه إذا كانت مغتصبة في وقت سابق. وفي كلا الحالتين يبرز الشاعر جانب القوة لمن سيتمكن من تلك الإبل لتصير في حوزته ويسوقها إلى أهله. وفي أرجوزة أخرى يقولون:

(حميري مكركد وبرها.. وجي منزلك في الجداري
سمعو الضراري خبرها.. وجو سالّين الغداري) أو (وجو راميين الوزاري)[2].

---

[1] **تنزل الطرف بيها**: من الكثرة فلا تستطيع العين إحصاءها. **واهي**: أصلها: أراها أو أرى أنها. **قدحة النار**: إشارة لسرعتها.

[2] **الوزاري**: جمع (وزرة) وهي رداء رجالي من الصوف الأحمر، كالجرد تماما.

وهي مثل سابقتها، حيث تُستهل بالتغزّل في الإبل (حمراء الوبر) التي اقتربت من مضارب بيوت قبيلة الشاعر، أو ربما دخلت في مراعيها، فوصلت إلى مكان يغطيه نبات (الجداري). وعندما بلغت أخبارُها مسامعَ رجال القبيلة وفتيانها (الضراري)، امتشقوا أسلحتهم (الغداري) وهرعوا للإغارة عليها وضمها لإبلهم. وهذه الأراجيز مستقطعة من ثقافة ذاك الزمن العصيب الذي فرض على البدو استخدام القوة من أجل البقاء، حتى وإن كان ذلك ضد القبائل الشقيقة التي تنتجع نفس المكان وتشترك في نفس المصير، فأقبل الناس مُكرهين على هذا النوع من التصرف الذي لا نراه اليوم مقبولا. إلاّ أن الجدير بالملاحظة والذكر أن الصيعان لا يغيرون على إبل أية قبيلة مجاورة وذلك لسببين:

6)-لأنهم من المرابطين الأشراف الذين لا يأكلون المال المغتصب، كما سبق الذكر. ويخافون من (دعوة) جدّهم الذي أوصاهم بتجنب السرقة والكذب..

1)- ولأنهم من المكتفين ذاتياً من الإبل والأغنام، وهي حرفتهم.

ولكنهم امتلكوا القدرة على استخدام القوة في رد إبلهم المسلوبة منهم، فلا يعود الصويعي بغير إبله (قاتلاً أو مقتولا). وفي حال عجزه على رد إبله بالقوة يضطر لمسالمة المغيرين واستخدام الوساطة وجاه جدّه امحمد أبو صاع في إقناعهم برد إبله سلماً، وبالتالي لا يعود إلى أهله دون إبله. وقد اشتهروا بذلك بين القبائل المجاورة، حتى قالوا في الإبل الحداء التالي:

(يستاهلوك الصيعان يا ام المناخر مدّادة

يا يضربو عليك بزناد يا يلحقوك ردّادة)[1].

---

[1] **يستاهلوك**: يستحقونك. **المناخر**: أنوف الإبل. **ردّادة**: يقومون بردّها بالوسائل السلمية.

لذا كانت بعض القبائل المسماة بـ(المحارم) أو بـ(المزارقية) هم من يغيرون على إبل الصيعان، وليس العكس، وقد اشتهر عندهم القول:

(حصانك وسرزك ومكحلتك وسروة ليلة

وبرّ قدا الصيعان وهات كحيلة)[1].

وقديماً كان يقال: (حصانك وسرزك وسيفك وسروة ليلة..)

ومن أهم القبائل المجاورة للصيعان –داخل أرض الوطن– التي ترفض الإغارة على إبل الصيعان مهما كانت الدوافع والمبررات، كانت قبيلة (السّبعة)[2] وهم من (قصر دلّة) قرب (قصر الحاج)، إذ كانوا يعتقدون كثيراً في الولي الصالح (سيدي امحمد أبو صاع). و(السبعة) من الفرسان الشجعان المعروفين في المنطقة، ومنهم الشعراء الفحول. فقد أعلن شاعرهم صراحة عدم الإغارة على (محور الصيعان)[3] فيقول مخاطباً فرسه:

(يا سابقى بوصاع ما تغزيلة.. ومولاك ما طالب عْمَ الله حيلة)[4]

(يا نهّابة.. بالك عماه ترافقي الزغّابة[5]..

بو صاع عندي زي ذخر الصابة.. ندهة من الندهات جاي اقبيلة)[6].

---

[1] **السرز**: السرج. **المكحلة**: البندقية. **السروة**: الخروج آخر الليل. **برّ**: إذهب. **قدا**: لدى. **كحيلة**: الإبل.

[2] كانت قبيلة السبعة والغنايمة ضمن حملة ابني يوسف القرمانلي (علي وإبراهيم) ضد أهل ورفلة وحلفائهم من أولاد سليمان والقذاذفة سنة 1831م، كما ذكر يوسف القرمانلي في رسالته إلى وزيره محمد بيت المال. أنظر نص تلك الرسالة في: **ميكاكي**، رودولفو، **مصدر سابق**، ص64،65.

[3] **المحور**: الإبل.

[4] **يا سابقى**: بالإمالة والأصل (يا سابقاء) أي السبّاقة في الجري، وهي الفرس. **مولاك**: صاحبك. **عم الله**: مع الله.

[5] **عماه**: معه. **الزغّابة**: المغيرون.

[6] **النده**: الصياح والاستغاثة بجاه الوبي الصالح. **جاي**: آت. **قبيلة**: بضم القاف أو سكونها، الأصل: قبالة، أي بوضوح وظهور بيّن.

وهو – في هذه القصيدة – ينصح فرسه بألاّ تغير على إبل الصيعان، احتراماً لجدّهم (بوصاع) الذي قال أنه يستجيب لكل ندهاته (نداءاته ودعواته)، ويحقق الله رغباته بجاهه، فاعتبره ذخراً له وكسباً لأهله، يتزايد – ببركته – الخير في كل موسم حصاد.

ومن الصيعان الذين اشتهروا برد الإغارة على الإبل من مغتصبيها، بيت (الخناجرة) وهم من لحمة (العظايمة) من قبيلة (أولاد امحمد)، ويقال أنهم لا يموتون بمرض، وإنما يُقتلون بالبارود، فيقال عنهم (بيت نار)، ويسترجعون مع كل مائة بعير أربعة من إبل المغتصبين، حتى قال فيهم الشاعر:

يا ناري عل نجع كحيلة.. ناري عل نجع الخوّارة
مشهور السيمة من يساره.. الميّة يفكّوا منها حارة
بو صاع ليا قطروا خيلة.. وبالضيفة يكرم خطّارة [1]

وبرز منهم الأخوان (ضو وعلي). ويقابلهم في تلك الصفات من (ورغمة) بيت (الزغاديد) جمع (زغدود)، وهم من (توازين بنقردان). إلاّ أن (ضو الخنجاري) قُتل بيد (عمّار دراويل) وهو من أشجع فرسان (مزطورة) إحدى بيوت قبائل (التوازين) القاطنة في (بر ورغمّة) المجاورة أيضاً للصيعان، ويمثلونه ببطل قصص الهلالية (ذياب)، ويقال في مزطورة:

(الغيض يرمي والناس ذكورة.. سلاسل محدورة..
قديم للهم ضنوة مزطورة)[2].

---

[1] كحيلة والخوّارة: الإبل والنوق. حارة: أربعة. الخطّار: الرجال.

[2] الغيض يرمي: الغضب عندما يفعل فعلته. ضنوة: أبناء.

وهو مدح لرجولة أبناء مزطورة وشجاعتهم منذ القدم، ووصف لطيف لعقود خيولهم وهي كالسلاسل المنظومة. والغريب في الأمر أن البيتين (الخناجرة ومزطورة) بل أن (الصيعان والتوازين) عموماً كانوا في غاية الانسجام والوئام قبل تلك الحادثة المشؤومة. ويقال أن (ضو) خانته بندقيته يومها فلم ينفجر بارودُها:

(هذا اللي غصّت بيه البندقة ورقد الواري..
نهار شايم غبّاري..
مات وتمت ساعته ضو الخنجاري)[1].

فأقسم (علي الخنجاري) أن يقتل قاتل أخيه (ضو) وأن يشرب من دمه. وبقي يترصد صاحبه مدة خمس سنوات، أدخل خلالها الرعب في قلوب قاتلي أخيه. فاستعان بالطالبي (امحمد علاّق) ليرشده ويقوده إلى منطقة (الرهاش) بالحمادة التي بها إبل (عمّار دراويل)، وكان معه (حمد) ابن أخيه عمر:

(وركبوا الاثنين رفاق.. وخشوا الرقراق..
امحمد ضنوة علاّق.. وحمد وعمّه)[2].

وعندما لمح صاحبَه وراء الإبل، لم يعطه فرصة الوصول إلى سلاحه، وأطلق عليه النار، وصاح مخاطباً روح أخيه (شيّع راسك يا ضو تخلص)[3]، فقتله:

(وحالف بيمين طلاق.. يشرب من دمّه).

ثم اقترب منه ونحره، وشرب من دمه كما أقسم:

---

[1] **اللي**: الذي. **رقد الواري**: رقد الريح أو العون، بمعنى (غياب الحظ). **شايم**: مشؤوم. **غباري**: مثل العاصفة الرملية التي يتشاءم البدو من غبارها.

[2] **الرقراق**: الأرض القفر. **ضنوة**: إبن.

[3] كأنه يقول لأخيه المرحوم ضو: ارفع رأسك فقد أخذ أخوك بثأرك.

(حالف بيمين كبير.. والقلب غزير..
ونحره نحران بعير.. وكرّع في دمّه)[1].

وقد تغنى شعراء الصيعان بتلك الحادثة:

(ما أبهى خلاص الدين يا كوبارة.. مات ضو سلّم خوه يفدي ثاره)[2].

وقد ظهرت شهامة (مزطورة) جليةً في شخص امرأة منهم، وهي أخت (عمّار دراويل) القتيل، وذلك عندما وجدت (علي الخنجاري) المتربّص بأخيها مختبئاً في (قطرة ذئب) وهي تجمع الحطب ليلاً، فأمّنت عليه بعد أن وعدها بعدم الاعتداء على أهلها تلك الليلة، فاعتبرته بطلاً مثل أخيها (عمّار)، وأحضرت له الطعام خفية، ولم تخبر أهلها بأمره إلاّ في الصباح عندما وجدوا (عقالات) إبلهم معقودة عند بيتها، حيث قام (علي الخنجاري) بتسريح الإبل ليلاً وربط قيودها أمام بيت تلك المرأة اعترافاً بشجاعتها ووفائها لوعدها.

وبعد عدة صولات وجولات بين العائلتين راح ضحيتها عدد من الرجال، حصل بينهما الصلح، فوجدوا أن الخناجرة قتلوا شخصين من مزطورة زيادة عن العدد الذي قُتل من الصيعان، فدفعوا لها مقابل ذلك إبلاً، وتم الصلح، وعادت العلاقات الأخوية بين الصيعان والتوازين إلى سابق عهدها. تلك هي شيمة ذاك الزمن، فالظروف الاقتصادية المتردية كانت المتحكّمة في العلاقة بين القبائل المتجاورة، وقد تشترك في ذلك الحميّة والافتخار بالشجاعة والفروسية والشعور بالانتصار والغلبة وطلب الشهرة وبث الرعب في الغير اتقاءً لشره.

---

[1] كرّع: استخدم فمه مباشرة للشرب دون الاستعانة بيديه، أي انحنى عليه ولعق دمه.

[2] **ما ابهي**: ما أجمل. **كوبارة**: يوم مشؤوم. **يفدي ثاره**: يأخذ بثأره.



الفصل الثاني

ظواهر ثقافية واجتماعية خاصة

تمهيد:

في الواقع لا توجد لدى الصيعان خصوصية بالمفهوم المطلق للخصوصية، فالمجتمع البدوي يكاد يكون موحّدَ الطباع وطرقَ التفكير، فينعكس ذلك على سلوك أفراده وتصرفاتهم قولاً وفعلاً. لأن الطبيعة البدوية واحدة رغم التباعد الجغرافي بين القبائل العربية شرقاً وغرباً. والظواهر الاجتماعية تتشابه بين تلك القبائل مثلما تتشابه البيئات المناخية الجوية والبيئات التضاريسية الطبيعية. ويؤكد علماء النفس والاجتماع على أن النفس البشرية تتأثر كثيرا بالبيئة الطبيعية والمناخية سلباً وإيجاباً. فسكان البوادي والصحاري يختلفون عن سكان السواحل والجبال والأدغال.. وسكان المناطق الحارة يختلفون عن سكان المناطق الثلجية الباردة. ولكن رغم تشابه القبائل الليبية – خصوصاً بالمنطقة الغربية – في العديد من الخصال، إلاّ أن الصيعان يتميزون عنها ببعض الخصائص حتى وإن كانت نسبية ضئيلة، ولا تخرج عن الإطار العام للطبيعة البدوية. وهي –بذلك– مثل الخصوصية التي تميز قبيلة عن أخرى، أو عائلة عن أخرى، بل وتميز الشخص الواحد عن الآخر ضمن الطبيعة البشرية العامة.

وإذا كان الصيعان يصغّرون الأسماء والصفات وأحياناً الأفعال، فهذا لا يعني انفرادهم بتلك الظاهرة اللهجية، ولكنهم يستخدمونها أكثر من غيرهم. وما ينطبق على ظاهرة التصغير ينطبق أيضاً على ظواهر وتصرفات أخرى. فالانتقال المفاجئ من التصرف اللين إلى التصرف الصارم دون حلول وسطى كان من شيم

البدو عموماً، غير أن الصيعان يُفرطون في استخدام اللين والصرامة بصورة تبدو واضحة، فلا تجد الحلول الوسطى مكاناً بينهما، إما ليناً وإما صرامةً. وهذه الانقلابات الحادة والمفاجئة قد يراها سكان المدن وقتها –كما نراها نحن اليوم– نقيصةً وسلوكاً غير حضاري عند البدوي ودلالةً على الجهل وعدم تقدير الأمور، بينما يراها البدو آنذاك سلوكاً أخلاقياً راقياً يتصف بالمصداقية والنزاهة، فيقابلون المواقف اللينة بمنتهى الهدوء والشفافية، ويقاومون المواقف المتصلبة بعناد وعنجهية، ولا يخافون في الحق لومة لائم مهما كانت العواقب وخيمة عليهم.

ونتيجة لاستخدام الصيعان لهذين النقيضين (اللين والصرامة) في حياتهم الخاصة والعامة بصورة مفرطة، نُسجت حولهم العديد من القصص والروايات، قد يكون بعضها حقيقيا، وقد يكون بعضها الآخر موضوعاً ليناسب الشخصية الصويعية المميزة. وفي هذا الفصل سنتعرض لعينات من تلك القصص، ليس من باب إثباتها أو نفيها، وإنما من باب تسجيلها كتراث أدبي أنتجته البادية الليبية في زمن اختلت فيه الموازين وسيطرت عليه عوامل الفقر والجهل والفروق الاجتماعية الحادة، فلم يجد الإنسان أمامها غير استخدام كافة أنواع الأسلحة المادية والمعنوية دفاعاً عن النفس وحباً في البقاء.

ملاحظة حول نطق الحروف والكلمات:

الصيعان – كغيرهم من منتجعي سهل الجفارة – ينطقون معظم الحروف العربية كما هي، باستثناء ظاهرتي استبدال القاف العادية قافاً معقودة (ق= **ga**) دائما، واستبدال الجيم زاياً أحيانا. وفي بعض الألفاظ يقلبون الحروف قلباً مكانياً مثل (مع= عم) وهي ظاهرة عروبية موغلة في القدم، وكذلك فعل (مكهب)

و(مكبه)، فإذا كان أصلها من (جبهة) فإن فيها استبدالَ الجيم بقاف معقودة تحولت إلى كاف. أما المدّ عند الصيعان فمتنوع ولا يستند إلى قاعدة معيّنة، فينطقون مثلا الأسماء: (الخرشي والشعلي والعرجي والشهبي..) بمدّ مشترك بين الألف والياء (أي بإمالة)، وينطقون اسم (الزرقا والحمرا والجهرا والقرعا..) بألف ممدودة واضحة رغم أن الأصل في المجموعتين ينتهي بألف وهمزة هكذا (الخرشاء.. الزرقاء..). ويختصرون المدّ أحيانا إلى حركة قصيرة، مثل الضمير (أنا) الذي قد يتحوّل مدّه إلى ياء = (أني) فينطقونه بنون مكسورة = (أنِ)، وكذلك الضمير (نحن) الذي قد يمدّ بالياء = (إحني) فينطقونه بحركة الجر فقط هكذا (حْنِ). وكذلك بعض الألفاظ الأخرى مثل (الماء) فينطقونه بميم مكسورة = (ألـ مِ). وغير ذلك من الظواهر اللهجية التي لا زالت إلى الآن على أفواه أبناء الصيعان.

أولاً- ظاهرة التصغير عند الصيعان:

التصغير تغيير يطرأ على بنية الاسم المُعْرَب ويصير على وزن (فُعيل أو فُعيعل أو فُعيعيل)[1]. ولا نستطيع سبر أغوار الكوامن النفسية والوجدانية الدافعة لهذه الظاهرة، وكل ما نستطيع معرفته لا يتعدّى الأحكام الظاهرة على بعض الحالات الملحوظة ووصفها. فقد استخدم العرب التصغير منذ القديم، أحياناً للتحقير، مثل (رُجيل وشُويعر..)، أو لتقليل الكمية، مثل (دُريهمات ولُقيّمات..)، أو للتلطف والتودد، مثل (يا صُديّقي ويا أُخيَّتي..)، أو إظهار المحبة والشفقة، مثل

---

[1] **سعيد**، د.عبد الستار عبد اللطيف أحمد: **مباحث في اللغة العربية**، جـ3، ط1، 1993، الجامعة المفتوحة، طرابلس/ليبيا، ص184.

(يا بُنيّ..)[1]. وأحياناً أخرى لإفادة الاختصار في اللفظ، مثل (كُتيّب بدل كتاب صغير الحجم..). والغريب أنهم استخدموه أيضاً للتعظيم، مثل ما قاله الخليفة عمر عن عبد الله بن مسعود بأنه (كُنيْف مُلئ علماً) مدحاً وتعظيماً له، ويعني قلبه الذي جُمع فيه كل ما يحتاج الناس من علوم[2].

وليس العرب وحدهم من صغّر الأسماء، فعدة شعوب أخرى فعلت ذلك. فالإيطاليون يصغّرون (Ragazzo) إلى (Ragazzino)= طفل وطُفيل. والفرنسيون يصغّرون (Fille) إلى (Fillette)= طفلة وطُفيلة. وتتفق هاتان اللغتان لاتينيتا الأصل مع اللغة العربية في اعتماد تغيير بنية الاسم عند التصغير.

والتصغير بادٍ في كل اللهجات العربيات لا سيما لهجة الليبيين. غير أن قبائل الصيعان تُكثر منها إلى حد المبالغة. وبعضهم يصغّر معظم الأسماء بسبق إصرار. فقد يروي لك حديث عهد بسكن المدينة قصته، فيقول: أمّينتي وسويدي[3] ماتوا من زمان، ولا خلّولي لا وخي ولا وخية يونسوني. وعندي عميم وحيد، لما كبرت ووليت شميحيط[4] أعطاني بنيته. بعد مدة حصّلت خديمة، وبنيت حويش[5]، وشريت كريهبة[6]. وقعدت لاهي بوليدي اللي جاني بعد عويمين من عرسي، نرفعه الصبح لمديرسته ونمشي أني لخديمتي. ولما نروّح نلقى بنيت عمّي مطيبتلي

[1] المصدر السابق، نفس الصفحة.
[2] اللسان لابن منظور.
[3] تصغير لأمي وأبي (سيدي).
[4] تصغير شمحوط، أي صار بالغا ودخل مرحلة الرجولة.
[5] تصغير حوش، أي مسكن.
[6] تصغير كرهبة= سيارة.

لُغْدَي[1]. وبعد ما نملا بطينتي نلقى روحي تويعب في حويلة، ناخذ غميضة نوم ونريح عظيماتي. وفي الليل هوينا تتلمد العويلة[2] في حويش عمي ونسهرو سهيرية أبيهية[3].) وهكذا..

يتبادر إلى ذهن السامع أن المتحدث يتعمد هذا الأسلوب لتحقيق غرض ما، كاستجداء العطف والشفقة عليه، أو ربما لطلب المساعدة. وقد يكون في – المقابل– العكس تماماً. فكثير من هؤلاء –لو استطلعت أحواله– لوجدت ما لم يكن متوقعاً. فقد يكون عمّه الذي صغّره إلى (عميمي) من ذوي المكانة الاجتماعية المرموقة وشخصيته غير قابلة للتحقير، وقد يكون (الحويش) قصراً متعدد الأدوار، وقد تكون (الكريهبة) من أرقى أنواع السيارات وأحدثها. وقد تكون (الخديمة) مركزاً قيادياً أو وظيفةً تخصصيةً ممتازةً، وقد تكون (المديرسة) التي يتردد عليه ابنه خاصةً والتعليم فيها مدفوع الثمن.. ويحتار الواحد في هذا الأمر:

- هل هو بدافع التواضع وتخفيف وطأة العظمة والغرور التي تنتاب الواحد المتحسّنة أحواله؟
- أو هو من باب المجاملة واحترام مشاعر السامع؟
- أو هو بقصد اتقاء شر العين الحاسدة؟
- أو هو اعتقاد بأن متاع الدنيا زائل، ولا دوام فيها للخير والشر، والعمر فيها قصير مهما طال؟
- أو هو عرض صادق لحالة متردية حقيقية؟

[1] جهزت له الغداء.

[2] تجتمع العائلة.

[3] تصغير باهية، من البهاء.

- أو هو بسبب الكوامن النفسية المدفوعة بالعوامل الوراثية والبيئية التي تساهم في تكوين الشخصية البشرية وتمنحها خصوصيةً مختلفةً عن غيرها؟

وبالتالي لا نجد معايير محددة نقيس بها هذا السلوك للوصول إلى إثبات الفروض المذكورة. إلاّ أن المسلّمة الوحيدة الثابتة أن العرب عموماً استخدموا التصغير للتعبير عن مواقفهم النفسية والوجدانية المتعددة والمتنوعة بحسب المقاصد والنوايا، وهي في عمومها غير خاضعة للقياس العلمي الدقيق.

ورغم أن تصغير الأفعال قليل في كلام العرب أو يكاد يكون معدوماً، إلاّ أن الصيعان تطاولوا عليها وصغّروها هي الأخرى. فإلى جانب تصغير بعض الأفعال عند محاكاة الطفل ومناغاته، هناك أفعال تُصغّر عند الحديث عن الكبار أيضاً، مثل: (يطّيحر، وأصلها يطحر) و(يتعيصر، وأصلها يتعصر)، و(يتفيحج، وأصلها يتفحج) و(يصّيرع، وأصلها يتصرع)، و(يتنيفض، وأصلها ينتفض).. وغيرها كثير من الأفعال التي يبدو أنها جاءت فقط للتحقير والاستهزاء بمن يفعلها.

مع ملاحظة أن ظاهرة التصغير – أسماءً كانت أو أفعالا – ليست من خصوصية الصيعان وحدهم، إلا أنهم – حسب الواضح – يستخدمونها أكثر من سواهم.

ثانيا- الصيعان.. أصل التسمية:

الثابت أن قبائل الصيعان أخذوا تسميتهم من جدهم الأول الولي الصالح (سيدي امحمد أبو صاع). والصاع وحدة كيل تكال بها الحبوب عادة. وقيل – في

سبب تسميته بالصاع – أنه كان كريماً مبالغاً في الكرم، إلى درجة أنه إذا مدّ لا يمدّ بأقل من مقدار الصاع. كما قيل أنه – باعتباره ولياً صالحاً – لا يقبل الهدية إذا قل مقدارها عن الصاع. ومهما كان الأمر – أخذاً أو عطاءً – فإن هذا الصاع التصق باسمه وصار كنية له ولقباً لأبنائه وأحفاده من بعده. ويُذكر أيضاً أن مجموعة من أولياء الله الصالحين اجتمعوا في مكان ما، واتفقوا على ألاّ يناموا ليلة كاملة لإثبات الولاء لله. فقام (امحمد أبو صاع) بشراء صاع من الفول وبات ليلته يتسلّى بهرش ذاك الفول ليدفع النوم عن عينيه. وفي الصباح قرر (الصُلاّح) أن صاحب الصاع جديرٌ بالولاية، فسمي بأبي صاع. وهذه قصة موضوعة لا يجانبها الصواب، فكان أولى للولي الصالح أن يقضي ليله خاشعاً متعبداً مسبحاً لا هارشاً للفول. والصالحون الحقيقيون من تتجافى جنوبهم عن المراقد والمضاجع لا الغاطون في نوم عميق طوال الليل.

وهناك رواية أخرى لا تخلو –هي الأخرى– من الطرافة ولكنها مقبولة اجتماعياً، إذ تقول: أن الجد الأول لم يكن له هذا اللقب أصلاً، بل بدأ مع أبنائه الثلاثة بعد وفاته، حيث ورّثهم تركةً تمثلت في ثلاثة أشياء تدخل ضمن التجهيزات البدوية المعتادة: (صاع ورقعة وقدر). فوارث الصاع جاء منه فرع (الصيعان)، ووارث الرقعة جاء منه فرع (الرقيعات)، ووارث القدر جاء منه فرع (القديرات)، وجميعها قبائل بدوية تنتجع سهل الجفارة جنوب غرب مدينة طرابلس. والبعض يضيف (الغرارة) للمقتنيات السابقة، حيث جاء من وارثها فرع (الغرارات). وهذا التأويل – صح أو لم يصح – إن دل على شيء إنما يدل على وحدة الأصل والانتماء للقبائل الليبية مهما اختلفت الأسماء وتباينت الألقاب وتباعدت

المضارب. والطريف في الأمر أن أسماء القبائل الثلاث -باستثناء الغرارات- جاءت من تصغير تلك الأغراض: صويع ورقيعة وقدير = صويعي ورقيعي وقديري.

والغريب أن لقب (الصاع) لم يصغَّر إلاّ مع الأحفاد، هكذا (صويعي) نسبة إلى (صويع)، وبقي على حاله مكبّرا وكامل المقدار مع الجد الأول، وكذلك عند جمع أفراد القبائل الأربع، فيرفضون أن يقال لهم (صويعات) بل هم (صيعان) كاملة وغير منقوصة الحجم والمكيال! بينما بقي تصغير (القديرات) و(الرقيعات) على حاله جمعاً وإفراداً.

ورغم أن تصغير الأسماء لم يبدأ مع الأجداد الأوائل، حيث كانت أسماء أبناء امحمد أبو صاع الأربعة: عبد الناصر وخليفة وامحمد وسلام خالية من التصغير. إلاّ أن الصيعان يكثرون من الأسماء المصغّرة، مثل (عْظيِّم، الصغيّر، كْبيّر، أمّيّن، حْفيّظ، عْزيّز، لْطيّف، غْنيّة، جْويّد..) بصورة لا تتكرر كثيراً في القبائل الأخرى، بدليل أن ظاهرة تصغير الأسماء قد قلّت في فرع الصيعان المنظمّ إلى ورفلة، إذ يبدو أن الزمان كان كفيلاً بتطبيع تلك الجماعة بطبائع البيئة الاجتماعية الجديدة.

ثالثاً- الصيعان.. بركة ودبّوس:

عادة ما يتصف الصيعان بهذه الصفة المركّبة (بركة ودبّوس). فالبركة مصدرها جدّهم الأول (سيدي امحمد أبو صاع) تستور[1] وبركة. أما الدبوس فاشتهروا باستعماله عند الشدائد مثل رد الاعتداء والذود عن الحرمات وحماية القوافل.. والدبّوس سلاح شخصي عند البدوي عامة والصويعي بصورة خاصة.

---

[1] أصلها (دستور)، تقال عند ذكر أولياء الله الصالحين تعظيما لهم.

ولكن المتمعن في هذه الصفة المركّبة يجد تناقضاً كبيراً بين شقّيها: فالبركة التي تعني في الأساس الكثرة والزيادة في الخير، تعني أيضاً التسامح واستخدام اللين واللطف والعفو عند المقدرة وترك الأمر لله وحده حتى وإن كان ظلماً، أو على الأقل الاتجاه إلى الجد الأول صاحب البركة والجاه الذي بواسطته يأخذ الله الحق حسب الاعتقاد. وهذا يعني الركون إلى الهدوء والاستقرار وطلب الأمان والبعد قدر الإمكان عن التناوش والاحتكاك بالغير مهما كانت الأسباب. أما الدبّوس فلا يثير غير المشاكل التي لا تُحمد عقباها، خصوصاً إذا كانت بسبب خصومات معتادة بين الجيران. والدبّوس في – هذه الحالة – لا يستعمل فقط كسلاح للدفاع عن النفس والذود عن الحرمات، إذ قد يتحول – أحياناً – إلى أداة لاستعراض القوة وإثارة النزاعات، وربما إلى الظلم والتسلط على الغير إذا استخدم في غير محله.

ولكن الصويعي – مع مرور الزمن – أقنع غيره بحسن استخدام هاذين النقيضين (البركة والدبّوس). فقد يرى الناس أن كلاهما مخيف ومرعب لكل من تسول له نفسه الاعتداء على الصويعي بغير حق. فقد كان الاعتقاد سائداً بأن (دعوة امحمد أبو صاع) نافذة، وضربة دبّوس الصويعي قاتلة. وعادة ما تكون ضربة الدبّوس مصحوبة بنداء ملح لروح وبركة أبي صاع، أي أن الصيعان (يندهون) جدّهم للحضور إلى ساحة المعركة ليبارك أبناءه ويناصرهم على خصومهم وأعدائهم! وهذا – بدوره – يضيف رابطاً قوياً آخر بين (البركة والدبّوس) بصورة لا يقرها المنطق ولا يقبلها العقل. ولكن ماذا عسانا أن نفعل فالتراث الشعبي أكّد

هذه الظاهرة ورسّخها في الأذهان إلى يوم الناس هذا، فلا يُذكر الصويعي إلاّ وتُذكر معه عبارة (بركة ودبّوس).

وتبرّكاً بجد الصيعان، دأبت العديد من القبائل الليبية، بل والعائلات ساكنة المدن والقرى في الشرق والغرب والجنوب، على تسمية أبنائهم باسم (الصويعي) أو (أبو صاع). إذ كانت بعض الأمهات الحوامل ينذرن ما في بطونهن لله و(امحمد أبو صاع)، ويعدنه بالذبائح إذا كان وليدهن ذكراً، خصوصاً اللواتي لم ينجبن ذكوراً أو مات أولادهن في سن مبكّرة. فإذا تحقق رجاؤهن يسمّين وليدهن (الصويعي)، أو يلقبنه بذلك، فيسري الاسم أو اللقب في أبنائه وأحفاده. ويوجد الآن العديد من العائلات التي تحمل هذا اللقب وهي لا تنتمي أصلاً إلى قبائل الصيعان.

رابعاً- المشرّع الصويعي يسنّ القوانين:

يتناقل الصيعان العديد من القصص المتعلقة بالإجراءات القانونية وعلاقة بعضهم بالمحاكم خصوصاً في العهد العثماني. وكانت المحاكم تقام بطبيعة الحال في المدن يقف أمامها البدوي مواجهاً أحكاماً تتنافى عادة مع مفهومه للحياة ولا تتفق مع سجيته وبساطته البدوية. وهنا يحدث التناقض مولداً جواً من سوء الفهم بين حاكم مدني ومحكوم بدوي، تكون حصيلتُه قصةً طريفةً تتناقلها الألسن بشيء من الحبكة الأدبية لا تخلو من المبالغة التي تعتمدها عادة الروايات الشفوية خفيفة الظل. ومن بين العديد من هذه القصص الطريفة نورد هذه النماذج:

6- ربيع طرابلس وناقة الصويعي:

اتجه أحدُهم إلى مدينة طرابلس لقضاء بعض حوائجه، فوصل إلى إحدى أطرافها قبل طلوع الفجر، أناخ ناقته واستند إليها. وما أن انبلج نور الصباح حتى وجد نفسه محاطاً ببساط من العشب الأخضر الطري، فسرّح ناقته لتنال نصيبها مما جاد به ربيع طرابلس البدري (أي الذي حل قبل أوانه). إلاّ أن سعادته لم تكتمل، فسرعان ما حضر صاحب السانية (وهي قطعة أرض صغيرة مزروعة بخضراوات المدينة المعروفة كالسلك والمعدنوس والكرافس..)، وراح يندب حظه ويلعن ذاك الصباح الذي رأى فيه بأم عينيه ناقة الصويعي تلتهم محاصيله وتأتي على جداول سانيته الواحد تلوى الآخر، بصورة ينطبق عليها المثل الشائع (اللي لمداته[1] النملة في عام خذاه الجمل في خف)، وطفق يلطم الناقة بلا شفقة ولا رحمة، أدى ذلك إلى نشوب معركة انتهت بصاحب الناقة وصاحب السانية إلى الوقوف أمام القاضي الذي عجز – في بادئ الآمر – عن الفصل في هذه القضية، ولكنه انتهى بالحكم على الصويعي بدفع التعويض مستنداً على (إن القانون لا يحمي المغفَّلين)، بينما طالب الصويعي بالتعويض عما لحق ناقته (البكمى)[2] من ضرب، فتعادلت كفتا الميزان، وحصل الصلح، وخرج المدعي والمدعى عليه من المحكمة بخفي حنين. أما الناقة فكانت المستفيد الوحيد من هذه القضية، حيث استمتعت بوجبة شهية رغم ما لحقها من ضرب يعتبر خفيفاً مقارنة بما تعوّدت عليه. وهذا الصلح الذي انتهت به الخصومة بين مدني وبدوي، له دلالات اجتماعية تشير إلى جو من التآلف المعهود بين الطرفين، ولذلك أسبابه:

---

[1] لمدت أو لمت: جمعت.

[2] البكمي: (بالإمالة) صفة تطلق على كل الحيوانات، أي البكماء.

أ- حاجة كل منهما للآخر، فالبدوي لا يجد حاجته الضرورية في باديته، بل يقصد المدينة لاقتنائها، خصوصاً تلك التي لا يصنعها بيده. والتاجر أو الصانع المدني لا يجد زبائنه في المدينة فقط، وإنما يعتمد على بيع كثير من البضاعة والمصنوعات الخاصة إلى البدوي دون غيره. وفي هذه الحالة تكون العلاقة نفعية ومتعلقة بتبادل المصالح. وقد عُرف عن تجار مدن الشمال الأفريقي أنهم يسمون زبونهم القادم من البادية بـ(صاحبهم العربي)، وهو تقليد قديم جداً، حيث كان أصحاب الحضارات الشرقية الأولى يطلقون هذا الاسم على القادمين من الصحراء، ويسمون أرضهم (مات عرابو) أي (أرض العرب) أو (الغرب).

ب- أن المدني -قبل أن يتمدن- كان بدوياً. وذلك تبعاً لنظرية ابن خلدون القائلة بأن خشونةَ البداوة سابقةٌ ليونةَ الحضر، والبدوي ينتقل من حياة التقشف إلى حياة الترف، وهي عنده هدف يسعى إليه. ومهما كان ذاك الانتقال مرحلياً بطيئاً أو سريعاً مفاجئاً، إلاّ أن المدني يبقى محتفظاً ببعض خصوصياته البدوية لعدة أجيال. وهذا واضح في خصال ثلاث يمكن ملاحظتها على سكان المدن الليبية، حيث لا تزال البداوة غالبة على بعض طباعهم ما داموا (يرفسون البازين)[1] بأيديهم، ويلبسون (الجرد)[2]، ويفترشون في قصورهم الفرش الأرضية كـ(المنادير)[3] طلباً للراحة.

[1] **البازين:** أكلة شعبية ليبية، تجهز من دقيق الشعير.

[2] **الجرد:** عباءة رجالية تصنع من الصوف.

[3] **المندار:** فراش يصنع من الإسفنج ويغلّف بالقماش.

1- الدبّوس وأنف القاضي:

تلقى أحدُهم استدعاءً من المحكمة دون معرفة السبب. ذهب إلى المدينة، واتجه مباشرة إلى مبنى المحكمة. وكان مجهزاً بكافة مرفقاته الشخصية المعتادة: مخلاة على ظهره، ومحرمة متدلية من (تكامية جرده)[1]، ودبّوس مستدير الرأس تحت إبطه.. ممسكاً بيده الأخرى ورقة يلوّح بها إقبالاً وإدباراً، وهي تكاد تتمزق من شدة الدفع والنتل. وكان يقفز على درجات المبنى بخطوات سريعة دون الالتفات إلى الحجّاب والحرّاس، كأنه يريد الوصول إلى القاضي دون وسيط، مدعياً أنه لا يتحدث مع غير محرر (ها الكاغط)[2]، ويقصد القاضي الذي أرسل إليه الاستدعاء. فمنعوه من ذلك. وحصلت جلبة ومشادّات كلامية، وارتفعت الأصوات حتى بلغت مسامع القاضي التركي، فأمر مساعديه بفتح الباب أمام هذا القادم المتغطرس. وما أن وقف الصويعي بهيئته الغريبة ونظراته المريبة أمام القاضي حتى انهال عليه هذا الأخير بسيل من الإهانات لم ترض صاحبنا. فاستل دبّوسه من تحت إبطه، وشهره في وجه القاضي الذي كان يرفع أرنبة أنفه إلى السماء استهزاءً بالصويعي. فسأله عن دواعي استخدام الدبّوس داخل المحكمة، معتبراً ذلك انتهاكاً لحرمتها، فرد عليه الصويعي قائلا: (ها الدبّوس جايبه لخشيم زي ها الخشيم)[3] ولكزه برأس الدبّوس في أنفه، فسقط القاضي متخبطاً في دمائه قبل أن ينقذه حراسه من تلك الضربة المفاجئة.

---

[1] **تكامية الجرد**: العقدة التي يشد بها عند الكتف الأيسر.

[2] **الكاغظ**: الورق.

[3] المعنى: جئت بهذا الدبّوس لأنف مثل هذا الأنف المرفوع إلى السماء.

5- شرع المهيري:

في العهد القرمانللي، ذهب (المهيري) إلى طرابلس للتسوق. فقصد محلاً يديره يهودي. ومن فرط سذاجته دفع له قطعة النقود مقدَّماً، يقال أنها ليرة من الذهب الخالص. إلاّ أن اليهودي أنكر ذلك بعد أن جهّز البضاعة المطلوبة. بينما أصرّ الصويعي على تسليمه الليرة وطالبه بإرجاع القيمة المتبقية منها. وانطلق اليهودي يهرول في الشارع ويشهد الناس على هذا العربي الذي أنكر عليه حقّه، فاقتادهما رجل الشرطة إلى المحكمة. ولم يجد القاضي أمام تمسك المختصمين بأقوالهما إلاّ أن يأمر شرطته بتفتيش اليهودي تفتيشاً دقيقاً إلى درجة سلب كل ملابسه ليتأكد من عدم وجود الليرة لديه. فصدر الحكم ببراءة اليهودي. عندها شعر الصويعي بالإحباط وأيقن أن حقه قد ضاع. وقبل أن تنفلت أعصابه كالعادة، كتم غيظه والتفت - بكل هدوء - إلى القاضي وسأله إن كان ذلك عدلاً، فردّ القاضي بأنه طبّق القانون وأظهر الحق أمام أعين الحاضرين. فأخبره الصويعي بأن قانوناً آخر لم يطبق في هذه القضية. سأله القاضي عما هو. فردّ عليه بأنه (شرع المهيري) ويقصد نفسه، وأكد له أن هذا القانون سيظهر الحق دون غيره، وأبدى استعداده لتطبيقه. وبدافع التحدي أو ربما من باب حب الإطلاع وافقه القاضي على ذلك. وبسرعة البرق استل الصويعي دبّوسه (مسواقه) من تحت إبطه وهوى به على قفا اليهودي، فإذا بالليرة تنطلق من فمه محدثة رنيناً واضحاً على أرضية المحكمة. فظهر الحق الذي عجز القاضي وقوانينُه عن إظهاره. ومنذ تلك الحادثة التي تناقلتها الأفواه بدأ (شرع المهيري) يُعرف بين الأوساط الشعبية حتى

خارج نطاق قبائل الصيعان، وبات يُضرب به المثل في استرداد الحق بقوة الدبّوس! فقد قال فيه (خليفة الحدّاد) وهو شاعر من الحرابة:

(في الصايبة الصيعان تذبح ناقة.. وبلا صايبة ما يذبحوش سباقة)[1]
(الصيعان ناس كثيرة.. وتلقى منازلهم في كل بحيرة..
وماضا مللي يطق في بنديره.. وماضا مللي راكب عل حمّاقة..

وشرع المهيري عقّبلهم ليرة.. بهاليل لاكنتي هبال حذاقة)[2].

4- الحبس الوليمة!:

كان أحدهم (ويقال أنه من قبيلة الهمايلة) مشغولاً بخرفانه التي تنفق الواحدة تلوى الأخرى بفعل القحط والجفاف. حتى أقبل عليه (مأمور البيّ)، وأخبره بأن المدير حكم عليه بـ(الحبس) ويدعوه إليه لجرم اقترفه وهو يجهله. وما أن سمع صاحبنا كلمة (حبس) حتى صاح في المأمور قائلا له: (هذا وقت حبس؟) ظانا أن الحاكم (البي) يريد استضافته لوليمة أو حفلة سيقيمها في قصره، إذ كان يجهل تلك الكلمة ولم يسمع قط بحبس الرجال. فاعتذر عن الحضور متعلّلا بأنه مشغول بغنمه مخاطباً المأمور بالقول: (إنت تشبح في الغلم تكب وتقعّد والموس

[1] **الصايبة:** الضيافة أو المناسبة. **مايذبحوش:** لا يذبحون. **سباقة:** الخروف الصغير حديث الولادة.

[2] **ماضا:** يا ما، كثير منهم. **مللي:** من الذي. **حمّاقة:** فرس. **عقّبلهم:** ورّثهم. **بهاليل:** جمع بهلول، أي درويش. **لاكنتي:** لكن. **هبال:** دروشة. **حذاقة:** ذكاء حذر.

في أولها وفي عقابها، وتقولي حبس، هذا ما مزّال كان الحبس..)[1]، وتمنى أن ظرفه يسمح له بالذهاب مع المأمور وتلبية دعوة المدير. ولم يتفطن لتلك الكلمة الغريبة إلاّ بعد شرحها له من قبل أقاربه، فأذعن لطلب المأمور وهو غير مقتنع بالتهمة الموجّهة إليه، والتي قد تكون ملفّقة ضده، ولكنه دخل السجن بدلا من التمتع بالوليمة التي تخيلها.

خامساً- الصويعي والخوف من البقرة:

يقال أن الصيعان يخافون من البقر لأنها قتلت جدّهم. غير أن تلك البقرة بريئة من دم جد الصيعان براءة الذئب من دم يوسف عليه السلام. فقد يعود الخوف المزعوم من البقرة -إن وجد أصلاً- إلى أسباب لا تدعو أساساً للخوف، مثل عدم معرفتهم بها، فالصيعان لم يتعاملوا مع غير الماعز والضأن والإبل والخيل والحمير، أما البقرة فلا تُربّى في بيئتهم البدوية، ولا تتحمل كغيرها مشاق السفر وكثرة الترحال في الصحراء، علاوة على صعوبة حصولها على كفايتها من الغذاء وهي من الحيوانات الأكولة. ولكن بعض السذّج من الصيعان كرّس هذا المفهوم لدى الناس بادعائه الخوف المصطنع من البقرة لمجرد رؤيتها. وقد نُسجت عدة قصص حول هذا الخوف المخترَع، بعضها مقبول إلى حد ما، وبعضها لا يمكن تصديقه. وأقرب قصّة يمكن قبولها بتحفظ، كانت كالآتي:

في سنة من سنوات القحط والجفاف، لم يجد أحدُهم ما يسد رمق عياله. فهاجر إلى الشط، وهو الساحل المحصور بين طرابلس وزوارة، أي

---

[1] **تشبح**: ترى. **الغلم**: الغنم. **تكب وتقعّد**: تقوم وتقعد. **والموس في أولها وفي عقابها**: يُذبح أولها وآخرها من شدة مرضها ووهنها بفعل الجوع.

المنطقة التي تكثر فيها بساتين النخيل والزيتون والكروم.. لعلّه يجد عملاً ويحصل على أجر يبعد به شبح الجوع عن عياله. غير أن أحداً لم يستجب لطلبه الملح والمتكرر بسبب وقوع المنطقة كلها تحت وطأة الجفاف. وبقي أطفاله أياماً وليال يتضورون من شدة الجوع. مما اضطره إلى التسلل - ذات ليلة - إلى زريبة جاره الشطّي[1] وحلب من بقرته الوحيدة ما بضرعها من الحليب ليطعم به أطفاله الجياع، وعاد ليغط في نوم عميق وكأن شيئاً لم يكن. وفي الصباح اتجه الشطّي إلى الزريبة ليحلب البقرة فلم يجد فيها قطرة. فصاح في أهله وجيرانه وهو (يكثح التراب)[2] أي ينثره في السماء، فاجتمع له الناس واقتفوا أثر الأقدام حتى توقفوا أمام (لايذة)[3] الصويعي الذي خرج يفرك عينيه في ذهول مصطنع، وأنكر معرفته أصلاً بهذا النوع من الحيوانات. ورغم سيل الأوصاف التي أمطروه بها، لم تتحرك ذاكرته، بل عاود السؤال عما يقصدون. إلى أن قام أحدهم بجلب بقرته ليريها للصويعي كمثال حي لما يقصدون. وما أن رآها صاحبُنا حتى انزعج واهتزت فرائسه وانتابته حالة من الفزع، وراح يهرول هرباً من رؤيتها. فاندهش الجميع وراجع بعضهم بعضاً، واتفقوا على أنهم ظلموا هذا الرجل (البهلول)[4] الذي لم يستطع رؤية البقرة فكيف له أن يقترب منها ويحلبها. وهكذا انطلت الحيلة ونجحت الخطة.

---

[1] **الشطّي**: ساكن الشط والساحل.

[2] **كثّح التراب**: نثره في الهواء ليخبر الناس بوقوع حدث خطير.

[3] **اللايذة**: سور من القش يحيط بمسكن متواضع، (أي يلوذ به ويحيط).

[4] **البهلول**: البسيط الساذج.

هـذه الواقعـة – رغـم صـعوبة تصـديقها فـي هـذا الزمـان – إلاّ أن الطيبـة كانت غالبة على أهل ذاك الزمان، فتنطلي عليهم أبسطُ الحيل. وأما المثل الشعبي الذي طبّقه الصويعي على نفسه والقائل: (إللي ما عطاكش فكّله)[1] فلا يبرر جريمة السرقة حتى وإن كان الوقت شحيح الموارد. وفي المقابل أيضاً، فموقف الصويعي يذكّرنا بما فعله الخليفة عمر بن الخطاب عندما عطّل العمل بحد قطع اليد لكثرة السرقة زمن القحط والجفاف وفقر بيت مال المسلمين، وذلك قبل أن ترد عليه الغنائم من البحرين والشام، فأعاد العمل بذاك الحد السماوي. ولعلّنا نجد في تصرف الخليفة عمر ما نلتمس به العذر للصويعي في فعلته تلك، لأن غريزة البقاء من أشرس الغرائز التي تفقد الإنسان عقله وتحيله إلى حيوان كاسر لا يعرف غير إشباع الحاجة مهما كانت الوسائل والنتائج. ورغم أن أخانا الصويعي كان مضطرا للجوء إلى ذاك الحل المستهجَن، إلاّ أنه ترك لبعض أبنائه وأحفاده تهمة الخوف من البقرة دون أن يدري.

ولكننا إذا نظرنا إلى هذا الخوف المزعوم نظرة منطقية، سوف لا نجد له مبرراً على الإطلاق، إلاّ إذا كان مصطنعاً ومرتباً ترتيباً مسبقاً. فما هي دواعي الخوف من ذاك الحيوان الوديع المطيع المدعو (بقرة)؟ التي يضرب بها المثل في الوداعة والمطاوعة والغباء أيضاً. فالجمل أكثر خطورة من البقرة، إذ يقال أنه يضمر الحقد على صاحبه إذا آذاه، فيؤجل الانتقام لنفسه إلى أن تسنح الفرصة، حتى وإن كان ذلك غدراً، ويضرب به المثل في ذلك. والحصان أيضاً له خطورته، سواء في حالة هيجانه أو في حالة هدوءه، ناهيك عن خطورته أثناء الجري

[1] بمعنى: من لم يعطك ما طلبت، خذه منه بالقوة.

والتسابق، إذ قد يعرّض صاحبه للسقوط، وكثيراً ما نسمع بحصان قتل صاحبه راكباً عليه كان أو مروّضاً له. وكلا الحيوانين تعامل معهما الصويعي دون خوف، بل استطاع ترويضهما والاستفادة من قدراتهما إلى أقصى درجة. فالخوف رغم ثبوته كغريزة في الإنسان إلاّ أنه ليس من شيم البدو، باستثناء في حالة اليقظة الدائمة لأي طارئ وما يقابلها من ردود أفعال إرتكاسية اللاإرادية لأية مفاجأة، عندها يكون الخوفُ أداةً منطقيةً لرد الأذى والدفاع عن النفس. إلاّ أننا نستطيع القول – قياساً – أن بعض المقدمات أو البديهيات قد تؤدي إلى نتيجة منطقية يمكننا بواسطتها دفع تهمة (الخوف من البقرة) بعيداً عن الصويعي، مثل:

(البدوي لا يخاف) ← (الصويعي بدوي) إذن (الصويعي لا يخاف).

أما الأسطورة الأخرى التي لا تقبل التصديق أيضاً فتقول: أن الولي الصالح (امحمد أبو صاع) نفسه كان يعيش متوحشاً في الصحراء مع بقر الوحش، يقتات من لبنها، ويجري معها في البراري كالغزال الشارد. فأرادوا اصطياده بوضع كمين له، حيث جهّزوا له قصعة من الأكل ووضعوا عندها ماءً، فلما أكل منها حتى شبع وشرب الماء حتى امتلأت بطنه، لم يستطع الجري، فتم القبض عليه، وعلّموه النطق. وسرت هذه الأسطورة مسرى القصص الشعبية التي تنتهي عادة بالإيمان بها وتصديقها، حتى أن الصيعان يندهونه بـ(ولد الوحشية) أي بقرة الوحش، ويمدحونه بالقول: (راضع بقراته.. وساكن وين الهوش مباته). أما كراهيته للبقر فيقال أن إحداها رفسته رفسة قوية آلمته، فكرهها. ولكنها لم تقتله حتى يخاف منها أبناؤه.

وفي مسألة (عيش امحمد أبو صاع مع بقر الوحش)، فإن الأماكن التي عُرف الصيعان بارتيادها لم تشهد في الزمن القريب هذا النوع من البقر، بل كان ذلك – منذ أقدم العصور – محصوراً فيما وراء الجبل الغربي والمناطق الداخلية بعد تصحرها، وهي مناطق تمتلئ بالوحوش كالضباء والغزلان والجواميس والحمير وبقر الوحش والكباش البرية والنعام..[1]، وكذلك الحيوانات الضواري والطيور الكواسر وغيرها، وهي مناطق تقترب من أواسط أفريقيا، أي الواقعة في أقاليم السافانا المتاخمة لأقاليم الغابات الاستوائية.

وفي هذه الحالة يمكننا الافتراض بأن تلك الادعاءات أوحى بها قدوم أشخاص من أدغال أفريقيا التحقوا برباط (عبد الله بن ياسين)، الذي أقامه على ربوة في شمال السنغال، والذي انطلقت منه حركة المرابطين[2]. والبعض يُرجع قبائل الصيعان إلى أصول مرابطية قادمة من المغرب الأقصى. ولعل المبالغات في نقل الروايات القديمة لعبت دورها في إرجاع بعض الصالحين إلى أدغال أفريقيا واستنباط القصص الخيالية زيادة في توسيع الهالة وإضفاء القدسية على شخصية المرابط وتمييزه عن غيره بالكرامات التي تقترب أحياناً من المعجزات. وهذا ليس بالأمر الغريب على ثقافة تلك العصور، فقد نُسجت – على ذاك المنوال – عدةُ روايات في تاريخ الفتح الإسلامي للمغرب العربي حول بعض قادة الفتح، ولعل مسألة خوف الوحوش من عقبة بن نافع وهروبها مع صغارها فاسحة أمامه المجال

---

[1] أنظر وصف هيرودوتس للمكان لدى: **البرغوثي**، د. عبد اللطيف محمود، التاريخ الليبي القديم، ط1، 1971، دار صادر، بيروت/ لبنان، ص 154.

[2] أنظر مثلا: **سالم**، د. السيد عبد العزيز، مصدر سابق، ص ص 699،693.

لبناء القيروان[1] خير دليل على ذلك. أما في حالة (امحمد أبو صاع) فقد عُكس خوف الوحوش من البشر إلى خوف البشر من الوحوش، وهو تنوع في سرد الروايات الشعبية وإمعان في المبالغة فيها.

سادساً- بين اللين والصرامة تولد الطرائف:

النماذج التي ذُكرت لا تعبّر إلاّ عن مؤلفيها ورواتها، فهي خاصة وغير قابلة للتعميم. فللمكان والزمان دورهما في التأثير على الشخصية البشرية مهما كان نوعها وتكوينها وانتماؤها، وللمواقف ردود أفعالها الخاصة بها. وهي من المتغيرات الحياتية التي لا تعرف الثبات ما دام الحراك الاجتماعي متبدلاً ومتغيراً. أما الثوابت عند البدو فهي تمسكهم بالأخلاق والقيم، كالكرم والشهامة والشجاعة والفروسية والعفة والوفاء والمروءة.. وكلها صفات يتصف بها الصيعان في باديتهم. ويتجلى كرمهم في الاحتفاء بالضيف والترحيب به، فالغني يبالغ في كرمه طمعاً في السيادة على غرار ما كان يفعله حاتم الطائي الذي يقول: (يقولون لي أهلكت مالك فاقتصد.. وما كنت لولا ما تقولون سيدا)[2]. أما الفقير فيبيت خاوي البطن ولا يتناول وجبة ضيفه المتوقَّع التي تحتفظ بها زوجته دائماً. أما بالنسبة للشجاعة، فهم من البدو الذين قال فيهم ابن خلدون أن البأس صار لهم خلقاً والشجاعة سجيةً يرجعون إليها متى دعاهم داع أو استنفرهم صارخ. ورغم ما عُرف عن الصيعان من شدة وصرامة وصلابة مبالغ فيها، إلاّ أنهم سريعو التلين والرضوخ للعواطف الإنسانية متجاوزين البساطة البدوية إلى درجة السذاجة أحياناً بصورة

[1] أنظر مثلا: عبد الحميد، د. سعد زغلول: تاريخ المغرب العربي، ج1، ؟، دار المعارف، ؟، ص ص 144، 145.

[2] سالم، د. السيد عبد العزيز: التاريخ السياسي والحضاري للدولة العربية، ط؟، ؟، دار النهضة، بيروت/لبنان، ص39.

مبالغ فيها أيضا. وهم بين الحالتين لا يعرفون حلولا وسطى، فذاك عندهم نفاق لا يطاق وسلوك هابط لا يحتمل.

والطريف في الأمر أن اللين والصرامة عند الصيعان قد يمتزجان في عجين غريب يفوق في وصفه الخيال ويعجز عن تحليله علماء النفس والاجتماع. فالتقاء النقيضين قد يؤدي إلى نتائج غير متوقعة في مجال علم النفس. إلاّ أنه قد يجوز في علم الفيزياء حيث يلتقي سلكا الكهرباء السالبُ والموجبُ في بيئة خاملة فيولّدان النور، أما إذا كانت البيئة نشطة فيحصل العكس تماماً. هكذا في العلاقات الاجتماعية، فالنية الحسنة هي بمثابة غازات خاملة، أما النية السيئة فتمثل الغازات النشطة المتفاعلة مع الأحداث فتؤدي إلى كارثة. والتقاء اللين والصرامة عند الصيعان يكون دائماً مسبوقاً بحسن النية وصفاء السريرة، فتراهم يقدمون على العمل، أي عمل، بكل عفوية بعيداً عن الخبث المبيّت. فالمفاجأة لا تعطي –عادة– فرصة للتفكير واستخلاص النتائج، بل تبيح سرعة التصرف حسب الحالة. وهذا ما عبّر عنه (فرويد) بميكانزمات الدفاع النفسي. وفي معظم الحالات تكون النتيجة سارة، بل وتضيف طرفة جديدة يتندرون بها، أو تكون –على الأقل– سلبية لا غالب فيها ولا مغلوب، فيبررون ذلك بالقول (حضر فيها امحمد أبو صاع). ومن بين الطرائف التي حصلت فعلا في هذا الخصوص نورد القصة التالية:

ابتعد أحدُهم عن مضارب البيوت لينظّف قميصه الملتصق مباشرة بلحم جسمه. فخلع (الجرد)، ثم القميص، ثم أعاد الجرد ليستر به جسده، وراح ينظّف القميص. وبينما هو منهمك في التنظيف سمع نداء اخوته وهم يتعاركون مع جيرانهم ويستنجدون به. وبدون أدنى ذرة من التفكير رمى القميص جانباً وخلع

الجرد وامتشق دبّوسه وهبّ – كما ولدته أمه – لنجدة اخوته. ودخل المعركة وهو في حالة هيجان، وما أن رآه الفريقان المتعاركان حتى رمى كل منهم دبّوسه، بينما هرولت إحدى النساء وراء صاحبنا لتدثره بغطاء رأسها، فانفجر الجميع بالضحك، وتعانق الفريقان دون مقدمات صلح، وجميعهم مقتنع بأنه (لولا ستر الله وبركة امحمد أبو صاع) لحصلت كارثة بين الجيران. وفي هذه القصة يختلط اللين بالصرامة والبركة بالدبّوس في عجينة غريبة واحدة متنافرة المواد ومتباينة التركيب، ولكنها حصلت وصارت حقيقة ماثلة أمام العيان. غير أن الطريف في هذه القصة أنها عكست القاعدة المعروفة عن الصيعان (بركة ودبوس)، فصار الدبّوس فيها سابقَ البركة!



الفصل الثالث

تجهيزات الصويعي الشخصية وملابسه وتصرفاته

تمهيد:

تتنوع رحلات البدوي بحسب المقاصد. وتحصل إما بصورة فردية أو في جماعة. ومن أهم الرحلات الفردية:

6- إما أن يكون (في جرّة البل)، وهي الإبل المصحوبة براع (سارح). فيضطر صاحبها -بين الحين والآخر- للحاق بها وتفقدها وحمل التموين والماء للسارح، وربما لجلب اللبن (الحليب).

1- وإما أن يكون (حوّام)، أي باحثاً عن إبله التائهة في المراعي لوحدها، بدون سارح، أو بسارح توغل بها في أماكن قصية يجهلها صاحبها. أو باحثاً عن شاة أو ناقة خرجت عن القطيع واتخذت طريقاً مجهولاً. أو باحثاً عن أرض سقتها الأمطار ليخبر عنها أهله. فيضطر لحمل ما يكفيه من مؤن ومياه؟

5- وإما أن يكون (لاحق المرحول)، أي مقتفيا أثر أهله الذين سبقوه في الرحيل إلى مكان آخر. وعادة ما تكون (مخلاته) و(سلفته) خاوية من كل محتويات السفر، إذ قد يحدث ذلك فجأة، ولكنه سيتمكن من اللحاق سريعاً بالقافلة، لأنه أسرع منها.

4- وإما أن يكون (مسوّق)، أي ذاهباً إلى السوق لشراء بعض اللوازم، فتكون (مخلاته) و(خُرجه) فارغين استعداداً لملئهما بالبضاعة المجلوبة عادة من المدن أو القرى القريبة.

3- وإما أن يكون داع أو مدعى عليه، أي ذاهباً لحضور جلسة بالمحكمة. وفي هذه الحالة تكون (سلفته) مليئة بالأوراق والمستندات إذا كان من سكان القرى وله فيها أملاك. أما التموين فسيكون قليلا نظراً لقصر مسافة ومدة الرحلة.

1- وإما (ماشي يغبّط) أو (يوهّي) أو (يحوّم)، أي يتتبع مسيرة سحابة ممطرة ليحدد مكان نزولها، ويقدر مساحته، ويقيس (الثرى) أي مستوى الماء الغائر في الأرض، ويستطلع الأماكن المجاورة ليعود إلى أهله ويزوّدهم بتلك المعلومات، حتى يستعدوا لحرث وزراعة تلك البقعة، أو توجيه الأغنام والإبل إليها في فصل الربيع. وعادة ما يستغرق ذلك عدة أيام، فيتزود بزاد يكفيه، وربما يستخدم مطيّةً في تلك الرحلة كالإبل أو الخيل.

وغير ذلك من الرحلات التي تحتاج -كل واحدة منها- إلى نوع معين من التجهيز. وفي جميع الحالات لا يستغني البدوي عن كثير من المرفقات والتجهيزات الضرورية نوردها بشيء من التفصيل بغض النظر عن أنواع الرحلات والسفرات والمشاوير التي ذكرنا أهمها آنفاً. مع محاولة إعطاء فكرة عن ملابس البدوي وتصرفاته في حالة الرحلات الفردية.

أولاً- التجهيزات:

أ- التجهيزات الحاملة:

- المخلاة: بضم الميم، والأصل العربي بكسرها. وهي جراب مصنوع من شعر ووبر الحيوانات كالماعز والإبل. مقاسها: في حدود 38x 18

سم. وتشد بحبل مفتول أو سير من الجلد، وعادة تُلبس بحيث يكون الحبل على الصدر والكتفين (من الأمام) وهي تتدلى على الظهر (من الخلف). ويستعان بها بحسب الرحلة، فإذا كان الشخص مقتفياً أثر الإبل -مثلا- تكون المخلاة محملة بالتموين= (العوين[1]: دقيق، سويقة، زيت، شاي، قدر، زلفة، برّاد، طاسة..)[2]. أما إذا كان متسوقا فتكون المخلاة فارغة ذهاباً وممتلئة إياباً. وعادة ما تكون المخلاة ظاهرة فوق الجرد، إلاّ إذا حوت ما يُخاف عليه فتُخفى تحته.

- الصرّة والخرواطة: وهما من محتويات المخلاة، حيث يوضع فيها الدقيق أو السكر والشاي وغيرها من المواد لفصلها عن بعضها البعض. فالصرّة تربط بواسطة التقاء أطرافها الأربعة. أما الخرواطة فهي كيس مخروت بخيط متين يُعقد عند فمه فلا يتسرب منه الدقيق وغيره.

- الخرُج: بضم الخاء. وهو أصغر من المخلاة، ومصنوع من نفس موادها. إلاّ أنه يختلف عنها من حيث أنه من شريط واحد عرضه حوالي 13 سم، ينتهي كل طرف من أطرافه بجيب. يوضع على الكتف فوق الجرد. ويستخدم للتسوق فقط، كشراء الشاي والسكر والحلوى والكاكاوية[3].. لأن جيوبه لا تسع التموين كما تسعه المخلاة. وعادة ما يكون الخرج مظهراً من مظاهر الأبهة والوجاهة. وهناك أيضاً خُرج أكبر يوضع على ظهور الحيوانات.

---

[1] **العوين**: ما يستعان به من زاد وتموين.

[2] سيأتي ذكر كل هذه العناصر لاحقا.

[3] **الكاكاوية**: فول سوداني، يضاف إلى طاسة الشاي الثالثة.

- السِّلفة: بكسر السين. تُصنع عادة من الجلد (الفيلالي)[1] الأحمر أو الأسود. وتُشد بالسير عند الكتف الأيسر لتتدلى ملتصقة بالجنب الأيمن. ولها عدة جيوب يضمها غطاء من نفس مادتها. وتُستعمل لحمل (الإبرة والخيط واليشفة والزناد والصوان والطُعم[2] وبعض النقود..)، وذلك في حالة الرحلات الطويلة. وأحياناً بعض الأوراق الرسمية (كالحجايج والأحباس)= وهي أوراق رسمية خاصة بملكية الأراضي وغيرها، وذلك عندما تكون الرحلة من القرية إلى المدينة لحضور جلسة قضائية.

- السماط والمطرة: لحمل الماء. والسماط جلد ماعز مسموط وليس مسلوخ. يشبه الأنواع الأخرى المسموطة مثل (القربة والمزود والعُكّة والشكوَة)، إلاّ أنه يشكّل نصف الشاة أو أكثر بقليل، أسفله محكم الغلق عند الرجلين والمؤخرة حتى لا يتسرب منه الماء، وفي الأعلى يخرت فمه الواسع بشريط جلدي متين، ويشد بحبل عند الكتف. ويكون السماط -عادة- من تجهيزات الشخص المسافر منفرداً، إذ يحمل فيه ما يكفيه من ماء بحسب (المخطر)= الرحلة أو السفرة أو المشوار. أما إذا كانت تلك الرحلة قصيرة قد يصطحب معه ما يعرف بالمطرة، وهي مصنوعة -عادة- من المعدن الخفيف، أعدت لهذا الغرض، إلاّ أن البدوي يغلّفها بقماش خشن لتحتفظ بالماء بارداً، وهي توضع على الكتف بواسطة حبل يُربط في أطرافها. ولعل المطرة مشتق اسمها من المطر، أي الماء.

[1] الفيلالي: نوع من الجلد، قد تعود تسميته إلى واحات (تافيلالت) جنوب المغرب الأقصى، وهي (سجلماسة) القديمة، والمشهور أن تلك الديار كان يربى فيها نوع من الخراف المنتجة للجلود الراقية منذ القديم.

[2] سيأتي ذكر كل هذه العناصر لاحقا.

ب- التجهيزات المحمولة:

- الزلفة: أو القصعة التي يوضع فيها الأكل، مصنوعة من الخشب. وربما سُميت هكذا لأن الشخص يزدلف إليها ويقترب منها عند تناول الطعام. وعادة ما تكون هي الأخرى من الحجم الصغير الذي يكفي لشخص واحد. وتستخدم للث وعجن السويقة وتجهيز (الزميطة).

- البرّاد والطواسي= فالبرّاد إبريق مصنوع من المعدن (حديد عادة) بشكل مكوّر، يعلوه غطاء كالطاقية، وفي جنبه عروة للمسك، وفي جنبه الآخر قناة ينسكب منها السائل تسمى (بذّارة). صنع خصيصاً لطهي الشاي. ولا نعلم سر تسميته بـ(البرّاد) لأنه سخّانٌ وليس برّاداً، ربما كان ذلك هروباً من لفظ (السخونة) بقصد التفاؤل بـ(البرودة)، أو لأنه يبرّد فيه الشاي قبل تناوله، وتسمى هذه الطريقة (تخديم الشاهي) أي تبريده. أما الطواسي فهي جمع طاسة، لأن السائل يطس أو يغطس فيها. وهي صغيرة الحجم، مصنوعة من الزجاج، ولا تستخدم لغير شرب الشاي.

ثانياً- اللوازم الضرورية:

أ- التموين (العوين):

- السويقة: وهي دقيق أعد من الشعير المحمص، وتسمى بعد لثها وعجنها (زميطة)، حيث تعجن يدوياً بالماء ويضاف إليها قليل من الزيت وتؤكل يدوياً، واللقمة الواحدة منها تسمى (عبّود) أي ما تستطيع قبضة اليد (تعبيده) وتجهيزه كلقمة يستوعبها الفم. والزميطة لا تطهى، بل تؤكل

مباشرة بعد عجنها بالماء البارد، لأنها مسحوقة من شعير محمص سلفاً كما ذكر. وسميت الزميطة هكذا ربما من (الزمط) أي البلع، حيث لا تحتاج –كغيرها– لكثير من المضغ. أو ربما من (الزّمّيت)= الساكن، أو الوقور في كلامه[1]، و(الزميطة) لا يحتاج إعدادها لكثير من العناء كإيقاد النار والطهي وغيرهما مما يحتاجه غيرها من الوجبات. أما (المُزّمئت) فهو المتغير لونه[2]، و(الزميطة) لون سويقها متغير بفعل تحميصها مقارنة بدقيق أخر.

– الدقيق: وهو نوعان، الأول من القمح لإعداد (العصيدة)، أو الخبز (أهمه خبزة الملّة التي تُغطى بالجمر المخلوط بالرماد والرمل). أما دقيق الشعير فيخصص لإعداد (البازين)= عصيدة لا تكون بغير دقيق الشعير. وهو من الأكلات الشعبية التي لا تُعرف إلاّ في ليبيا.

– شيشة الزيت: الشيشة قنينة زجاجية يُحمل فيها –عادة– الزيت. حيث تُؤكل به العصيدة، أو يضاف للزميطة (أي تفوّح به)، أو يُعدّى به الخبز.

– الشاهي والسكر: (الشاهي)= الشاي، وهو جرعة يومية متكررة يدمن عليها الشخص مثل القهوة والتدخين. وله مقادير معروفة، فعندما نقول (كيلو شاهي، أو كيلو حشيشة) نعني=كليو غرام من السكر ومائة غرام من الشاي (الأحمر غالبا). و(الشاهي) يُطهى على نار الحطب في البرّاد،

[1] ابن منظور، اللسان.
[2] المصدر السابق.

وكل برّاد يستوعب ما مقداره عشرة غرامات من حشيش الشاي يُحلّى بمائة غرام من السكر لثلاث مرّات، ويكفي لشخصين أو ثلاثة على الأكثر. وفي المرّات الثلاث تكون الأولى (قوية) والثانية (متوسطة) والثالثة (خفيفة) أما الرابعة فتُسمى (مصميصة) أي يختفي فيها لون الشاي وطعمه ولم تعد نافعة. ويعتمد المدمن على (الطاسة) الأولى القوية لتعديل المزاج. ومخلاة البدوي المسافر لا تخلو من (الشاهي)، فهو الجرعة الضرورية في الصباح الباكر وبعد الغداء وفي الليل أيضاً، أما في حالة عدم توفره فتكفي جرعة واحدة يومياً.

- النفّة: نوع من النشوق والسَّعوط، تُصنع من أوراق التبغ (الدّخّان) الجافة، حيث تسحق جيداً بواسطة دقها بمهاريس وعتال خاصة، ويضاف إليها مسحوق نبات برّي يسمى (الرمث). والنفأ في العربية قطع من النبات المتفرقة هنا وهناك. والنفّة جُعلت لتُستنشق بواسطة مناخير الأنف، لذا يبدو أن اسمها مشتق أساساً من (أنف). وأحياناً توضع بين الأسنان والشفة السفلى (اللغزة) لبعض الوقت ثم يُتخلّص منها. وتعتبر (حكة النفّة) من أهم مرفقات الصويعي الدائمة. فلا يبخل بها على من يطلب جرعةً منها. وهي أهم من الشاي لأن الحاجة إليها تُقدر بالساعات أما الشاي فتقدر بالأيام عادة. والبعض يستخدم (المضغة) بدل النفة، أو يستخدمهما معاً، وهي قطعة من التبغ توضع في الفم (في اللغزة) فترة من الوقت ثم يُتخلص منها. وكلاهما يستدعي وجود (المحرمة) وهي منديل لتنظيف الأنف والفم من آثار النفة والمضغة. والطريف أن النفة إذا أُخذت

جرعتُها بواسطة الأنف تعقبها (عطسة) قوية يبالغ الشخص في تضخيم صوتها لزيادة المتعة.

ملاحظة: الرجل الشهم المشهور بالكرم لا يحمل معه (عوين) عند السفر، فيقول: (أنا عويني عيش)، أي القبائل والنجوع والرعاة الذين يلاقيهم في الطريق سيستضيفونه ويقدّمون له أصناف الأكل الساخن ويكرمونه، دون الحاجة لحمل تموين جاهز وبارد معه، وذلك لشهرته واعترافهم بجميله السابق عليهم.

ب- المكمّلات:

- الزناد والصوان والطُعم: (لإشعال النار). والزناد قطعة من الحديد الممغنط (ذكير) له مقبض من نفس مادته. والصوان قطعة من الحجر الصلب المعروف بنفس الاسم. والطُعم متعدد المصادر (مثل خرقة من القماش المبلل تمرر على بطن الشاة لتكتسب نوعاً من الغاز القابل للاشتعال بنسبة قليلة، ثم تجفف ويحتفظ بها. أو هباء نبات الرمث والشيح)، وغيرها من الطرق المختلفة لإعداد الطُعم. ويتم إشعال النار بواسطة فرك أو قدح الزناد على الصوان فتولد شرارة، بعد عدة محاولات تنتقل الشرارة إلى الطُعم القريب منها، فيظهر فيها الدخان، ثم توضع تحت القش الجاف وقطع الحطب الصغيرة، ويُنفخ فيها حتى يظهر اللهب، فيضاف إليها قطع الحطب الأكبر فالأكبر. وهذه العملية تحتاج إلى مهارة وخبرة فائقتين والفشل فيها يؤدي إلى نتائج غير سارة كالاحباط والحرمان من الطعام أو الشاي. أما إذا كان البدوي مستقراً في بيته،

فيحتاج إلى عملية (توريث النار) التي تحافظ على دوام اشتعالها دون الحاجة لإعادة عملية القدح بالزناد والصوانة، وقد تستخدم (الجلّة) وهي روث الإبل في عملية توريث النار، ويخصص لها مكان قريب من بيوت الشعر، ليؤخذ منها الجمر كلما دعت الحاجة.

- عدة الحلاقة: كالشفرة والصابون والمرآة وربما المشط. وهي أدوات ضرورية للبدوي المسافر، خصوصاً في المراحل الأخيرة، عندما كثر الباعة المتجولون ومعظمهم من اليهود الذين يجوبون الصحاري والبوادي بواسطة حميرهم المحمّلة بالسلع الدقيقة التي يحتاجها البدو رجالاً ونساءً.

- الإبرة والخيط: وهما من الضروريات التي لا تخلو منها سلفة البدوي. فقد يحتاجها ليخيط قميصه أو جرده إذا تعرض للتمزيق. وهناك أنواع من الإبر كالميبر والمخيط والمشّاي، وكلها متنوعة الأغراض، فمنها لتصليح المهمات البسيطة، وأخرى لترميم المهمات الكبيرة كبيت الشعر والغراير والعدايل، والأخيرتان لنقل الحبوب والأمتعة على ظهور الحيوانات.

- اليشفة: ونصلها أكبر من المخيط والمشّاي، وتختلف عنهما بوجود مقبض خشبي لها. وتصلح لخياطة وترميم المهمات الصلبة كالأحذية والأحزمة الجلدية، حيث تكون مصحوبة عادة بأسلاك معدنية. وأصل التسمية عربي: (الإشفى).

- الموس: (نوع من المدى). أداة حادة يُطوى نصلُه في مقبضه ويعتبر غمده لاتقاء إيذاء شفرته الحادة. ويشد عند (تكّامية الجرد)[1] ولكنه

[1] سيأتي الحديث عنهما لاحقا.

مخفي تحته. وهو سلاح احتياطي لا يستعمل ضد الأشخاص مهما كانت الظروف، وإنما يُحمل لأغراض أخرى، مثل: إذا مرضت شاة تُذبح به قبل أن تنفق و(تموت جيفة). أو إذا اصطاد الشخص فريسة في البرية فيذبحها ويسلخها به. ويوصف من لا يحمل معه (موس) بـ(الجيّاف) أي أن تنفق (تموت) أمامه الشاة جيفة ولا يستطيع فعل شيء. وقد روى لي والدي أن الشخص إذا تعرّض للذغة أفعى سامة في الصحراء كان يقطع جلدة رجله مكان اللدغة ويرميها قبل أن يتسرب السم إلى باقي جسمه، ثم يعالج الجرح بأي نوع من الأعشاب القريبة أو بالتراب. ولا تعجب من ذلك فمكان اللدغة يكون عادة مخدراً بفعل السم فلا يحس الانسان قطعه بتلك الأداة الحادة جداً، وهذه العملية أفضل عنده من التعرض للهلاك أو ربما للموت.

- المحرمة: قطعة مربّعة من القماش الملون (أحمر عادة)، ضلعها بين 58 و48 سم على أقل تقدير. يشد إحدى زواياها عند (تكّامية الجرد) وتتدلى خارجه عكس الموس. وتستعمل في مسح الوجه من العرق وتنظيف الفم والأنف من النفّة، (وقد تُصرّ فيها حكّة النفّة). وتُصنع خصيصاً لهذا الغرض ولا يجوز استخدام غيرها من الأقمشة. إلاّ أن تسميتها -على ما يبدو- أنثوية وليست رجالية (أي حريمي)، لأن أصل استعمال (المحرمة) غطاءٌ لرأس المرأة، حيث تغطي بها شعرها المحرّم على الرجال الغرباء رؤيتُه. وتسمى في المدن (طرابلس مثلا) بـ(تستمال). أما استعمالها من قبل الرجل في المسح والتنظيف فتشبه ما يسمى

بـ(الفوطة) أو (المنـديل) المعروفين عـادة لمسـح اليـدين بعـد الانتهـاء مـن الأكـل، أو (المنشـف) الـذي ينشـف بـه الوجـه بعـد غسـله. غيـر أن محرمـة البدوي خاصةٌ جداً لأنها مثبتة في تكّامية جرده فلا يستعملها أحدٌ غيره، ويهـتم بغسـلها وتنظيفهـا يوميـاً لأنهـا تشـكل جـزءاً مـن شخصـيته ومظهـره ووجاهته.

- الـدبّوس: يبـذل الصـويعي جهـداً خاصـاً فـي تسـوية دبّوسـه. وأفضـل الدبابيس تُستقطع من شجرة الزيتون أو من السدر (ويوصـف أحيانـاً بربـع زيتونـة أو نصـف سـدرة) مبالغـة فـي ضـخامته. ويُختـار الغصـن المناسـب بحيـث تشـكل إحـدى عُقلـه رأس الـدبوس. وبعـد تسـويته وصـقله بواسـطة المـوس يُقطـع الزائـد عـن الطـول المقـرر والمناسـب لبنيـة الشـخص وطـول وقصر قامته وقدرته على حمله واستعماله. والمعلوم أن استعمال الـدبوس ليس حكراً على أقوياء البنية فحسـب وإنمـا عائـد على مهـارة المسـتعمل مهمـا كانـت بنيـة جسـمه. ويثقـب الـدبوس -عـادة- فـي طرفـه ربمـا بقصـد إحكام المسك عند الاستعمال حتى لا ينتزع من قبل الخصـم. أمـا حملـه فيكـون إمـا فـي اليـد اليمنـى أو ملاصـقاً للإبـط فـي وضـع أفقـي رأسـه إلـى الخلـف ومقبضـه إلـى الأمـام ليسـهل استلاله عنـد الحاجـة. وفـي حـالات أخـرى يحمـل البـدوي عصـاً خفيفـةً لـيهش بهـا علـى غنمـه أو يسـوق بهـا (زايلتـه) وتسـمى (عصـا سـواقي). كمـا تُسـتعمل أنـواع أخـرى مـن العصـي كـ(الباكيتة) و(اللقاحيـة) وذلـك علـى سـبيل الوجاهـة أو الاتكـاء عليهـا. أمـا عند الشدائد فلا ينفـع إلاّ الـدبوس. فقـد يخيّـر البـدويُّ خصـمَه بـأمرين (إمـا

برأس الدبوس وإلاّ بقعره، أي مقبضه)، أما الرأس فيحسم الأمر بالقوة، وأما القعر فيحسمه سلماً. وعادة ما ينشغل البدوي -عند الحديث مع الخصم- باستعمال قعر الدبوس في التخطيط على الأرض ورسم الشروط أو الحلول أو المقترحات والتعبير عنها بخطوط وأشكال هندسية زيادة في الشرح وتوصيل الفكرة لمحدّثه، وهذا يعني أن الوضع لا يزال في حالة من الهدوء والسلم.

ثالثاً- الملابس:

- الكبّوس: وهو غطاء الرأس. وفي اسمه اختلافات، فقد يكون من (الكبس) أي الضغط، فالبدوي يشعر بالصداع إذا خلع كبّوسه، لذا فهو يلتزم وضعه على رأسه لكبسه والضغط عليه، وأيضاً لحمايته من الحرارة صيفاً والبرد شتاءً. وربما سمي هكذا لأن صناعته تخضع -في الأساس- لضغط الصوف بمكابس خاصة. أو ربما كانت التسمية من أصل لاتيني، لأن (كاب) تعني الرأس، و(أوس) علامة تعريف أو تنوين الأعلام، ونجد هذه الظاهرة في عدة ألفاظ بدوية مثل (كرموس) وهو ثمار شجرة التين (كرم + أوس)، و(قطوس) وهو الهر (قط + أوس)، وغير ذلك من الألفاظ التي لا توجد في لهجات العرب المشارقة. وقد تكون هذه الظاهرة بتأثير اللهجات الأمازيغية المتأثرة باللغة اللاتينية التي كانت تفرض على سكان مدن الشمال الأفريقي إبان الاحتلال الروماني.

ويقال أن الكبّوس تأثير أندلسي، استقرت صناعته في تونس زمن الحفصيين. وظل البدو في ليبيا يجلبونه من (سوق الشواشية) بتونس،

ويختلف الكبّوس الليبي عن الشاشية التونسية بأنه أشد حمرة مائل إلى السواد، وقشرته أسمك، وله زائدة في الأعلى (طنقورة) لتثبيت (النوارة) وهي خيوط حريرية، وتسمى أحيانا (بُسكل) ربما من أصل روماني (basc) وتعني (قبعة)، أو (bascula) وتعني (ميزان) لأن (النوارة) تتمايل يمنة ويسرة مثل كفتي (البسكولة). ويبدو أن (النوارة) تأثير شرقي أضيف إلى الكبّوس، لأن الكبّوس (العصمللي)=العثماني طويل بعض الشيء وله (بُسكل) في قمته.

ويُلبس الكبّوس أحياناً فوق طاقية أخرى من القماش الأبيض لامتصاص العرق وحماية الكبّوس منه. وبقي البدو إلى زمن قريب يفرّقون بين الكبوس والطاقية، ثم صار الكبّوسُ (طاقيةً) والطاقيةُ (معرقةً). ويكتفي البعض -في الجبل مثلا- بلباس (المعرقة) فقط خصوصاً في فصل الصيف صحبة جرد خفيف. وتدخل الطاقية عند البدو ضمن النظام الأخلاقي والتربوي، فلا يجوز للصغار مقابلة الكبار والتحدث إليهم ورؤوسهم (عريانة) أي بدون كبّوس، ففي ذلك (قلة احترام للأهل). لذا، فمن النادر أن ترى بدوياً بدون كبّوس أو طاقية أو معرقة.

- الجرد: رداء من الصوف، مقاسه في حدود (6,3 X 4,3متر)، وهو مختلف بحسب طول مرتديه، رجلاً كان أو طفلاً. يصنع بواسطة نفش الصوف وغزله واستخراج نوعين من الخيوط: (جدّاد وطُعمة) بواسطة (القرداش) لنفش الصوف و(المغزل) لغزل الخيوط التي تُطرح أرضا لبناء أساس (المنسز)= المنسج، وتسمى هذه الطريقة (النيرة) أو (التنيير).

ويكون (الجدّاد) أساساً عمودياً، و(الطُعمة) لبناء النسيج ودقه أفقياً بين خيوط (الجدّاد) بأداتين: (المرود والخلالة). يُبنى كل ذلك على أعمدة عمودية وأفقية من الخشب والقصب يسمى (المسدى) أو (المنسز= المنسج). وتقوم النساء بهذه المهمة في البيوت. وقد عُرف عن سكان الجبل قدرة نسائهم على إتقان هذه الصناعة. وهناك أنواع لهذه الأردية الرجالية مثل (العباية، والحولي، والوزرة)، وذلك حسب لون صوفها ودقة أو خشونة خيوطها، وأيضاً حسب فصل ارتدائها صيفاً أو شتاءً. ومعنى الجرد أصلاً في العربية: الثوب بين الجديد والخَلَق، أي ما جُرّد وبرُه وصار جرداً أو أجرد.

يقال أن أصل الجرد روماني. ولكننا نرى العكس تماما. فلا تغرنّك أردية أعضاء مجلس الشيوخ الروماني المشدودة عند أكتافهم والمتدلية أطرافها على أذرعهم كما تراها في تماثيل ذاك العصر. ولا تغرّنك تسمية (التكّامية) التي تبدو إيطالية. فالرومان أخذوا طريقة هذا الرداء من الإغريق، والإغريق اعترفوا أنهم أخذوها من النساء الليبيات حسب ذكر هيرودوتس نفسه. ولا زال الليبيون يرتدون الجرد بنفس الكيفية التي كان قدماء الليبيين يرتدون بها أرديتهم. ويتمثل ذلك –بصورة خاصة– في شده عند الكتف. ولإبعاد شبح الأصل الروماني عن الجرد الليبي يعترف القاموس الإيطالي بأن اسمه (**barracano**)[1]، ربما من كلمة (**barraca**) التي تعني (كوخ)، لأن البدوي يستعمل الجرد –أحياناً– كوخاً

---

[1] **التليسي**، خليفة محمد، **قاموس إيطالي عربي**، 1993، دار الريان.

شخصياً ليقي جسمه قيض الظهيرة في الصحراء الجرداء، وهي طريقة لم يتفطن لها الرومان المظللون بأسقف القصور والمباني الضخمة زمن إمبراطوريتهم.

ويُلبس الجرد -كما ذكر- بواسطة شدّ إحدى أطرافه، وهي عبارة عن خيوط يتوقف عندها النسج وتسمى (شناشيب)، حيث تطوّل بخيط مفتول من (الجدّاد)، وتُلف حول الجسم لتصل عند الكتف بمسافة متر تقريبا من طول الجرد، وتُثبت بحاشيتُه بواسطة ما يُعرف (التكّامية)، ثم يُلف الجرد حول الجسم بحيث يشمل الرأس أيضاً، أما طرفه (البقية منه) فيُحذف إلى الخلف فوق الكتف الأيسر، وتسمى (الشملة). وهذه الشملة يفتخر البدوي بها كثيرا، سواءً كانت محذوفة إلى الخلف أو متدليةً إلى الأمام أو مطويةً على ذراعه، بل وتدخل أحياناً ضمن أسلوب النقاش، حيث يطرحها في (الميعاد) ليُبعد عنه تهمة ما، فيقول: (هاذي شملتي والعداد عليا) وفي ذلك تأكيد على صدق ما فعل أو ما قال، وهو مستعد لتقبل اللوم إذا ثبت عكس ذلك. وقد يتعهد لخصمه بدفع (الحق وباطل) وهو ذبح خروف عادة، إكراماً للجماعة وتكفيراً عن خطأه الذي اعترف بارتكابه.

كما يفتخر البدوي أيضاً بطريقة وضع الجرد فوق رأسه، وهي ليست من الأمور البسيطة، فكثير من لا يحسنها. وتسمى هذه الطريقة بـ(النقاب) التي تحدث تجويفاً مثلثاً فوق الكبّوس والمعرقة. وقد يُميّز الواحد بطريقة لبسه لجرده، فيتم التعرّف عليه من بعيد، حيث تشترك في

ذلك كل العناصر: التكّامية والشملة والنقاب.. وقد اشتهر أفراد قبيلة (أولاد سلاّم) بطول شملة جرودهم، حتى وصفوا بـ(طوال الشملّة)، وهي جمع شملة.

– التكّامية: وهي العقدة التي يّشد بها الجرد عند الكتف. وينصرف الذهن –للوهلة الأولى– إلى تفسير هذا المصطلح تفسيراً تأثيلياً ما دام الاعتقاد بالأصل الروماني للجرد قائماً. حيث يبدو أن لفظ (تكّامية) إيطالي من شقين: (toga) وهو ثوب روماني قديم يرتديه القضاة والمحامون والجامعيون، أو (tocco) وهي قبعة مستديرة يرتديها أصحاب الوظائف السالفة الذكر، كما تعني أيضا: قطعة أو شريحة من اللحم[1]. والشق الثاني (mio) وهي ضمير الملكية للمتكلم. ورغم هذا الشرح القريب للفظ (تكامية) إلا أننا نرى أن الأقرب يكون من أصل اللفظ العربي أو المستعرب (طقم) الذي يعني اشتراك مجموعة أشياء في وظيفة واحدة مثل (طقم الشاي، وطقم الثياب، وطقم الأسنان..). والواقع أن وضع التكّامية في الجرد يشبه (الطقم) حيث تظم عدة أشياء: قطعة من النقود أو قطعة مستديرة ومكوّرة من القماش (tocco) الملفوفة بطرف الجرد والمربوطة بخيوط (الجدّاد)، والمحرمة والموس المثبتان بها. وكلها تشكل طقم التكّامية ومحتوياتها. وهناك قضية أخرى وهي تشابه لفظ (التكّامية) بلفظ (التكّة) التي يشد بها السروال عند الحزام، والتكّة في العربية رباط السراويل. وهما يشتركان في وظيفة الشد والربط بواسطة

---

[1] المصدر السابق.

الخيوط. أما عن اللاحقة (مية)، فكل ما نعلمه أن التكّامية أصبحت –في لهجتنا– قابلة للصرف هكذا: (تكّم، يتكّم، تتكيم) أي (أتقن، يتقن، إتقانا)، ويبدو أن فيها قلباً وإبدالاً، مثل (ق=ك) و(ن=م)، وبالتالي يكون أصل (التكّميّة)= التقّانيّة)، تعبيراً عن الشيء المحبوك والمتقن، هكذا يجب أن تكون تكّامية جرد الرجل الأنيق.

– السورية: وهي قميص طويل يستر كامل جسم الرجل تقريباً، ولها أكمام واسعة (والمعلوم أن قميص الصويعي مشهور جدا بأكمامه الواسعة إلى درجة المبالغة)، وتصنع عادة من القماش الأبيض، وتُلبس السورية مباشرة بين الجسم والجرد، وقد يضاف فوقها حزام. ويبدو أن التسمية كانت – منذ البداية– نسبة إلى (سوريا) التي تُجلب منها الأقمشة، مثل الحرير (الدمسكي) أي الدمشقي، علاوة على اشتهار الشام بصنع الأقمشة وصبغها منذ زمن الكنعانيين (الفينيقيين). وقد كان هذا النوع من القمصان منتشرا بين البدو، قبل أن تُعرف عندهم السورية القصيرة المصحوبة بالسروال المشدود بـ(التكّة)، والتي عادة ما يضاف إليها (الفرملة) والحزام، والفرملة كالسترة (الجاكيت) بدون أكمام ولكن لها (صدرية) مطرزة بالخيوط الحريرية، ربما كانت من تأثيرات الأزياء التركية على الشعب العربي. أما في حالة ممارسة الحياة البدوية الخالصة، فلا تنفع غير السورية الطويلة والحزام والجرد.

– الملخة: وهي النعل الذي ينتعله البدوي. وأصل التسمية قطعة من جلود الإبل الخشنة. يأخذها البدوي، ويبللها بالماء، ويدعكها بالحجارة

حتى تلين، ويقطع منها ما يناسب قدمه، ويشدها بسيور من نفس الجلد، مستخدما أدواته المعروفة: (الموس واليشفة والخيوط المعدنية..)، وتصير -بعد أن تجف- نعلاً أو خفاً أو حذاءً يستطيع السير به في الأماكن الوعرة، وقد يخلعه ويضعه تحت إبطه إذا استوت الطريق ولانت الأرض تحت قدميه.

رابعاً- التصرفات:

يتصرف الإنسان بحسب البيئة الطبيعية التي يعيش فيها، والأعمال التي يقوم بها لقهر تلك الطبيعة وتسخيرها لصالحه وصالح أسرته ومجتمعه. فتصير تلك التصرفات عادة من عاداته، وتدخل - شيئاً فشيئاً - ضمن التركيبة الاجتماعية فيقرّها ويعترف بها ويمارسها الجميع دون تحفظ. ومن بين التصرفات التي أردنا الحديث عنها في هذه الفقرة تلك النشاطات الجسدية التي يقوم بها البدوي، كالأوضاع الأساسية: الوقوف، والمشي والجري، والجلوس، والرقاد والاستراحة.

أ- بعض أنواع الوقوف والمشي والجري:

- يرقّب: الثبات في الوقوف مع تطاول في الرقبة ووضع اليد فوق الحاجبين لتخفيف حدة أشعة الشمس على العينين، وتركيز النظر على القادم، أو البحث عن حيوان تائه في الصحراء.

- مكهّب: الوقوف والنظر إلى أسفل، عادةً عند معاينة الماء في البئر. وأحياناً تبدل (مكبّه)، وهي من العربية: (كبهة)= لغة في (جبهة) التي علّق عليها سيبويه بأنها لغة من تُرضى عربيتُه.

- متمسمر أو مسمّر: الثبات التام في الوقوف دون حركة، وذلك عند ملاحظة شيء طارئ، وتركيز النظرَ على كل متحرك والسمعَ على كل صوت. واللفظ من (المسمار).

- مفحّج: التفحيج هو الفرجة بين الساقين، ربما للحفاظ على التوازن عند القيام بعمل ما.

- يفهّد: يقف عند النار فاتحاً يديه ورجليه للتدفئة. وهي من العربية (فأد، يفأد)= شوى، يشوي. قُلبت الهمزةُ هاءً تسهيلا.

- مطبّس: التطبيس هو الانحناء إلى الأمام، لأداء عمل ما، مثل الحصاد، وجلب الماء من البئر.. و(التطبيس) في العربية =(التطبيق). والبدو يقولون: (هيّا نتبصو)= (هيّا نبتدئ العمل)= هيّا نتطبق. وهيّا، فعلُ أمر من (هيّأ) أي (هيّء نفسك، واستعد للقيام بهذا العمل).

- يدعس: (أو يدعص): ينطلق مسرعاً بعد وقوف ليقضي أمراً مستعجلاً حدث فجأة، كردّ شاة إلى القطيع، أو لمواجهة خطر ما كذئب يهدد خرافه.. وفي العربية (دعست الإبل الطريق، تدعسه دعساً)= (وطِئته وطأً شديدا). و(دعص الرجل برجليه، إذا ارتكض).

- يهزقل: التهزقيل بين المشي السريع والجري الخفيف، مثل السعي خلف الإبل المسرعة. ربما تكون مقلوبة من الأصل العربي (الهزلج) أو (الهزلع) وتعنيان (السرعة والخفة).

- يخزّ: مثل يهزقل السابقة، مع هز الجسم مثل (خزّان) الفرس. وفي العربية يُقال: (رجل خُزخُز)= (قويّ غليظ كثير العضل)، وكذلك البعير.

- يهملج: يسير بسرعة. وفي العربية: الهملجة: حسن سير الدابّة في سرعة وبخترة.

- يخطم أو يدّهم: يمر بمكان معين واقع في طريقه، ربما يبقى فيه بعض الوقت. وفي العربية (الخطم)= (السمة في أنف أو خد البعير)، و(خطمت المكان)= (مررت به وقطته). أما (يدّهم)= (يداهم).

- يلوّص: يمشي في عدة اتجاهات للبحث عن شيء معين كالحيوانات مثلا، ويلاوص مع الشخص= يحاول إقناعه بأمر ما، والاسم (ملاوصة). وفي العربية (الملاوصة)= (نظر الشخص يمنة ويسرة كأنه يروم أمراً). وكذلك ملاوصة الإنسان، فيقال: (وما زلت ألاوصه على كذا وكذا، أي أديره عليه).

- يقفّي على: يصل إلى مكان معين مثل معطن الماء.. كما يقفّي على بيوت أناس يقصدهم. وكذلك في العربية (قفّى)= (أتى).

- يدقمز: يمشي على قدميه الخلفيتين، يضرب بهما الأرض بقوة. واللفظ ربما مقلوب من العربية (يقدمز) أي يستخدم مؤخرة القدم في المشي. (والقُدموس في العربية: الصخرة العظيمة. وجيش قُدموس: عظيم).

- يتنيفض: في حالة الغضب أو عدم الرضا على حديث معين أو هزيمة في (طرح خربقة)[1]، فيغادر المجلس وهو ينفض جرده ويحرك يديه بعصبية ويوسع من خطواته ليبتعد بسرعة عن المكان الذي غُلب فيه! وهي من المصدر العربي (النّفض) مثل: (نفّضت الثوب، إذا حرّكته).

- يفيّش: يرفع هامته ويمشي فاتح الذراعين مفرّج الساقين في تفاخر مصطنع. (وفي العربية: الرجل الفيوش أو الفياش: الذي يفخر بالباطل، أي ليس عنده طائل).

- متقنعس: يمشي بأبهة وسيادة. (والقنعسة) في العربية: (أن يرفع الرجل رأسه وصدره).

- يدّهكل: يمشي بتمايل وبطء وارتخاء، يوحي بأنه لا عمل لديه. و(الدهكل) في العربية (من شدائد الدهر).

- يتهنكر: يمشي متفاخرا بجرده وثيابه. و(التدّهكر) في العربية= (التدرج في المشية).

- يدفّ في اركابه: مثل الأول. أي بالكاد يحرك رجليه، ربما في حالة من التعب أو اليأس. ومعنى يدفّ: يدفع، سقطت عينها.

- يكرّ في جرده: أي يمشي وطرف جرده (شملته) تكنس الأرض، وهي مشية غير مستحبّة.

---

[1] طرح خربقة: شوط من أشواط لعبة (الخربقة) الشعبية المعروفة، سيأتي الحديث عنها لاحقا.

– يكُرّ في اسكافته: مثل الأول، إلا أنه في هذه المرة يجرجر نعله على الأرض، مثلا عند خروجه مهزوماً في لعبة ما كـ(الخربقة). والغريب أن الإسكاف في العربية تعني (صانع الخِفاف).

– يزازي أو يلاجي أو يمولج: يسير في اتجاهات غير محددة، أي يذرع الأرض ذهاباً وإياباً، نتيجة الحيرة والانشغال، أو قرب نفاذ الصبر. ربما (يزازي)= يبحث عن باب يجوز منه، و(يمولج) و(يلاجي)= يبحث عن ملجأ يلتجئ إليه.

– يهف: يمشي مسرعاً دون الالتفات يميناً ولا يساراً. (ربما من الحفيف).

– يدهدص أو يدهمص: يمشي متلمساً طريقه في الظلام الدامس. (ربما الأصل من يدهس). وفي العربية: (أمر مدهمس، إذا كان مستورا).

– يهمّص : مثل سابقتها.

– يسكسف: يروح ويجيء بدون هدف كالمتشرد. (ربما لها علاقة بالإسكاف= صانع الخِفاف والأحذية)، لأن الذي (يسكسف) يكر سكافته أو شلاكته أو خفه أو نعله على الأرض أثناء المشي.

– يفركح: يمشي بخطوات غير منتظمة. وفي العربية (الفركحة)= (يمشي الرجل متباعد الأليتين، وبارز الدبر).

- يطوطح: ينتقل بين الأماكن بدون هدف. وفي العربية: طاح الشيء طيحاً: إذا ذهب وفنى. وتطوّح: إذا ذهب وجاء في الهواء. وتطاوح: ترامى في الأيادي.

ب- بعض أنواع الجلوس:

- مقعمز: جالس على الأرض مهما كان الوضع. (وقعمز تشبه العربية: قعفص= جلس القعفصي). كما يقال: (تقعمص الفراش) أي (اهترى) ربما بسبب كثرة الجلوس عليه.

- متربّع: أي تربيع الرجلين= ثنيهما عند مفصلي الركبتين ووضع الساق اليسرى فوق اليمنى أو العكس وإخفاء القدمين تحت الركبتين. وتكون مؤخرة الجذع فوق الأرض مباشرة، مع انفراج كامل لمفصلي الفخذين عند الحوض. وهي جلسة رسمية معتمدة في الميعاد[1] أكثر من غيرها. وفي المدينة الليبية يسمون قاعة الجلوس بـ(المربوعة) أي التي يُتربع فيها. وفي الخليج العربي يسمون الجماعة والرفقاء والجلساء بـ(الربع) ربما للغرض نفسه.

- مفطحز: مثل المتربع مع زيادة في ارتخاء الجسم دليلاً على عدم جدية الجلوس أو تعبيراً عن التعب وإظهار عدم الرغبة في العمل، أي في حالة ترهل. (وهي أقرب للعربية: فِطحل، ويقال: جبل فِطحل= ضخم).

[1] **الميعاد**: اجتماع أو مجلس الرجال.

- مفطي: مثل سابقه. ربما الشخص البدين أكثر من غيره. (وفي العربية: فطا الشيء يفطوه= ضربه بيده وشدخه). وكذلك: تفطأ فلان في مشيه: تمايل من السمن.

- ثاني ركابه: ثني الركبتين ليكون الفخذان إلى الأمام والساقان إلى الخلف، وتكون المؤخرة فوق القدمين مباشرة. وفي هذه الجلسة شيء من الجدية والتحفز والاستعداد للمناقشة والمحاورة..

- ماد كرعيه (أو رجليه): إطلاق الفخذين والساقين بالتوازي إلى الأمام، والمؤخرة فوق الأرض مباشرة. وفيها شيء من الاسترخاء، إذ تكون اليدين إما فوق الفخذين أو متكئا عليهما خلف الظهر وذلك بطرح الكفين على الأرض.

- ركبة ونُص: تقديم رجلٍ على رجلٍ، أي يجلس الشخص على رجل وهي مطوية -أفقيا- إلى الخلف، ويبرز الرجل الثانية وهي مطوية - عموديا- إلى الأمام. وفي ذلك استعداد للقيام بعمل ما، أو لتناول الطعام في حال الاستعجال أحيانا.

- مقنعز: ثني الركبتين بزاوية حادة إلى الأعلى، وتكون بطنا القدمين والمؤخرة فوق الأرض مباشرة. ونظرا لعدم توفر الراحة التامة في هذه الجلسة تقوم الذراعان باحتضان الساقين والفخذين وضمهما إلى الصدر حتى يتوازن الجالس ويشعر بالراحة. وقد يحصل ذلك أثناء الاستماع لحديث شيق ومهم. (هذه الجلسة تقابلها في العربية: القرفصة. أما القُنعزة

فهي خصلة من الشعر تُترك على رأس الصبي)، والجلسة من هذا النوع تُشبه القُنعزة.

- مقنبر أو مقحّم: ثني الجسم بالكامل والاعتماد في الجلوس على القدمين فقط، مع وضع اليدين مقبوضة تحت الذقن والخدّين. وهي جلسة تُنعت بشيء من الاستخفاف والاستهزاء. يجلسها الواحد إذا كان جائعا -مثلا- وأمامه شخص يتناول طعاماً، كما لو كان يستجديه لقمةً. وهذا الوضع نجده عند الكلاب الأليفة وقت التقاء أصحابها على قصعة الطعام، فيقال: (فلان مقحم زي الكلب). (والقُنبرة في العربية = ريش قائم مثل ما على طائر القُنبر). (أما القحم فهو الذي تراه عينك فتزدريه. ويقال: فلان مُقحّم = ضعيف).

- مقرسع أو مقرصع: شبيه بالأول، أي الجالس على قدميه، وربما ملتف بجرده. (والمقرسع في العربية = المنتصب. أما القرصعة فهي الانقباض والاختفاء. والمقرنصع = المتزمل في ثيابه). أما إذا كانت بالكاف: مكرسع، ففي العربية: الكُرسوع: حرف الزند الذي يلي الخنصر عند الرُّسغ، ويقال: (امرأة مُكرسعة: ناتئة الكُرسوع، وتُعاب عليه).

- مفقهر: وهو الجالس قرب النار للتدفئة. وتعتمد هذه الجلسة على انفراج الفحجة، وفتح مفصلي الركبة، ومد الساقين إلى الأمام، ووضع مرفقي اليدين فوق الركبتين، وفتح الكفين. وفي ذلك تعريض كل أجزاء الجسم الأمامية إلى حرارة النار بواسطة القرب منها. (وربما تكون الهاء

زائدة في فقهر، لأن في العربية يُقال: أفقرك الرمي = أكثبك، وهو منك فُقرة أي قريب).

– مخنبر، أو مهنبر: يكون عادة متربعا، إلاّ أنه أكثر جمود، حيث يكون مطرق الرأس، ووجهه يكاد يكون مغطى بـ(نقاب جرده)، ربما يكون في حالة حزن أو استياء. (وهنبر في العربية = الأتان أم الهِنبَر).

– مبحبر: أثناء قضاء الحاجة في الخلاء. يقوم الواحد بإسدال أطراف جرده بقصد الستر، وهو جالس على أطراف قدميه. وهذه الجلسة تحتاج إلى كثير من الخبرة قبل أن يجازف المبتدئ بتطبيقها نظراً لحدوث مفاجآت قد لا تكون سارة. وربما يكون الأصل العربي (بحثر الشيء)= (بحثه وبدّده، أو أثاره وقلبه وفرّقه وقلب بعضه على بعض).

ج– بعض أنواع الرقاد والاستراحة والاسترخاء:

– راقد بالنوم: يغط في النوم مهما كان الوضع.

– مشندخ على عين قفاه: راقد على ظهره مع فتح خفيف لليدين والرجلين، في حالة من الاسترخاء الكامل، وعادة يكون مستيقظاً ومبحلقاً في السماء. و(الشدخ) في العربية (الطرح أرضاً).

– مسدّح: مثل سابقه تقريباً، مع قلب حروفه. وفي العربية: السَّدح: إضجاع الشيء على وجه الأرض.

– مشقرش: الرقاد على الظهر ورفع الركبة اليسرى إلى أعلى ووضع الساق اليمنى فوقها، وعند الإعياء يتغير وضع الرجلين. وتكون اليدان

متشابكة الأصابع تحت مؤخرة الرأس. وهو وضع يعبّر عن السعادة والراحة النفسية، خصوصاً بعد تناول وجبة الغداء أو العشاء، ويكون الفصل صيفاً.

- متمرفق، أو متمروَك: متكئاً على إحدى مرفقيه، أي وضع المرفق على الأرض أو الوسادة وكف اليد أو قبضتها تحت الصدغ. ويكون هذا الوضع عادة عند تجاذب الحديث، أو انتظار كأس من الشاي، وفيها شيء من الوقار وإظهار السيادة. أما (متمروك): نائم على (وركه) أي على جنبه، وقد يستعين بوضع يده تحت خده حفاظاً على التوازن.

- مسنّد: بواسطة إسناد الظهر على الوسادة أو الغراير أو كوم من الرمل، ويكون في حالة يقظة، وربما مستغرقاً في التفكير.

- يجرّش: ينام على ظهره مع ململة متواصلة كما لو كان يرفض القيام بأي عمل. وفي العربية (الجرش)= (حك الشيء الخشن بمثله). والنائم بهذا الوضع كأنما يحك جسمه بالفراش.

- يتكسّل: يمدد جسده وأطرافه، خاصة بعد النوم، دليلاً على الكسل حسب الإعتقاد، والواقع أنها حركة رياضية تمهد للوقوف وممارسة الأعمال.

- يتعرّك: وهي شبيهة للسابقة، وتشير إلى الاحتكاك. ومنها (العراك والمعركة).

- منبطح أو مبطوح: راقد على بطنه، ربما لشعوره بالتعب أو ألم بالظهر، وما عدا ذلك فهو وضع غير لائق بالرجال، إذ ينهر الأب ابنه إذا رآه على ذاك الحال.

- متقرطس: ثني كل أطراف الجسم، ربما من شدة البرد، وعادة يكون ذلك تحت الجرد. (القرطاس في العربية: ضرب من برود مصر).

- متلكمت في جرده، أو متكمكم: في الشتاء عادة، بحيث يثني أطرافه ويلفها بالجرد لشعوره بالبرد، ويغط في نوم عميق عادة. و(الكمكم) في العربية مثل (القمقم).

- مظلل بجرده: في الصيف عادة: حيث يثني أطرافه تحت الجرد، ويثبّت عصاه بين إحدى حواشي الجرد والأرض، محدثاً تجويفاً مثلثاً يشبه بيت الشعر، وذلك لوقايته من أشعة الشمس الحارقة وإفساح المجال لدخول الهواء. وغالباً ما يغط في النوم أثناء القيلولة. وهي عادة الرعاة والمرتحلين في الصحراء والحصّادة..

- مفنّش: يقال: فلان صبح مفنّش، أي راقد بالنوم إلى الضحى. وهو أمر غير مرغوب. وفي العربية: (فنّش الرجل إذا استرخى).

خلاصة الباب الأول:

كان هذا الباب قد خُصّص فصلُه الأول للتعريف بقبائل الصيعان الأربع، وانتمائهم لجدهم الولي الصالح (سيدي امحمد أبو صاع)، وبداية تكوينهم، والمجال الجغرافي الذي كانوا يتجولون فيه باعتبارهم من البدو الرحل، وعلاقتهم ببقية القبائل البدوية داخل الوطن وخارجه، وما صاحب ذلك من روايات شفوية وأقاصيص وأساطير شعبية، أردنا تثبيتها وتدوينها حفاظاً على اندثارها في خضم اهتمامات الأجيال الحالية بتكنولوجيا العصر فيُحرمون من تراث شعبي متنوع صنعه آباؤهم وأجدادهم على مدى القرون الماضية. وحتى لا يقع علينا اللوم –نحن جيل الخضرمة والتوسط–، كان لزاماً علينا نقل هذا الجزء البسيط مما حفظته الذاكرة، لعله يؤدي إلى كتابة تاريخ مستفيض عن أناس تحمّلوا – من أجلنا – قساوة الطبيعة، وشح الموارد المعيشية، وندرة مصادر الثقافة والتعليم، وعدم الاستقرار في مكان معين، والركون للحِل والترحال والتنقل وما انجر عن ذلك من معاناة في سبيل توفير لقمة العيش، بهامات شامخة ورؤوس مرفوعة، ورفض صارخ للهيمنة والخضوع والفشل والاحباط، مقابل الحفاظ على النوع والأصل والحرص على ديمومة الانتماء للوطن.

أما الفصل الثاني فقد خُصّص للظواهر الثقافية الشعبية والظواهر الاجتماعية التي تميز بها الصيعان عن غيرهم من القبائل، وذلك مثل الإكثار من تصغير الأسماء والصفات، واستخدام (البركة والدبوس) في التعامل مع الغير والتفاعل مع الأحداث سلباً وإيجاباً. إضافة إلى شرح الظروف والملابسات التي أدت إلى اشتهار الصيعان بمسألة الخوف من البقرة واقتران اسم جدهم بها، وما

صاحب ذلك من روايات قد تكون حقيقية وقد تكون مفتعلة في ظروف حياتية معينة.

كما اتجه الفصل الثالث إلى لحديث عن تجهيزات البدوي (الصويعي) – الحاملة والمحمولة – في بعض رحلاته الفردية المتنوعة. وكذلك الحديث عن ملابسه، والتي من أهمها (الجرد والكبّوس والسورية والملخة). أما عن تصرفاته فقد أوردنا جزءاً من معجم الألفاظ البدوية الخاصة بهذا الفصل، والتي تعود بالأصالة إلى اللغة العربية الفصحى، كدليل على أصالة لهجة البدو التي جُبلوا على استخدامها في حياتهم العامة والخاصة، وبالتالي حفاظهم على أكبر قدر ممكن من المفردات العربية الأصيلة.

الباب الثاني

الآداب والألعاب والعادات والتقاليد

عندي محاكي ..

يسكّتو اللي باكي ..

على ما طرالي في الزمان وصار ..

(راوي)



الفصل الأول

معجم الألفاظ البدوية العامة

تمهيد:

يستخدم البدو ألفاظاً قد تبدو غريبة عن العربية الفصيحة، وسكان الحضر أكثر الملاحظين لذلك بحكم استخدامهم للمصطلحات المدنية المتأثرة باللغة العربية الفصحى، من جهة، وبلغات شعوب أخرى اختلطوا بها عن طريق التجارة وغيرها، من جهة ثانية، فيبدو لهم اللفظ البدوي مختلفاً. والمتمعن في لهجات البدو يرى عكس ذلك تماماً، فالألفاظ عندهم احتفظت بنقائها وفصاحتها دون تلوث خارجي بسبب بعدهم عن بؤر ذاك التلوث. غير أن تلك الألفاظ لا تحافظ - في كثير من الأحيان - على بنائها ومعناها العربي بالصورة الدقيقة، وذلك لعدة أسباب، منها:

6- التسهيل والتخفيف: وهو استبدال بعض الحروف الثقيلة بحروف أخف، كالهمزة التي تتحول إلى مد ما قبلها أو إلى ياء أو واو، مثل: (بئر= بير)، (غائب= غايب)، (سؤال= سوال)، (رؤوس= روس)..

1- الإبدال والقلب: وهو إبدال بعض الحروف بغيرها، مثل= القاف التي تُستبدل دائماً إلى جيم قاهرية غير معطّشة، والجيم التي تُستبدل أحياناً إلى زاي، مثل: (جازية= زازية)، (جازل= زازل)، (يزّي= يجزي).. وكذلك عدم التفريق بين السين والصاد، مثل: (الرسول= الرصول)، (الأسد= الصيد).. وبين التاء

والطاء، مثل: (تراب= طراب)، (مختار= مخطار).. وبين السين والشين، مثل: (شمس= سمس)..

5- عدم التقيّد بقواعد الإعراب: وهي عادة كل اللهجات مدنيةً كانت أو بدويةً، فلا تفرّق – مثلا – بين المثنى والجمع، والجمع المذكّر والجمع المؤنّث، مثل: (الرجّالة الزوز جو، والنساوين الزوز جو، وكل الرجّالة جو، وكل النساوين جو)، وأحيانا (التريس كلّها جت) بصيغة التأنيث. والخلط بين الإفراد والجمع في المضارع مع ضميري المتكلّم، مثل: (نرحل) التي تعني: (أرحل ونرحل) معاً. وكذلك في المبتدأ والخبر، مثل: (الرجّالة واقفين) بدل (واقفون). إلى جانب عدم الالتزام بالحركات الإعرابية حسب مواقعها في الكلمة والجملة. وغير ذلك من المخالفات النحوية والصرفية.

4- الألفاظ المهجورة والمهملة: وهي ما هجره العرب أو تناسوه، وما أهملوه أصلاً ولم يستعملوه. وكان (الفراهيدي) في كتابه (العين) يُعلّق على الألفاظ التي لا يجدها مستعملةً في كلام العرب بـ(المهملات). وقد نجد عند البدو ألفاظاً مثل (يتنهزر، أي يهدد ويتوعد ويتكلم بصوت عنيف عال) فلا نجد لها مصدراً في المعاجم العربية، فهل نعتبرها من المهملات؟ أما المهجور فقد يصف لك البدوي مكاناً منبسطاً من الأرض بلفظ (لبط)، وإذا بحثت عن مصدره الفصيح فستجده هكذا: (لبط فلان بفلان الأرض لبطاً، أي صرعه صرعاً عنيفاً)، وهي ليست مستعملة في وقتنا الحاضر بهذا المعنى، بقدر ما هي نوع من التطوّر والتحوّل الدلالي للفظ، وهو ما لا يُدرَك إلاّ من خلال الدراسة والتمعن.

3- الأدوات التي لا تزال حاضرة في حياة البدوي: احتفظت معظم الأدوات بأسمائها القديمة، وذلك مثل مكوّنات بيت الشعر التي لا تزال محتفظة بفصاحتها حتى الآن، ناهيك عن كل ما يتعلّق بالتعامل مع الحيوانات التي يربيها البدوي كالإبل والخيل والغنم وغيرها، وكذلك تعامله مع الأرض من حرث وزرع وحصاد..

1- التحريف البسيط في البناء والمعنى: كثير من الألفاظ البدوية تنحرف قليلا عن بنائها ومعناها الأصلي. ففي البناء يقول البدو مثلا: (فلان يفّاوى أو يتفاوى، والمعنى: يقول كلاما قبيحاً أو غير مقبول اجتماعياً، فيقولون عنه: (فلان فمّه فاوي). وأصلها العربي: (تفوّه، يتفوّه) من (فيه = فمه) حيث سقطت الهاء لثقلها، وذلك مثلما حوّل العرب قديما الكلمة الفارسية (إستبره) إلى (إستبرق) فنزل بها القرآن على عربيتها. أمّا الانحراف في المعنى فيقول البدو مثلا: (قرطاس، ويعنون: الخشبة المحفورة التي يدخل فيها عمود بيت الشعر الأوسط)، ولفظ (القرطاس) في العربية يعني (ضرب من البرد المصرية) ولا يعني تلك الخشبة المذكورة التي يسميها ابن منظور: (الأزرار)، بينما نجد (الزرار) عند البدو يعني (المقبض الخشبي الذي تدار به الرحى). إذن فإن كلا اللفظين موجود في العامية والفصحى، ولكن بمعنيين مختلفين.

كان ذلك بعض أسباب مخالفة البدو لأحكام وقواعد وضوابط الكلام العربي الفصيح. فكانوا يتداولون اللهجات فيما بينهم بالطبع والسليقة كما كان يفعل عرب الجاهلية، دون النظر إلى تلك المنهجية التي يعتمدها النحويون في دراساتهم للغة العربية، إلى درجة أن اللفظ قد يختلف في بنائه وتركيبه ومعناه أيضاً

بين القبائل خصوصاً المتباعدة عن بعضها البعض، غير أن ذاك الاختلاف لا يخرج عن إطار الترادف وغزارة الألفاظ عند الجميع، تماما مثلما كانت تختلف على ألسنة طيء وربيعة وهذيل وغيرها من قبائل العرب القديمة.

وقد رأينا – في هذا الباب الذي خصّصناه للآداب الشعبية والممارسات البدوية كالعادات والتقاليد والأنشطة الثقافية المختلفة – أن نمهّد لها بشرح بعض المفردات التي يغلب عليها الطابع البدوي والخصوصية البدوية لتكون واضحة للقارئ كلّما صادفته في سياق فصول هذا الباب. وقد حاولنا بقدر المستطاع البحث عن أصولها في المعاجم العربية مركّزين بالخصوص على ما صنّفه العلاّمة (ابن منظور) في (لسان العرب المحيط) واللغوي (الفراهيدي) في (كتاب العين). ولا ندّعي بأننا استطلعنا كلّ كلام البدو –فهذا أمر عسير علينا– ولكننا انتقينا بعض العيّنات التي رأيناها مناسبة أكثر من غيرها لهذا البحث حتى وإن لم ترد فيه، وذلك على سبيل تعميم الفائدة.

وما دمنا قد خصّصنا هذا البحث للحديث عن قبائل الصيعان، فإن ما سيرد في هذا الفصل لا يخصهم وحدهم، بل يشتركون مع غيرهم في معظم مفرداته. غير أن بعض الألفاظ تُستخدم عندهم أكثر من سواهم فتميزوا بها، وذلك مثل كلمة (النجهة) التي لا يخلو منها حديث الصيعان مهما كان موضوعه، فتنطلق من أفواههم دون ترتيب مسبق حتى وإن كانت في غير محلّها. وبالإضافة لما قدّمنا في نهاية الباب الفائت نتابع شروح هذه الألفاظ المختارة:

أولاً- الأوصاف والنعوت والألقاب والكنايات:

– عُصلُب: شديد وقوي. وفي العربية: العَصلبيّ: الشديد الباقي القوة.

- عَضروط: الجلف، الضخم. وفي العربية: العُضروط: الذي يخدمك بطعام بطنه.

- شمحوط: الطويل من الرجال. وفي العربية: الشُّمحوط: الطويل.

- لنقر (الأنقر): الرجل الشهم الشجاع، كالصقرْ صاحب المنقار القوي.

- معنقر: (الطاقية أو الكبّوس): يضعه الواحد على رأسه مائلا مزهواً ومتفاخراً به. وفي العربية: العُنقُر: أصل القصب ونحوه أول ما ينبت.

- متعفلق: غاضب غضباً شديداً. وفي العربية: العَفلق من الرجال: الضخم.

- مزنهر: مشرق الوجه من شدة الفرح. وفي العربية: المُزَنهِر: شديد النظر جاحظ العين.

- متكوفخ، أو راسه مكفوخ: يشعر بألم أو دوخة في الرأس، ربما من قلة شرب الشاي أو تناول جرعة من النفة، وأحياناً من الحيرة وشدة التركيز. وفي العربية: القَفْخُ: كسرُ الرأس شدخاً. (وفيها إبدال القاف بكاف).

- ساك: الأصل (سيك) وهي اختصار لـ(سيدك)، مثل: ساك فلان←سيك فلان← سيدك فلان. وفي الأصل رُخمت كلمة (سيد) إلى (سي)، مثل (سي فلان) وتقال في المدن والقرى، ثم أضيف لها كاف الخطاب لتناسب أهل البدو.

- باك: وهي اختصار لـ(باباك)، وتقال للرجل الأسمر: باك فلان← باباك فلان.

- أمّك: وتقال للعجوز السمراء، أمّك فلانة.

- فقيرة: وتقال للعجوز المباركة، أي مرابطة، أو ابنة مرابط.

- حدّهم: اسم علم مؤنث، سمُيت هكذا لتكون حدّا بين ما سبقها من إناث وما سيأتي بعدها من ذكور، وهو تفاؤل الأبوين بإنجاب الأولاد بعد عدد من البنات.

- يزّة: اسم علم مؤنث، وهو مثل سابقه، لأن (يزي) تعني (يكفي)= يجزي. (وفيها إبدال الجيم بزاي).

- علاهم: اسم علم مؤنث، وهو مثل سابقه، لتكون (أعلاهم)= أعلاهن.

- دادا: (داداي) يُنادَى بها عادة زوجة الأب أو زوجة العم. ويقول الدكتور محمد بهجت قبيسي أن في التدمرية (تاتاي) ويعتقد أنها تحولت إلى العامية (تيتي) وتعني جدّتي[1]. ويبدو أن فيها شيئاً من المناغاة، لأننا نجد الإنكليز ينادون الأب (دادي)، ولا يوجد فرق كبير في النطق بين الدال والتاء، وكلاهما من الأصوات الانفجارية الأسنانية.

- العيسوقة: صفة للفتاة الطويلة ممشوقة القد. وهي نوع من الشجر. وفي العربية: العوسج: شجر كبير الشوك. العسج: مد العنق عند المشي. (وفيها قلب الجيم قافاً وتُنطق جيماً قاهرية غير معطّشة).

---

[1] قبيسي، د. محمد بهجت: ملامح في فقه اللهجات العربيات، ط2، 2111، دار شمال، دمشق/ سوريا، ص 169.

- لحجل: صفة للإبل: ابن الناقة. وفي العربية: الحَجَل: القبج، (البدو يصفون الناقة بعوجة السيقان، أي القبجاء)، وكذلك في العربية: حَجَل الإبل: أولادها.

- غارز: الناقة إذا قلّ لبنها. وكذلك في العربية.

ثانياً- أسماء الأشياء:

- الزَّلفة: القصعة. وفي العربية: الزَّلفة: الصفحة الممتلئة. وهي من (الزُّلفى=القربى).

- البُرمة: قِدر من الطين يُطهى فيه الطعام. ربما لأن المحتويات تُبرم فيه بواسطة المُغرف. وفي العربية: البُرمة: قِدر من حجارة.

- الكسكاس: قدر ثانوي مثقوب، مصنوع من الطين أيضاً، ثم من الألمونيوم، يُوضع فيه دقيق القمح (المُكسكس) فوق قدر المرق ليصل إليه البخار فينضجه. وليس له أصل في العربية لأن الفعل (كسكس) حكاية صوت لطريقة تجهيز ذاك الدقيق قبل طبخه، وهذه الوجبة لا تُعرف في غير المغرب العربي.

- السّدادة أو القفيلة: شريط من القماش يبلّ بالماء ويوضع بين البُرمة والكسكاس (ليسد) و(يقفل) الفجوة بينهما حتى لا يتسرب البخار إلى الخارج.

- المناصب: ثلاث قطع من الحِجارة تُنصب لرفع القدر مسافة مناسبة فوق النار بقصد مرور الهواء المساعد على ديمومة الاشتعال. وفي العربية تُسمّى: الأثافي، جمع أثفية، وهي حجارة تُنصب للقدر.

- الزُّمّيطة أو الزّمّيتة: دقيق من الشعير المحمّص يسمى (سويقة)، يُعجن ويؤكل دون طهو. ربما الأصل من (زمط) أي: زرط أو زرد أو سرط وصرط. وإذا كانت (زمّيتة) بالتاء، ربما تكون من العربية: الزُّمَّت: أي المتغير لونه. ودقيق الزميتة لونه أسمر مقارنة بدقيق القمح النيئ.

- العميتة: أقلام أو خصلات من الصوف والشعر تُهيأ لغزل الخيوط اللازمة لنسج بيوت الشعر. وكذلك في العربية، حيث يقول ابن منظور: عَمتَ الصوف والوبر يعمته عمتاً، أي لفّ بعضه على بعض مستطيلاً ومستديراً. والعميتة: ما يُغزل.

- الفليج: نسيج من خيوط الصوف والوبر عرضه يربو عن نصف متر وطوله يصل إلى عشرة أمتار، يُخاط الواحد بجانب الآخر ليكوّن بيت الشعر وهي من ثمانية فلجان إلى اثنين وعشرين فليجاً. وفي العربية: الفَليجَةُ: الشُقّة من بيوت الأعراب.

- الطرايق: الطريقة الواحدة عبارة عن قطعة من الفليج تثبت فيها الأعمدة كالركائز والأشرعة الوسطى والجانبية. وفي العربية: الطريقة، وجمعها طرائق: نسيج من صوف أو شعر، تُخيَّط في ملتقى الشقاق، وفيها يكون رؤوس العُمد في بيت الشعر.

- القرطاس: خشبة محفورة تثبت في (طريقة) البيت الوسطى لتحميها من العمود أو الركيزة الرئيسية. وفي العربية: القرطاس: نوع من البرد المصرية. أما تلك الخشبة فتسمى: الأزرار.

- **الشريعة**: العمود الأمامي أو الخلفي الذي يُشرّع البيت.

- **الطُّنُب**: الحبل الذي يشد بيت الشعر إلى الأرض. وفي العربية: الطُّنْب: حبل الخباء.

- **الزازل**: قطعة من الخشب المعقوف تُشد به حبال البيت. وفي العربية: الزاجل: خشبة تُعطف وهي رطبة حتى تصير كالحلقة ثم تُجفف فتُجعل في أطراف الحزم والحبال. وفيها إبدال الجيم بزاي.

- **المطرح**: فراش من المرقوم يُطرح في بيت الشعر، والمرقوم نسيج مطرز بالزخارف، لأن الرقم عند الناسج أو النجّاد تعني الرشم أو الرسم أي الزخرفة.

- **الزريبة**: موضع الحيوان. وهكذا في العربية.

- **الزايلة**: الحيوانات الأليفة. وفي العربية: الزوائل: النجوم لزوالها من المشرق إلى المغرب. والزائلة: كل شيء من الحيوان يزول عن مكانه ولا يستقر فيه.

- **الكتَب**: خشبة مثلّثة توضع على غارب البعير (بين الذروة والرقبة). وهي في العربية: القَتَب: إكاف أو رحل صغير على قدر سنام الجمل. وفيها إبدال القاف بكاف.

- **السّدَلْ**: ظفيرة من الحبال توضع على صدر البعير لتثبيت الأثقال عليه. وفي العربية: السَّدل: الشعر أو الثوب يُسدل سدلاً أو إسدالاً. السَّدْل من الجوهر والدر يطول إلى الصدر.

- الحوية: قطعة طويلة من نسيج الفليج محشوّة بالتبن تطوى لتوضع بين ظهر البعير والقتب. وفي العربية: الحّويّة: كِساء يُحوّى حول سنام البعير ثم يُركب.

- الرِّبق والقِياد والعقال والهجار: وكُلها من قيود الحيوانات. وهي عربية.

- السّماط: جلد حيوان مسموط كالقربة لحمل الماء. وفي العربية: السّمط: السلخ.

- العُكّة: جلد ماعز مسموط كالقربة لحمل الدهان كالسمن. وفي العربية: العُكّة للسمن والشكوة للبن، وهي أصغر من القربة.

- الملخة: قطعة من جلود الإبل تُصنع منها النعال والأخفاف. وفي العربية: الملخ: انتزاع الشيء واستلاله رويدا، كالرطبة من قشرتها واللحمة عن عظمها.

- الشنّة: ما أُهمل من مصنوعات جلدية قديمة. وقد تُطلق على الكبّوس القديم أيضاً. والبعض يسمي الطاقية الجديدة شنّة. وفي العربية: الشنّة: الخَلَق من كل آنية صُنعت من جلد، القربة القديمة اليابسة مثلا.

- اليشفة: أداة حادة من المعدن لها مقبض خشبي تخاط بها الجلود الغليظة. وفي العربية بالإمالة: إشفى.

- لبط: أرض مسطّحة: وفي العربية: لبط فلان بفلان الأرض لبطاً، أي صرعه صَرعاً عنيفاً.

- غوط: مكان كثير الماء والشجر. وكذلك الغوطة في العربية.

- معطن: مورد الماء، وجمعها معاطن. وفي العربية: العَطَنُ للإبل كالوطن للناس، وكذلك المعْطَن. وجمعها أعطان.

- الكاترة: أكوام من التراب توضع كحدود للأراضي، تشبه (الطابية) في المدن. وفي العربية (الكتر) أوسط كل شيء. و(الكترة) في الصحاح: بناء مثل القبة. ويقال: (جبل عظيم الكتر).

- المراغ: مكان يتمرّغ فيه الإبل. وكذلك في العربية.

- الخُصّ: بيت يُبنى بعيدان الأشجار أو جريد النخل. وفي العربية: الخَوصُ: ورق النخل.

- الشنينة: اللبن الحامض يُصب عليه الماء (يشنّن بالماء). وفي العربية: الشّنين: اللبن يُصب عليه الماء.

ثالثاً- بعض ألفاظ الدعاء غير المرغوب فيه:

- النِّجهة: شيء بغيض ومكروه. ومنها الصفة: (منجوه ومنجوهة)، ومنها دعاء بالشر: (يعطيه نجهة). ويقال عند الغضب وعدم الرضا: (هات النجهة أو خوذ النجهة). وفي العربية: النَّجه: الزجر والردع. وفي الحديث: (بعدما نجهها عمر) أي ردّها وانتهرها.

- صقعارة: وهي دعاء بغيض كالنجهة: (يعطيه صقعارة)، وهنا تبدو كما لو كانت كارثة من الكوارث. وفي العربية: الصُّقعُر: الماء المرّ الغليظ.

- صاقعة: وهي كسابقتها (يعطيه صاقعة) : ضربة على الرأس. وفي العربية: الصاقعة كالصاعقة. والصقع: الضرب على الرأس.

- السدّاف: وهو كسابقته (يعطيه سدّاف يقطّع مصارينه): يبدو أنه مرض يصيب الأمعاء. وفي العربية: سدَّفَه: قطعه.

- السقية: وهي كسابقاتها (يعطيه سقية): يبدو أنها مرض يصيب البطن أيضاً. وفي العربية: السَّقي: ماء أصفر يقع في البطن. واستقى الرجل: تقيأ.

- الطحطاح: وهو كسابقاته (يعطيه طحطاح). وفي العربية: طحطح الشيء: فرّقه وكسره إهلاكا.

- اللَّقوة: وهي كسابقاتها (يعطيه لقوة في لسانه). وفي العربية: اللَّقوة: داء يكون في الوجه يعوجّ منه الشدق.

رابعاً: ألفاظ مختلفة:

- الجعرة: الحشمة، من الاحتشام والحياء. ويقال: (فلان لا يتحشم ولا يجعر). وفي العربية: الجَعْرُ: ما يبس في الدّبر من العَذِرة، أو خرج يابساً.

- الطحير: طحر الرجل: بذل الجهد إلى درجة ظهور صوت نفسه. وفي العربية: الطحير: النفس العالي، وهو من الصوت مثل الزحير أو فوقه.

- النّده: ينده الرجل زائلته، أي يحثها على السير. كما ينده ابن المرابط جدّه ويطلب مساعدته، ويقال في الأمثال: (كل واحد ينده على صلاّح بلاده). وفي العربية: النّده: الزَّجْر، ويقال: نده الإبل: ساقها وجمعها. كما يقال: نده الرجل ينده ندهاً: إذا صوّت.

- تزنكيل: رفع الأثقال، والزناكيل: الأثقال، ويقال :(فلان يزنكل في الغراير)، أي يحملها وهي أثقل مما يحتمل، فيئن تحتها ولا يظهر طول جسمه المعتاد. وفي العربية: الزونكل: القصير.

- التمحيط: مثلا مد فلجان بيت الشعر الجديدة على الأرض لخياطتها، أي تخليصها وتسليكها من طياتها. وفي العربية: امتحط سيفه: سلّه. ومحط الوتر: مررّ عليه الأصابع ليصلحه.

- بُرّاش: لون من الغناء تؤديه النساء. وفي العربية: أرض برشاء: كثيرة النبت مختلف ألوانه. (وغناء النساء فيه تنوّع وتلوّن).

- النشقّ: يقال: (فلان يناشق، على أهله وأقاربه) أي يبحث عنهم إن كانوا بعيدين، ويزورهم دائما إن كانوا قريبين، أي تمسك بهم. وفي العربية يقالُ: نشِق فلان في حبالي: أي نشِب وعلِق وارتبق.

- التحويش: يحوش الغنم: يجمعها. وفي العربية: احتوش القوم فلانا: جعلوه وسطهم. والتحويش: التحويل.

- التمحيش، أو المحش: إدخال ما بقي من الحطب غير المشتعل إلى وسط النار. وفي العربية: يقال محشته النار محشا.

- الغُوف: إشعال النار في (شعّالة) ورميها عالياً في الظلام ليستدل بها التائه ليلاً ويعرف مكان النجع ويعود إليه. وفي العربية: تعوّف الأسد إذا التمس فريسته ليلاً.

- التهرقيل: هرقل الواحد إذا ترهل بعد سمن. وفي العربية: امرأة هِركَولة: ذات فخذين وجسم وعجز. ورجل هُراكل: جسيم ضخم.

- التبهنيس: إظهار الطيبة وإبطان الخبث حتى بلوغ الهدف. وفي العربية: يتبهنس الأسد في مشيه: يتبختر، وهو نعت للأسد خاصة.

- النغرة: عدم احتمال الغلبة، وعدم الاعتراف بها إلى درجة الغضب. كما تعني عدم احتمال الدغدغة. الأولى في العربية: نَغَرتِ القِدر: غَلَت. والثانية: نَغَرتِ الناقة: إذا ضيمتَ مؤخرها فمضت.

خامساً- أفعال:

- يقنتر: يزيد في الكلام ويجعله معسولاً ومشوقاً ومحبباً لنفس السامع ويرفع وتيرة انتباهه. ربما يكون الأصل: يقنطر بالطاء. ففي العربية: المقنطرة: المضعّفة. قنطر الرجل: إذا ترك البدو وسكن المدينة.

- يوذري: يزيد في الكلام ويكون غير مقبول لخلوّه من الحقيقة، وهو أقرب للهذيان من الكذب. وفي العربية: الوذر: تقطيع اللحم قطعاً صغيرة. والواذر: التارك.

- ينزر: ينزر البدوي عادة على حيواناته، وأحياناً على أهل بيته إذا غضب منهم، وذلك بعبارات عنيفة ومختصرة. وفي العربية: نزر فلانٌ الرجلَ: إذا احتقره واستقلّه، لأن النزر في الأصل: القليل التافه.

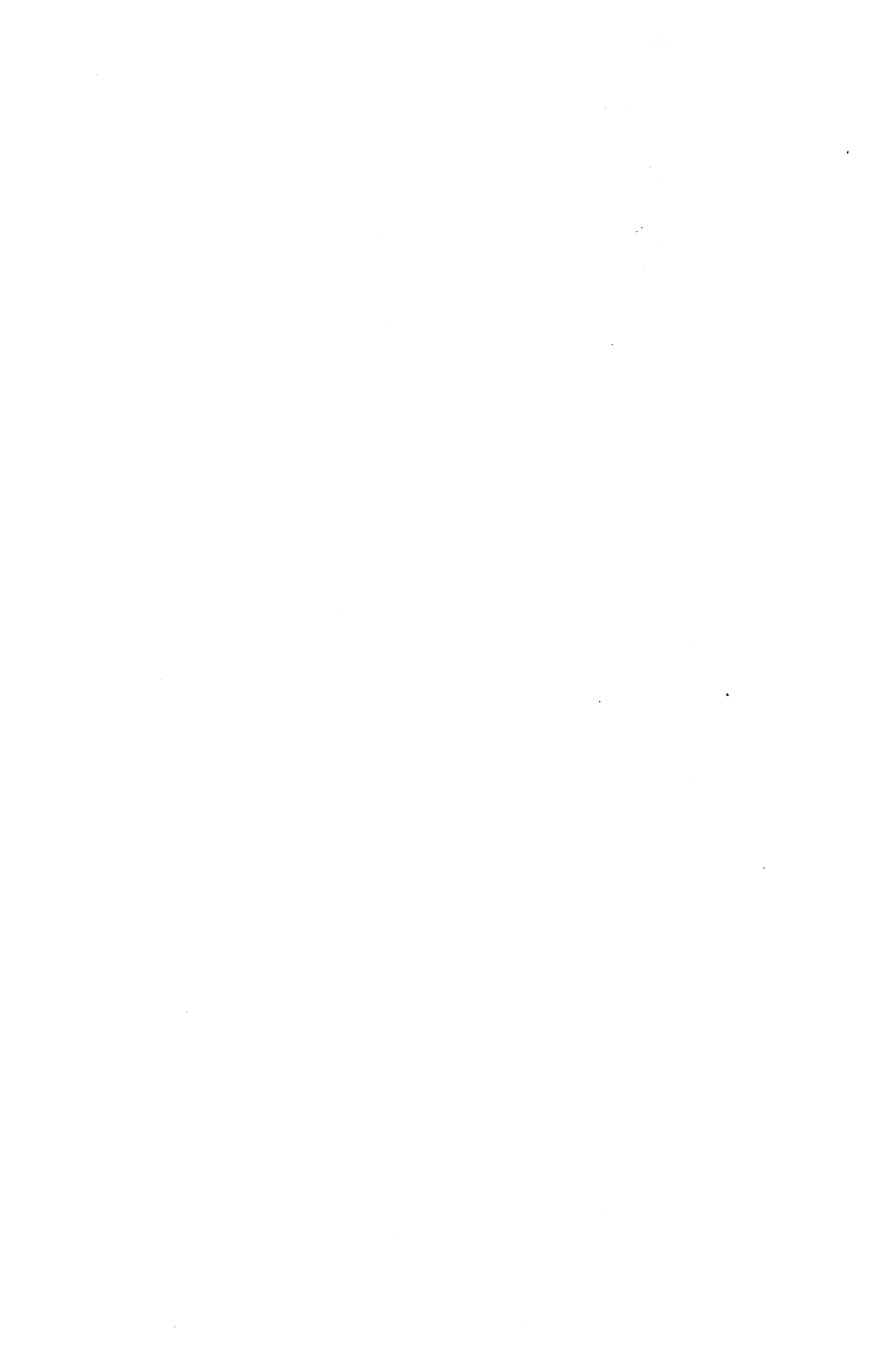
– يكُش: يطلق كلاماً مختصراً عند الغضب، وربما بصوت عال. وهي مثل ينزر تقريباً. وفي العربية: كش، يكش كشاً أو كشيشاً، مثل كشيش الأفعى: صوتها من جلدها.

– ينتّ: مثل ينزر ويكش، أي يستخدم عبارات الغضب. وفي العربية: نتّ منخره من الغضب: انتفخ.

– ينتوَر: يطلق كلاماً غاضباً مع انتفاضة في حركة الجسم للتعبير عن الغضب أو الرفض الصارخ للأمر. وفي العربية: النتر: الجذب بقوة. والنترة: الطعنة النافذة.

– يسخّف: يطلب الشيء باستكانة وكلام لين لجلب الشفقة عليه. وفي العربية: كل ما رقّ فقد سَخَف. وسَخَفةُ الجوع (بالفتح): رقتُه وهزالُه. أما بالضم فهي رقة العقل.

– يزرّ: وهو فعل مرادف لـ(يلز ويطرد)، أي يضغط على الشيء ليبعده عنه أو الحصول عليه، مثل الحيوانات التي يرعاها أو يطاردها ليصطادها. وفي العربية: الزَّر: الضغط.



الفصل الثاني
الأدب الشعبي

تمهيد:

منذ سقوط الدويلات التي تأسست في المغرب العربي وخروج العرب من الأندلس والحصار الذي فرضه الفرنجة على الدين الإسلامي حتى لا يمتد إلى العمق الأفريقي ولا يعود إلى الساحل الأوروبي، بدأت العلوم والثقافة عموماً تنحدر وتتقهقر، خصوصاً في فترة سيطرة الدولة العثمانية، حيث كانت البلدان العربية خاضعةً للقوة الحاكمة ومظهرها السياسي المتمثل في الوالي والفرقة العسكرية وجامع الضرائب وسك العملة باسم الحاكم والدعوة له على المنابر[1]، وما تلاها من استعمار أوروبي للوطن العربي وأفريقيا. فكثر الجهل وعمّت الأمية، ولم يبق أمام المتعطشين للعلم في ليبيا غير الأزهر الشريف في مصر والزيتونة في تونس، أو بعض المدارس التي أنشأها العثمانيون، أو الزوايا والكتاتيب والأربطة التي اقتصرت على تحفيظ القرآن الكريم. وكلّها مجتمعة لم تف باحتياجات كل الناس من العلم والمعرفة. وهذا الوضع ساهم في انتشار الأمية خصوصاً في الأرياف والبوادي والصحاري البعيدة عن العمران. فعمّت الثقافة الشعبية غير المستندة للأصول والمصادر والمراجع العلمية المعترف بها، وركنت لما عُرف بالكتب الصفراء التي أفرزتها تلك المرحلة، والتي اعتمدت في الغالب على الأساطير والخرافات. وكان أنصاف وأشباه المتعلمين يستمدون منها ثقافتهم وينقلونها إلى

[1] **الدسوقي**، د. عاصم: عوامل الوحدة والتفكك العربي، ط3، ؟، مؤسسة ابن خلدون،؟، منشورات معهد البحوث والدراسات العربية، القاهرة، ص49.

غيرهم كما لو كانت أصولاً علميةً، حتى آلت مع الزمن إلى انحرافات شملت كافة مناحي الحياة لاسيما العقيدة الإسلامية، فتراجعت عدة مفاهيم إلى المستوى المتدني الذي كان سائداً زمن الجاهلية الأولى.

وإلى جانب انشغال الدولة العثمانية بصراعاتها المتكررة مع الغرب، وحاجتها المتزايدة للمال، والتركيز فقط على جمع الضرائب من رعاياها في الوطن العربي أكثر من تركيزها على الجوانب العلمية والثقافية إلاّ نادرا. إضافة إلى ما فرضه الاستعمار الأوروبي على الإنسان العربي والأفريقي من تغريب وتجهيل.. إلى جانب كل ذلك كانت الأحوال الاقتصادية والاجتماعية في غاية السوء، بسبب القحط والجفاف الحاصل بين الحين والحين. فانتشر الفقر وكثرت الأوبئة، مما ساعد على ارتفاع مؤشر الجهل والأمية وانحدر المستوى الثقافي والعلمي إلى الصفر. إذ لم يعد أمام البدو من سبيل غير البحث عن لقمة العيش، فكانت الهجرة والانتقال من مكان إلى مكان من شيم تلك الأيام هروباً من الموت جوعاً وعطشاً.

هذا الوضع بدأ تقريباً مع سقوط غرناطة في نهاية القرن الثالث عشر للميلاد، وأخذ في الانحدار تدريجياً إلى أن بلغ مداه عقب الحرب العالمية الثانية وخروج أوروبا عسكرياً من الوطن العربي وأفريقيا، وتأسيس المنظمات الدولية التي ألقيت على عاتقها مسؤولية تنظيم العلاقات بين الشعوب، حيث كان ذلك في منتصف القرن العشرين الميلادي. وهذا يعني أن زمن الانحطاط دام أكثر من ستة قرون، استرجع الوطن العربي على إثرها أنفاسه، ولكن بعد أن امتلكت أوروبا زمام العلوم وسيطرت عليها، وصار العرب مستوردين للتقنية الغربية بعدما كانوا مصدّرين

للعلم والمعرفة في زمن كانت فيه أوروبا غارقة في غياهب الجهل والأمية. هكذا هو الدهر يوم لك ويوم عليك.

تلك الظروف القاسية فرضت الهجرة على كثير من أهالي الأندلس والمغرب الأقصى، ففروا بدينهم في هجرة عكسية نحو الشرق، واستقروا بأوطانهم الجديدة على طول المغرب العربي وعرضه، فعرفوا بأولياء الله الصالحين والأشراف والمرابطين، مكوّنين سلالات وعائلات، تزايدت مع الوقت لتصير قبائل كبيرة عمّرت المكان واشتهرت فيه. من بين تلك القبائل التي تشكلت عقب تلك الهجرات العكسية كانت قبائل الصيعان التي شغلت بَوادي سهل الجفارة الممتد بين (ليبيا وتونس) حالياً.

نعود إلى أحوال البدو - خصوصاً الصيعان - في تلك الأزمان، لنرى كيف كانت حياتهم وطريقة توحشهم في الصحاري بعيداً عن المدن والعمران، وكيف تأثروا بتلك الظروف القاسية، فلا نجد فيهم غير الصلابة والصرامة وقوة العزيمة والشكيمة، محافظين ما استطاعوا على دينهم الإسلامي الحنيف وقيم عروبتهم السمحة. ورغم القحط والجفاف قاوموا الجوع والعطش بقدر ما قاوموا الجهل، بإمكانيات قد تنعدم في كثير من الأحيان. صحيح أنهم بدو رحّل، وصحيح أنهم كانوا يعيشون في بادية جافة وشظف من العيش، وصحيح أنهم كانوا يغيرون على بعضهم البعض مدفوعين بغريزة البقاء والحفاظ على الحياة مهما كانت الوسائل. ولكن لا يمكننا أن ننعتهم بالجهل المطلق، كما فعل شيخنا الجليل الطاهر الزاوي[1]، فالجهل كان عامّاً وشاملاً ولم يقتصر على البدو حتى وإن زادت

[1] وذلك في كتابه بعنوان: (مُعجم القبائل الليبية) بالصفحة رقم 119.

نسبته عندهم نتيجة المكان وطرق العيش. ولكن كانت لهم ثقافتهم الشعبية وآدابهم البدوية وعلومهم البدائية وأفكارهم واجتهاداتهم البسيطة، التي تحدّوا بها قسوة الطبيعة، فاستطاعوا من خلالها البقاءَ كل هذه القرون الطويلة.

صحيح أن أجداد الصيعان الأُول لم يتركوا كتباً في الفقه والعلوم ولا دواوين شعر منظومة بالفصحى المتقعرة، ولكنهم رسّخوا في ذاكرة أبنائهم وأحفادهم أدباً راقياً يصف الطبيعة البدوية والأخلاق العربية والعقائد الدينية بأروع التعابير اللفظية وأرقى الأساليب البلاغية، بلهجة حافظت على كثير من المفردات العربية الأصيلة بعيداً عن التشريق والتغريب اللذان فُرضا على اللغة العربية نفسها في المدن والحضر[1]. وسنحاول في هذا الباب تقديم عيّنات انتقيناها من الأدب البدوي الذي ساهم فيه الصيعان الأوائل بنصيب لا يستهان به، بل كانت لهم فيه خصوصيات وظواهر أدبية قد لا توجد عند غيرهم. وقد استقيت بعض العينات التالية من والدي (رحمه الله) الذي كان متحدثاً بارعاً وقاصاً شعبياً معروفاً بين نظرائه وجلسائه.

أولا- النثر:

أ- السهر والسمر:

البدو لا يسهرون طويلاً، فالسهرة عندهم تمتد بين صلاة المغرب وصلاة العشاء، وإذا تجاوزت ذلك تعتبر أرقاً لا يطاق أو مرضاً يجب معالجته. ولذلك

[1] وهذا ليس بالأمر الغريب، فالعرب عندما أرادوا حصر مفردات لغتهم التجأوا إلى البدو يأخذون من أفواههم فصاحة العربية التي لم تتأثر بالعجم فرسا وفرنجة. وعندما أراد الأتراك الرجوع إلى لغتهم الأصلية التجأوا أيضا إلى سكان الأرياف التي لم تتأثر لهجاتهم بلغات الشعوب التي انضمت للإمبراطورية العثمانية.

أسباب: لأنهم يستيقظون مبكراً، فيقومون بجمع الحطب وإيقاد النار وطحن الحبوب وإعداد الدقيق وطهي العجائن وتحضير الشاي.. أو يجهّزون رواحلهم إذا كانوا في فصل الرحيل، أو يتجهون للحصاد إذا كان الزمن صيفاً، أو لجز أصواف أغنامهم إذا كان الفصل ربيعاً.. وهذه الأعمال وغيرها تتطلب بذل جهود بدنية وعقلية ضخمة لا يجدون لها علاجاً غير النوم مبكراً والاستيقاظ مبكراً. وفي فصل الشتاء، يعتبرون – مثل غيرهم – أن لياليه طويلةٌ، فيحاولون تقصيرها بالسهر، ويسمّون ذلك (تقصير الليل) أو (سهرية). فلا يجدون وسيلة لذلك غير التحولق حول كبير العائلة، والتدثر بالأغطية الثقيلة، كل في مكانه الذي سينام فيه، ويصغون لحكايات الوالد أو الوالدة، فيطيب نوم الصغار قبل الكبار، ويكثر بينهم التثاؤب والاستسلام للنوم تدريجياً قبل أن يفرغ الراوي من روايته، حتى أن بعضهم يسأل – في الغد – عن نهاية القصة أو ما فاته من مقاطع مثيرة فيها، أو يلحّ على إعادتها في الليلة القادمة.

وتتنوع السهرة – حسب الثقافة الشعبية لرب الأسرة ورصيده الاجتماعي– بين العديد من العناصر والفقرات، فقد تتجمع –بعضها أو معظمها– في سهرة واحدة، أو تتوزع بين عدة سهرات، أو تعاد – في كل مرة – بأساليب ومواضيع مغايرة ومختلفة عن سابقتها. فهناك القصص الصغيرة ذات المضمون التربوي كالمحتوية على الأمثال والحكم والمواعظ. وهناك القصص الواقعية المستمدة من التجارب الشخصية والسير الذاتية. وهناك الروايات الخيالية الطويلة ذوات الفصول الدرامية المشوقة. وهناك الأحاجي والمسابقات الفكرية المبسطة. وهناك

النوادر والطرائف المسلية. وهناك الحوارات القصيرة المصنوعة خصيصاً لأجل الإضحاك..

هذا على مستوى الأسرة النواة التي لا تتجاوز الجدين والأبوين وأبنائهم وأحفادهم. أما على مستوى الأسرة الممتدة، فقد ترتفع وتيرة الجدية في تناول تلك العناصر، ويزداد الحرص على أدائها، ويظهر التنافس بين العارفين والمجرّبين والحافظين والمحدّثين والرواة والمثقفين شعبياً، وكذلك بين السائلين والمجيبين والملقين الألغاز والمحللين لها، مما يجعل السهرة أكثر تشويقاً وأطول أمداً، مع احترام الزمن المخصص للسهرة صيفاً كان ذلك أو شتاءً، لأن البدو يحترمون جداً الاستيقاظ مبكراً، فيؤثر ذلك على زمن السهر شتاءً أو السمر صيفاً كما ذُكر.

ب- الأسلوب الأدبي لسرد الرواية الشعبية (الخرّافة):

داخل الأسرة النواة يطلب الصغار من الأم أو الجدة أن تسرد لهم حكاية أو تحاجيهم أحجية. فإذا كانت الأم في ضائقة نفسية معينة، ربما بسبب المتاعب اليومية أو بسبب ضغوط زوجها عليها، فتقول: (بالله عليكم، علاش نحكيلكم، على هم قلبي؟)، فيرد الأبناء: (حتى على هم قلبك). فتسرد لهم قصة عادة ما تكون مؤلمة وتكون هي بطلتها تلميحاً. أما إذا كانت طيبة النفس، فتروي لهم قصصاً قصيرةً تكون في العادة معروفةً لدى أطفالها، مثل (علي بالسلطان والأربعين قُطعي) أي أربعون سارقاً (في الشرق العربي يعرفون بالأربعين حرامي)، و(الغولة) أي شخصية خرافية مخيفة، و(عزوزة الستوت، الله لا يرحمها نهار اللي تموت، تسبّح وتضبّح وتخطف سنون الكلب وهو ينبح) أي عجوز شمطاء شريرة، و(عيشة بنت الحوات) أي عائشة ابنة صياد البحر (وقد أختير البحر هنا لغرابته بالنسبة

لأطفال البدو)، وغيرها من القصص القصيرة التي ما تكاد تنتهي حتى يغطّ الأطفالُ في نوم عميق. وفي كلا الحالتين تستهل الأم قصتها بكلمة معهودة: (يا من حجاتك) أو (يا بن حجاتك) فيردّ الأطفال جملة حفظوها عن ظهر قلب: (يطول حياتك ويرحم الأم اللي جاباتك) وهي ألفاظ قد تعني: (يا من سأحاجيه) أو (يا ابن التي ستحاجيك)، و(الأم اللي جاباتك) أي التي ولدتك. وقد تستخدم عدة تعابير تزيد القصة جمالاً وتشويقاً، مثل: (شمموها التفاح اللي يفوح ويرد الروح للروح ويرد الشايب شباب)، وغيرها. وتنهي قصتها بعبارة معروفة: (هابا هابا، وكل عام تجينا صابة)، فيردّ عليها من بقي مستيقظا: (يسلّم أفّيمك ويعطيك صحيحتك)، ولفظ (هابا هابا) إشارة لنهاية القصة، وفيها شيء من التهليل والتفاؤل والاستبشار، أما (يسلّم أفّيمك) فهي بمعنى (لا فُضّ فوك)، و(يعطيك صحيحتك) تعني: متعك الله بالصحة.

أما في (ميعاد التريس) أي مجلس الرجال، أو الأسرة الممتدة الكبيرة، فيكون الكبار من الرجال أكثر سيطرة على السهرة وفقراتها. ويختلف الأسلوب السردي عند الرجل عن المرأة بحكم معرفته للأمور وخبرته الطويلة في المجالات. وقد يكون بعضُهم مثقفاً بثقافة عصره أو شبه مثقف أو سامعاً وناقلاً عن غيره أو مدّعٍ للثقافة، وجميعهم يستمد قصصه من بعض الكتب القديمة مثل قصص الأنبياء، وسير الشخصيات الإسلامية وأولياء الله الصالحين، والمعارك التي تزخر بها أيام العرب في الجاهلية والغزوات والفتوحات في الإسلام، وتغريبة بني سُليم وبني هلال، والقصص الخيالية المستوحاة من كتاب ألف ليلة وليلة.. وجميعها قصص تواترت بين الناس وتناولتها ألسن العامة بالتحريف والمبالغة والزيادة

والنقصان وعدم فهم كثير من المضامين، فصارت مع الزمن قصصاً شعبيةً يتداولها الأفراد لاسيما غير المتعلمين منهم. لهذا السبب نجد بعضهم يتخذ أسلوباً سردياً شعبياً ممزوجاً بألفاظ يعتقد أنها فصيحةٌ، بل ويتحايل عليها بجعلها في تركيبات منمقة تقنع السامع الذي يجهلها أصلاً فيعتبرها شيئاً راقياً صعب المنال. ولكن رغم كل ذلك استطاع أولائك الرواة و(الحكواتية) أن يصنعوا أسلوباً أدبياً شعبياً محبباً للنفس، كان في زمانهم بمثابة شمعة في ظلام دامس. فقد يُفصح أحدهم عن مكامن ثقافته وتجربته الشخصية فيقول لك شعراً:

(عندي سهاري.. كيف لوح القاري.. ودّك انّزلهم سطار سطار)، (وعندي محاكي.. يسكّتوا اللي باكي.. على ما طرالي في الزمان وصار).

وهو يفتخر بمخزون ذاكرته، الذي قد يغطّي سهرات طويلة، على هيئة سطور كالتي تُخط على الألواح أو على صفحات الكتب، ويؤكد أن حكاياته وتجاربه المشوقة تجعل الصبي الباكي يصمت وينصت لها بإصغاء!

يستهلّ القاصُّ –عادة– حديثه بالعبارة المعهودة: (يا سادة، يا مادة، يبيتنا ويبيتكم على الشهادة)، ولفظ (مادة) رغم أن فيها حفاظاً على السجع، إلاّ أن (ماد) في بعض لهجات التوارق تعني الأبناء وهم امتداد لآبائهم، إذن فالمعنى قد يكون (يا سادة يا أبناء آبائكم)، والله أعلم. أما (يبيتنا ويبيتكم على الشهادة) فهي واضحة، أي أنها تعنى البيات والإصباح على شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله. وإذا كانت القصة متعلقةً بأمير أو حاكم، يقول القاصّ مثلا: (كان فيه سلطان، وما سلطان غير الله، واللي عليه ذنب يقول: أستغفر الله)، فيردّد السامعون بصوت واحد: (أستغفر الله)، ويظهر في هذا الأسلوب رمزٌ واضحٌ يشير

إلى رفض العامة لتصرفات السلاطين الطغاة والحكّام القساة، حتى أن الراوي يعتبر ذلك ذنباً يقترفونه ضد محكوميهم فينزع من أيديهم صولجان السلطنة والتسلط ويرجع الحكم لله وحده، ويلتمس لهم المغفرة من بارئهم.

ويتخلل الحديث - بعد كل فقرة أو بضعة جمل - عبارات باتت معهودةً في الأسلوب السردي الشعبي، مثل: (يا سيدي بن السِّيد، يا مرحوم الوالدين)، و(الحاصل يا سِيدي)، و(الحاصل معناها)، و(قال هكي يا سِيدي).. وغيرها من عبارات التسيّد واحترام السامعين، وهو أسلوب يرون فيه شد الانتباه ودغدغة مشاعر الحاضرين. وإذا رأى الراوي في القصة حديثاً مطولاً لا يفيد القصة يستعيض عنه بألفاظ مختصرة، مثل: (طرالها جرالها) أي (طرأ لها وجرى لها). وإذا أراد التعبير عن مدة طويلة كالبعد الزمني بين ميلاد طفل وتولّيه منصباً اجتماعياً مرموقاً عند كبره، يقول: (وبرّ يا زمان وتعالى يا زمان..). وعند رجوعه إلى مشهد بقيت أحداثه معلّقة، يقول: (ويرجع علمنا وخبرنا إلى كذا) أي (عَودٌ على بدء). أما إذا صادفته أوصافٌ قبيحةٌ لأحد أبطال القصة، فلا يذكرها احتراماً للسامعين، ويعبّر عنها بألفاظ يعرف مقاصدها الجميع، مثل: (صَفته من نَعته من حِلّه من تُركه من نْباته). وإذا لاحظ جموداً أو عدمَ اهتمام السامعين بما يقول بسبب الإعياء والسُّهاد أو عدم استيعاب بعض المواقف في القصة، يرفع صوته قائلا: (وحّدوا الله) فيرد الجميع بعبارة واحدة: (لا إله إلا الله) مما يعطي دفعةً جديدةً للقصة ويبث اليقظة في عيون الساهرين.

وفي المواقف المشوّقة قد يصف الراوي خروج بطل القصة إلى مغامرة معينة فيقول: (.. ودار زاده وزوّاده، وما يشق على قلبه وفّاده، وخش بلاد الناس ما

هي بلاده) ولفظ (أفّاده) في الأصل (فؤاده) والمعنى (جوفه) أي ما يشق به فطره ويقتات منه، و(خش) أي (دخل). ومبالغةً في المسافات المقطوعة وتعبيراً عن طول المدة التي استغرقتها الرحلة، يقول: (يعمّر بلاد ويخلي بلاد، وما يعمّرها ويخليها كان الكريم الجوّاد)، و(يمشي بالنهار ويبات بالليل)، و(.. لين وصل لبر لا فيه طيرن يطير، ولا فارسن يسير) و(لين) أي (حتى، أو إلى أن)، والنون المضافة لـ(طيرن وفارسن) فهي بقصد إثبات التنوين دون معرفة أي نوع من التنوين يجب أن يكون عليه اللفظ. وقد يصادف البطلُ في رحلته تلك جيشاً عرمرماً، فيعبّر عنه الراوي بالوصف: (ورِي غبّيري مغبّر، وتحت الغبّيري مية فارس، وكل فارس عباره مية فارس) أي كل فارس عبارة عن مائة فارس، أما لفظ (ري) يعني رأى. ولكن البطل تغلب عليهم جميعاً، خصوصاً إذا كان شخصيةً إسلاميةً، فيقال فيه: (وما كانش من العاكزين) ربما لم يكن من الواهنين المتكئين على العكاز دليلا على حيويته ونشاطه وشجاعته، أو ربما تكون (العاكزين) أصلها (عاجزين) نُطقت بجيم قاهرية غير معطّشة. ويواصل حديثه: (.. وخش عليهم بالتهليل والتكبير والصلاة على النبي البشير)، (وما تشبح غير السيوف تقدح في النار والزنايز مشدخة يمين ويسار)، و(الزنائز) أصلها (الجنائز) أي الجثث. و(ما قعد منهن غير البعيد غادي) أي لم يبق منهم إلا القليل. أو (قالوا بالحمي يا ستار) أي طلبوا الحماية والستر، بمعنى (هربوا). وقد يضيف أحياناً: (وما خلّوا وراهم غير غبرتهم)، أي لم يتركوا وراءهم غير غبار خيولهم.

وتختم القصة بعدة عبارات قد تختلف باختلاف أساليب الرواة، فمنهم من يقول: (ونختم كلامي بالصلاة على نبينا، رسول الله اللي يشفع فينا). وآخر يقول:

(وهذا ما عندي خبرتكم بيه، والله والرسول يعلم) أي (أعلم). وقد يكتفي غيره بالقول: (والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته). إلا أن البعض يصر على قول: (هابا، هابا، وكل عام تجينا صابة) رغم أنها نسائية أكثر منها رجالية.

ج- الأحاجي (خرّاف السمي):

الأحجية هي لعبة أو أغلوطة يتعاطاها الناس فيما بينهم. وعُرفت عند العامة بـ(الخبو) أو (خُرّاف السمي= الأسماء والتسمية)، حيث يقدّم السائل لغزاً في صورة جملة أو مجموعة جمل مسجوعة (خرّافة)، ويطلب من الحاضرين الكشف عن ذاك الشيء وتسميته (السمي). وهي بمثابة مسابقة لاختبار الذكاء ووسيلة لاكتساب المعلومات، علاوة على أنها لعبة مسلية ومضحكة في آن واحد، حيث تتخللها فقرةٌ غير متوقعّة أحياناً من قبل الحاضرين، خصوصاً إذا كان السائلُ ماهراً في مثل هذه الألعاب، فيوجِّه إلى العاجز عن الإجابة سيلاً من عبارات الاستهزاء به، لذلك يحرص الجميعُ على بذل ما استطاعوا من جهد للتوصل إلى الحل تجنباً لتلك العبارات اللاذعة.

مثلا: يقول السائل: (هاوينه هاوينه، تحت الوطى قالب عينه)، (هاوينه= ها أين هو) أي (يوجد هناك) و(الوطى= الأرض). فيردد السامع سؤالاً معهوداً: (حاشي والاّ ماشي؟) أي (هل هو جماد أو حيوان؟). فيجيبه السائل: (ماشي)، أي أن الشيء المطلوب تسميته لا بد أن يكون إما حيواناً أو إنساناً، فيستبعد السامع كل الجوامد، ويطلق العنان لتفكيره في التعرف على هذا الذي (يقلب عينه) تحت الأرض. وعندما يعلن عجزه عن إيجاد الحل، يطلب منه السائل أن (يعطيه بلاد)

أي أن يهديه مدينةً معينة. فيجيب السامع: (أعطيك مدينة كذا). هنا يسترسل السائل في سرد قصة لها أول وليس لها آخر، حيث يقول:

(يا مدينة كذا، خيرك ليّ وشرّك لأماليك [أهلك]، نقلبك على عراك [جمع عروة]، حاشى فقراك [أولياء الله الصالحون]، زبلك وكذا! [زبالتك وقذارتك] على خشم من اعطاك [على أنف من أهداك]، نمشي شيط ونجي شيط [شوط ذهاباً وشوط إياباً]، ونكسّر عليك مية وميتين مشغيط [مائة ومائتين سوطا]، نمشي طق ونجي طق [مسافة بعيدة والعودة]، ونكسّر عليك مية وميتين مطرق [عصا غليظة]..).

ولا يتوقف حتى يملّ السامع، وربما يغضب إذا كان شديد الحساسية أو سريع الغضب. عندها ينطق السائل بالحل قائلا: (على المسمّي: جربوع).

وهناك العديد من مثل هذه الأحاجي التي تتنوع بين السهلة الموجهّة للصغار والصعبة الموجهّة للكبار، وربما تختلف أيضا بين الموجهّة للرجال والموجهّة للنساء. وهذه بعض الأمثلة:

(ملوي فوق ملوي، حتى من ذيله لاويه.. يبرك على الخير بصدره، لا ياكل لا يشبع بيه)، وحلّها: (الطبق) المصنوع من حبل ملوي حلزونيا، فيغطي قصعة الطعام ولا ينال منه شيئا.

(طار طار مع الخطّار.. جناحه سود وقلبه نار)، وحلّها: (المقرون) وهو نوع من البنادق ذو فوهتين (جناحين) وفي جوفهما البارود (نار)، ويرفعها الرجال (الخطّار) الفرسان ويلوّحون بها في الهواء (طائرة) أثناء توجههم إلى أرض القتال.

(عبد الصمد قال كلمات واصنطو يا شهودي.. بعيني ريت الأنثى مسلم والذكر يهودي)، وفيها استفزاز للمشاعر والعواطف الدينية، إلا أن حلّها يلطف الأجواء: (السبت والجمعة).

(كانك قاري وفهيم وتقرى حروف المتخبّي.. شنهو إللي في بنادم ما خلقاش ربّي)، (شنهو)= ما هو، و(بنادم)= ابن آدم. وحلّها: (الوشام) أي الوشم الذي يُرسم في وجوه النساء وأيدي الرجال، وهو ليس مخلوقاً فيهم.

(على شجرة الهل، واعرافها المستقيمة.. ثلاثة في الظل، واثنين في السمس ديما)، وحلّها: صلوات الصبح والمغرب والعشاء في (الظل) أي ليلاً، وصلاتا الظهر والعصر في (الشمس) أي نهاراً.

(عشرة بيض روسهم.. وعشرة بيض خلاص، وثمانية بسراويلهم.. واثنين سود طلاس). (خلاص): أي كاملة. و(طلاس): كاملة السواد. وحلّها: الشهر القمري.

د- الأغلوطة:

إلى جانب (خراف السمي) هناك (الرُبّاطة) بضم الراء وتشديد الباء، وهي فقرة أخرى جُعلت من أجل الإضحاك والتسلية، ولكنها تُعلّم الأطفال نطق الكلمات الصعبة والعبارات والتركيبات المتجانسة والمسجوعة. وهي أيضاً مستويات، فمنها ما يحتوي على جملة صغيرة يجب إعادتها بسرعة عدة مرّات، ومنها ما يحتوي على جملة طويلة ومعقّدة تعاد مرّة واحدة أو عدّة مرّات. وهذه بعض الأمثلة:

(كلب أبقع حبله حلفي)[1]: تعاد عدة مرات.

(جمل الشيخ، يمشي ويطيح، شق السبخة، بشبكة شيح): تعاد عدة مرات.

(نرقى نخلة، نحدّر نخلة، من كل نخلة نعبي مخلة)[2]: تعاد عدة مرات.

(حولي هذا خذاه هذا، لا راه هذا ولا هذا، لوكان راه هذا وإلا هذا لقال هذا على هذا، حلف هذا، حنث هذا، قال هذا حولي هذا خذاه هذا)[3]: تعاد مرّة واحدة.

(في يدي رمّانة، وفي يد أمّي رمّانة، احمارت نوارة رمّانتي، واحمارت نوارة رمّانة أمّي، ما احمر نوارة رمّانتي، والاّ نوّارة رمّانة أمّي): تعاد مرّة واحدة.

(يا مولى القاض والقضقاض واليشفة والسيف والجلم والمقراض، اعطيني قاضك وقضقاضك ويشفتك وسيفك وجلمك ومقراضك، حتى يجيني قاضي وقضقاضي ويشفتي وسيفي وجلمي ومقراضي، نردلك قاضك وقضقاضك ويشفتك وسيفك وجلمك ومقراضك، لا يبقى عليّ لا قاض ولا قضقاض ولا يشفة ولا سيف ولا جلم ولا مقراض)[4]: تعاد مرة واحدة.

---

[1] **أبقع**: في فروه بقع ملونة وهي عربية فصيحة. **حبله حلفي**: صنع من نبات الحلفا.

[2] **نرقى**: أصعد. **نحدّر**: أنزل. **مخلة**: جراب من الوبر.

[3] **الحولي**: الجرد، وهو رداء رجالي من الصوف.

[4] هذه الأغلوطة مشهورة أيضا في الخليج العربي، بنفس الكيفية تقريبا.

هـ- الكذب المفلّق:

الكذّاب في كل المجتمعات مكروه ومنبوذ. وهناك نماذج من الكذّابين لا يؤذون غيرهم، ويكون كذبهم محصوراً في سرد بطولات خيالية وخوارق غير منطقية ينسبونها لأنفسهم، وهذا في – حد ذاته – مرض نفسي لا شفاء منه، حيث يلازم صاحبه طوال حياته تقريباً. وقد يجد بعض أفراد المجتمع في مثل هذه النماذج فرصة لقتل وقت الفراغ والتسلية، سواء بالاستماع المباشر لأحاديثهم، أو التندر بما قالوه غيابياً في المجالس والسهرات. ومع مرور الزمن يكوّن المتحدّثون رصيداً هائلا من تلك القصص الكاذبة التي تتجاوز حدود المنطق لتصير نكتة وطرفة تلوكها الأفواه. وهناك العديد من مثل هذه القفشات الشعبية التي كنا نسمعها ممن لهم القدرة على إعادة صياغتها ووضعها في قوالب أدبية محبوكة، مثل الذي قال لرفاقه الساهرين معه: (هل سمعتم هذه المعزة الطائرة في السماء وهي تصيح)، فأراد أصدقاؤه ثنيه عن تلك الفكرة المبالغ فيها، إلاّ أنه أصرّ عليها. عندها حاول أحد أقاربه تصحيح الأمر وإنقاذه من تلك الورطة قائلا: (ربما تكون حِدَأة خطفت معزة صغيرة وطارت بها في الهواء)، وهو تبرير مقبول لأن الحِدَأة تصطاد عادة الجرذان. إلاّ أن صاحبنا أصرّ قائلا: (معزة وطارت)، فبقيت – إلى الآن – مثلا يُضرب للعناد والتشبث بالرأي حتى وإن ثبت بطلانه.

ومن خلال هذه المبالغات والأكاذيب اشتهر (الكذب المفلّق)[1]، وهو ما يُعرف في العربية بـ(الفشخ)، ويقال: (فشخ الصبيان في لعبهم)= أي كذبوا فيه وظلموا. وهو بالضبط الكذب المفلّق أو الكذب المفشّخ. ومنه:

---

[1] (الكذب المفلّق)= المكشوف والمبالغ فيه.

(..ظهرت نجري، كبّوسي في رجليَّ وبلغتي فوق رأسي). (أني نمشي والبهيمة تسوق فيَّ). (لاقاني فرخ القطا، خذيت حدفة ورشدته، وقالت في طرباقة سااااق). والصحيح: أنه خرج يجري كبّوسه (طاقيته) فوق رأسه وبلغته (حذاؤه) في قدميه، وهو يمشي يسوق بهيمته (حمارته)، وعندما لاقى فرخ القطا أخذ رشادة (حجارة) وحذفه بها، فسُمع صوت ضربتها في ساقه بصوت (طرباق). فكان كل شيء معكوسا.

و- الأمثال والتعابير الشعبية ذات الطابع الهزلي:

تعتبر الأمثال والتعابير الشعبية من أهم عناصر المخزون الثقافي الذي تحتفظ به الذاكرة الشعبية. ويعبّر عنها آباؤنا وأجدادنا بأنها (كلام الأولين)، فيقولون: (كلام لَوْلين زرب) أي (شوك)، و(لو كان كلام لولين جي زرب ما نلقو منين نخطمو) أي: لو تحول كلام الأولين إلى حسك فلا نجد طريقاً نسلك منه إلى فهم الحياة. فكان كلامهم جامعاً مانعاً، مختصراً مفيداً، سهلاً ممتنعاً، نابعاً من عمق التجربة وتكرارها (اسأل مجرب وما تسألش طبيب). إلاّ أن بعض الأمثال تصاغ في قالب هزلي يعبّر عن مواقف متناقضة مع طبيعة الحياة، فيعتبرها القائل كما لو كانت مهزلة من مهازل القدر، ولكنها لا تخلو من البلاغة وقوة التعبير وحسن اختيار الألفاظ والتعابير الشعبية المتداولة بين الناس، وذلك مثل:

(الهمّ طامع في الغرّيدي)[1]: فالهمّ معروف، أما (الغرّيدي) فهو الريح الذي يدخل من مقدمة بيت الشعر ويخرج من مؤخرته فلا يجد شيئاً ينسفه. وتقال إذا طلب أحدٌ شيئاً من أحد لا يملكه، بل يكون في أمس الحاجة إليه أكثر من طالبه.

---

[1] **الغرّيدي**: من التغريد والصفير، كالصوت الذي يحدثه الريح في التجاويف.

فهل يطمع الهمُّ في بيت يعاني من الهمِّ أصلاً؟ ففاقد الشيء لا يعطيه، وكل إناء بما فيه ينضح.

(يقص الزبدة ويعثر في اللبن): تقولها الأم إذا أحضرت لها ابنتُها سكّيناً غير حادة، فتستهزئ بها بهذا القول، فالسكين التي جلبتها يمكنها قطع الزبد الطري ولكنها تتعثر في اللبن السائل، وفي ذلك تهكم معكوس المعنى رغم خلوّه من المنطقية أصلاً. وهذا المثل ينطبق على كل شيء يفشل في أداء وظيفته الذي جُعل من أجلها.

(تمرق منه الذبانة من غير طحير)[1]: ويقال عادة في (الجرد) أو (الحولي) سيئ الصنع أو القديم جدا، بحيث تصير خيوطه متباعدة بفعل رداءة النسج أو القدم، مما يسمح بمرور الذبابة منه دون معاناة. فلا يستفيد منه مرتديه خصوصاً في فصل البرد.

(غدوة تبانلك السمي كريكيبة)[2]: وتقال لمن لم يجرّب القيام بعمل شاق ويستهين به، ويكون مع جماعة يستعدون في الغد للقيام بذاك العمل، كالحصاد مثلاً إذا صادفه شهر الصيام، فإذا رأوه في الليل مزهواً غير مبال، يقولون له بأنه سيرى غداً السماءَ على هيئة حبّة من القمح مثلاً، تهويلاً لما ينتظره من عمل الحصاد الشاق مع الجوع والعطش بفعل الصيام.

---

[1] **الذبّانة:** الذبابة. **طحير:** من طحر يطحر، أي يبذل جهدا لفعل شيء أكبر منه.

[2] **غدوة:** غدا. **تبانلك:** تظهر لك. **السمي:** السماء. **كريكيبة:** تصغير كركوبة، أي كل شيء مكوّر ومدوّر.

(اللي سبق.. غز النبق)[1]: وتقال لتحفيز الشباب على القيام بالعمل وجني ثماره الأولى قبل أن يفوز به الغير.

(السرز طُلبة والحصان وداعة)[2]: تقال في من يتفاخر بشيء لا يملكه أصلاً، كمن استلف سرجاً ووضعه على حصان أودعه أحدُهم عنده، ثم ركبه متفاخراً بهما معاً كما لو كانا من ممتلكاته.

(عطوه يذوق طاح يلقّم)[3]: تقال لمن مكّنوه من القليل فأخذ الكثير، كمن طلبوا منه تذوق طعام ما، فطفق يأكله ويتناول منه اللقمة تلوى الأخرى.

(منين كان حي مشتاف في بلحة، ومنين مات علّقوله عرجون)[4]: وتُقال عندما يطلب الواحد شيئاً معيناً فلا يُستجاب طلبه، وبعد الاستغناء عنه يُعرض عليه كثيرٌ منه. كمن كان طوال حياته يتمنى حبة بلح يأكلها فلم يحظ بها، وعندما مات وضعوا على قبره (عرجوناً) كاملا من البلح، وهو ما لا ينفعه.

(ما لقوه الحيين قعود، بيلقوه الميتين رقود)[5]: وتُقال -مثلا- للكسول الذي لا يؤدي عملاً ويطالب بحاجته أسوة بغيره، فيُرفض طلبه بحجّة أن تلك الحاجة لم يحصل عليها مَن عمل بنشاط وجد، وهو يستحقها عن جدارة، فكيف يحصل عليها الكسول المتثاقل؟ وهذا ما لا يجوز، فكل من جدّ وجد، وكل من زرع حصد.

---

[1] **النبق**: ثمرة برية كالكرز، وقد يسميه المشارقة (عنّاب).

[2] **السرز**: السرج. **طُلبة**: سلف. **وداعة**: ما يودع كأمانة.

[3] طاح: طفق أو أقبل على فعل أمر ما. يلقّم: يأكل اللقمة تلوى الأخرى.

[4] **منين**: عندما. **مشتاف**: وصفة هي من (تشوّف)= نظر وتطلع وطمح. **علّقوله**: علّقوا له.

[5] **الحيين**: الأحياء. **الميتين**: الأموات.

(عند السفّ يبان المرياق): السفّ هو تناول الدقيق بدون ماء. وفي هذه الحالة يكون (المرياق)، أي كثير الريق واللعاب، أكثر قدرة على تليين الدقيق وبلعه، وهو اختبار له.

(على ظهر ناقة يغز في القمح) أو (القلِيّة): وتقال للصغير الذي لا يبالي بعمل الكبار، ولا يهمه غير مصلحته وتلبية حاجاته، وغير مطالب بتأدية الأعمال الشاقة، وهو في هذه الحالة كمن يركب الناقة ويتناول وجبة من القمح المحمّص التي تسمى (القلية)، بينما يكون غيره منغمسا في العمل. وقد تقال للكبير الغني عن مساعدة الغير.

(خلَّ العَرضة وجي للتقعميزة)[1]: وتُقال لمن يرفض الدعوة لتناول الأكل وهو معززاً مكرماً، ثم يجلس للأكل من تلقاء نفسه وهو ذليلاً مهاناً.

(يبداها زعيم ولاّ كريم ولاّ خايب طبع)[2]: الضمير في (يبداها) عائد للقصعة، وتُقال عند بداية تناول الطعام. وأول من يضع يده في القصعة إما أن يكون زعيماً مبجلاً ومقدَّماً على غيره، أو كريماً مشجعاً ضيفه على الأكل أولاً دون خجل، أو طمّاعاً جشعاً لا يحترم مرافقيه فيستعجل الأكل قبلهم.

(يعطيك صويعي ولاّ رقيعي ولاّ زوز زنتان): وتقال للقصعة أيضاً. ولها معنيان: إما لكبر حجمها وثقل وزنها دليلاً على الكرم الذي اشتهرت به تلك القبائل. أو لقدرتهم على أكل ما في القصعة دليلاً أيضاً على الرجولة والقوة، لأن الرجل القوي الذي يعمل كثيراً يأكل كثيراً.

---

[1] **خلّ**: ترك وتخلّى. **العرضة**: العرض والاستدعاء. **جي**: أتى، جاء. **التقعميزة**: الجلوس.

[2] **يبداها**: يبدأ الأكل منها. **خايب الطبع**: طمّاع.

(إللي ما يشبع من رفيسها ما يشبع من لحيسها) : أي من لا يشبع من القصعة وهي مليئة بالأكل، لا يشبع من لحسها وهي فارغة.

(جي يتعلّم في مشية الحمام، تلّف مشيته ومشيت الحمام) : تقال لمن يحاول تقليد غيره تقليداً أعمى دون توفير سبل نجاح العملية، فلا ينتهي إلى الفشل فقط، بل وينسى ما تعلّمه في السابق.

(مقعمز على البهرة والنار في قطّيس) : وتقال لمن لا يستطيع بلوغ الشيء، فيكتفي بتخيله، و(اللي يستنى خير من اللي يتمنى) = من ينتظر أفضل ممن يكتفي بالتمني.

ثانيا- المناظرات الشعرية:

6- مناظرات عُظيّم العنابي:

أ- مع اليهودي:

اليهودي: (عندي عشر الاف جان وبسم الله[1]
من غير الشيطان وقلال الملّة)[2].

العنابي: (أني عندي عشر لاف غير ضراريهم
ليا كبر الغليون راني انّاديهم)[3]، (يا ذمّي).

[1] بسم الله: جان.

[2] قلال الملّة: من لا أصل لهم ولا ملّة.

[3] الغليون: الغليان من شدة الغضب.

ب- مع خليفة الحدّاد، الحرابي:

غضب خليفة الحدّاد من العنّابي عقب وشاية وصلته من أشخاص يضمرون الشر لأولاد سلاّم. وأبلغوه أن عظيم العنابي ومن معه قالوا فيه قصيدة طويلة عصماء تروي هزيمة أهل خليفة الحرابي أمام غمراسن بورغمّة، منها:

(هوذو مذهوبين الشيرة.. وما خلّوا مجحود
فزعوا وما فاتوش السيرة.. وسبتوا زي يهود
وذيبة لقصعة تندميرا.. ليا هافوا عنقود
وخشوا الباطن ومناقيره.. بمغارف عمود)[1] ألخ..

فاستشاط الحدّاد غضباً، واعتبر كلام العنّابي إهانة له ولأهله فأنكر عليه فحولته الشعرية وشجاعته بل وأصله وانتماءه إلى بيت اشتهر بكثرة الأموال والأرزاق، وكان رئيسها يملك سبعة من الإبل وسبعة من الغنم[2]، فردّ عليه قائلا:

(لاك باف لاك صقر لاك عقابي.. قليل أصل غير تنسب عل العنّابي[3]
أهلك خيار الخيرة.. أهل الطرب والمنزلة والجيرة
وانت مثيل العجل بو خنيفيرة.. تحوم عل الكرموس والكركابي)[4] إلخ

[1] **هوذو:** هؤلاء (جمع هذا). **مذهوبين الشيرة:** غير قادرين على التركيز وفهم الأمور على حقيقتها. **ما خلّوا مجحود:** لم يتركوا شيئا مستورا. **ما فاتوش السيرة:** لم يتجاوزوا الأسوار. **سبتوا زي يهود:** جمّدوا حركتهم كاليهود يوم السبت. **تندميرا:** قرية في جبل نفوسة قريبة من تيجي. **ليا هافوا عنقود:** إذا هبّوا يهبّون جماعة متراصّة كالعنقود. **الباطن:** الجبل. **مناقيره:** تلاله. **مغارف:** جمع مغرف، وهو خشبة تستخدم لعصد الدقيق.

[2] **الإبل الواحدة:** بين 71 و81 رأسا. **والغنم الواحدة:** بين 311 و511 رأسا.

[3] **لاك:** لام النافية+كاف الخطاب، والمعنى: لم تكن. **الباف والصقر والعقاب:** من الكواسر.

[4] **خنيفيرة:** تصغير خنفورة، وهي أرنبة أنف الحيوان. **الكرموس:** ثمر التين، **الكركابي:** التمر.

وأخيرا يقول:

(تنسب على السلاّمي..   ويكبر في عيني ليا وقف قدّامي..
ونكويك كيّان الحديد الحامي.. ونهزمك لياكان عضّك نابي..
ومنين يا خوتي لقيته عامي.. قايس عل القبلي هز شرابي)[1] إلخ

رد العنّابي:

(قد زبرتك واخدم عقاب بغالك.. واش كلفك عل حال ماهو حالك)[2] الخ.

والمعلوم أن خليفة الحدّاد أسمر البشرة، وكان حدّاداً في قرية الحرابة بالجبل الغربي، مما جعل المنافسة تتمحور حول الحدادة، فردّ بالقول:

(حدّاد صنعة جدّي.. من صغرتي ليّ العروبة تدّي..
وعل النّار ديمة قدرتي فوّارة..
وانت عليك العنكبوت مسدّي..
زي الخرب ع الرمثات داير داره)[3].

وأخيرا يقول له:

(أني حموم وانت باش بتحمّمني..

[1] السلاّمي: نسبة إلى أولاد سلاّم. عامي: أعمى. قايس: حدّد الهدف وأصابه بدقّة. القبلي: الريح القبلي. هز شرابي: أخذ مني الماء.

[2] زبرة: سنداد الحدّاد. عقاب بغالك: جمع عقب، أي الحدوة الحديدية التي تدق في حافر الحيوانات الحاملة.

[3] تدّي: يدفعون لي الدراهم. الخرب: الديك. الرمثات: مفردها رمثة، وهي نوع من الأعشاب. داير داره: مشيدا بيته.

وحدّر عماي لشرعكم خاصمني)[1].
(أني حموم القِدرة.. وانت حرير ومطبّع ف سدرة..
يا نزرفك للغرب تغدي ودرة..
يا نردمك ف جرف يا تردمني)[2].

ج- مع محمّد الصغير، من ساحل تونس:

حيث اتفقا أن يكون موضوع المناظرة (البرق). وكان عظيم العنّابي يعرف الأماكن التونسية، بينما يجهل محمد الصغير الديار الطرابلسية.

محمد الصغير:

(تنسّم قمّودي بحقيقة.. سمعت تنقنيقة.. يضرب في نتاتيق فْريقا)[3].
(تنسّم قمّودي من توًّا.. والرعد تقوّى.. والبرق مطارق تتلوّى..
واميّة حلوّة.. لا تنشد لا تقول شنوّه..)[4]..

عظيم العنّابي:

(يا برقن يلعج في سماه.. ما احرّ ضياه.. ومن جهده المولى قوّاه)[5].
(يا برق اللي يبان يبان.. وعجاجه دار زناكيل)[6].

---

[1] **أني**: أنا. **حموم**: السخام الأسود العالق بالقدر. **باش**: بأي شيء. **حدّر**: إنزل، أي نازلني رجلا برجل. **عماي**: معي. **شرعكم**: أي شرع المهيري المعروف عند الصيعان وهو الضرب بالدبوس.

[2] **ف**: حرف جر (في) دون مد. **نزرفك**: أرميك. **تغدي**: تصير أو تصبح، تغدو. **ودرة**: بلا رجعة.

[3] **قمّودي**: نسبة إلى قمّودة، مدينة بالساحل التونسي. **تنقنيقه**: زمجرته. **نتاتيق**: أطراف ومداخل.

[4] **اميّة**: مياه. **تنشد**: تسأل. **شنوّه**: ما هو، أي شيء هو.

[5] **برقن**: برق مع إثبات نون التنوين. **يلعج**: يلمع ويضيء.

[6] **زناكيل**: أثقال.

(هدّ السيسان.. تونس كيّلها تكييل).. (زريق وكتّان.. دار فيهم سهرية ليل).. (مجمل جمّال.. قيّل دار البيّ مقيل).. (جي عل زغوان.. الساحل عقّبله في الليل).. (جي عل بنقردان.. خلّ الوديان محاميل).. (والمقطع بان.. فوت حداد بو برطيل).. (نجع الصيعان.. هاكا وين تبدّل ماه.. عشب وطوفان.. ومتخلط تغلط في سماه.. عظيم وغناه.. اللي تسمع زيدوا رحمة عل باباه)[1].

1- مناظرات الخيل:

ابتدع أحد من (أولاد طالب) بدعة جديدة من بدع الوجاهة واستخدام رموز الأبهة والتفاخر، فوضع قطعة من القماش الجميل على سرج فرسه يقال لها (السرميز) ربما أصلها تركي، فاستهجنها صيعان تيجي، فقالوا فيه:

(السرميز فوق السرز ماسمح لونه..
الراجل مخوخم والفرس مجنونة)[2].

فردّ عليهم الشاعر الطالبي المشهور (عبد الله كرير) بالقول:

(الخيل خيل لكن يفرقوا ويحزّوا.. يبانوا نهار الفرح يا كان احتزّوا..
وكان شوّروا، حتى القلوب يفزّوا.. ما يتكّي شايب عل مضنونة..
السرميز بيه الخايبين تهزّوا.. كذب منهو يقول الجالية مجنونة)[3].

---

[1] **السيسان:** الجدران. **كيلها:** غمرها. **زريق وكتّان وجمّال ودار البي وزغوان وبنقردان:** مدن وأماكن في تونس. **حداد بوبرطيل:** الحدود الاستعمارية، فرنسا وإيطاليا (بوبرطيل = صاحب الطاقية الغربية).

[2] **السرز:** السرج. **ماسمح:** ما أجمل. **مخوخم:** مجنون.

[3] **يبانوا:** عندما تظهر الخيل. **ياكان:** إذا كان. **شوّروا:** بدأت السباق. **يفزّوا:** القلوب تهتز. **مضنونه:** ابنه.

5- مناظرات جز الحيوانات (الزاز):

إلتقى بعض من الصيعان ببعض من التوازين[1] في موسم جز الحيوانات. فبدأ (التوزني) بالمهاجاة على غنمه قبل الصويعي، فقال:

(يامّا نجع الحمزات.. ذكروه ينزاد..
من ليبارق للحمدات.. ما يركبوا غير السالسات..
كبار وصغار.. وولاد في العدّة شطّار).

غضب الصويعي من افتخار (التوزني) بأولاد نجعه، فأراد أن يردّ عليه بافتخار أقوى تعبيراً وحماسةً، فأخذ (الجلم) ونسج على منوال صاحبه، قائلا:

(يامّا نجع الصيعان.. ذكروه مطمان..
من ليبارق للقدحان.. ما ركبوا غير الطربان..
وقصيرة القين.. ويطردوا الهارب شبحين).

وما أن أنهى هذه الأبيات حتى وضع المقص في بطن الشاة ففراها من شدّة الغيظ والغضب.

ثالثاً- أغاني القيام بالأعمال:

6- الرحي:

وتُصنع من الحجارة الصلبة، فتُنقش منها دفّتان (فردتان) دائريتان، السُفلية ثابتة والعلوية دوّارة حول محور من الخشب (قلب الرحى)، وتُسمّى تلك

[1] **التوازين**: من قبائل ورغمّة البدوية بالجنوب التونسي.

الفتحة (المرمّة) أي يُرمى فيها الحبوب، مثبت في عروة الفردة الدوّارة عمود خشبي (زرار) أو (شياظ) كمقبض يدوي، يضغط بواسطة حبل دائري يسمى (التارشة)= الترس، وقطعة صغيرة من الخشب تُسمى (اللزازة). ويختص بتجهيزها سكّان الجبل بحكم معرفتهم بالصناعات الحجرية منذ القدم. وتستعملها المرأة لوحدها أو تساعدها امرأة أخرى وذلك حسب حجمها. وتقوم الرحى بطحن جميع أنواع الحبوب الجافة، ويضرب بذلك المثل: (القمح يدور ويولّي لقلب الرحى). وتعتبر الرحى من المستعملات اليومية عند البدو قديماً. أما في المناسبات والأفراح فتقام لها المراسمُ الخاصة، ويكون الطحن بها ليلاً على ضوء النيران (السامر). ولصعوبة استخدام الرحى وطول زمن الطحن تحاول النسوة الترفيه عن أنفسهن بواسطة الغناء، حتى صار للرحى غناء خاص، من بيت واحد، يوجّه عادة للرحى نفسها، وإذا طال وقت الطحن تعرّج النسوة إلى مواضيع اجتماعية أخرى تشغل بالهن، كالغناء عن أزواجهن وآبائهن وإخوانهن وأبنائهن ورجال عشيرتهن عموما، كما تمدح الصبايا فرسان أحلامهن من أبناء عمومتهن أو أبناء خالاتهن، بعبارات بسيطة ولكنها لا تخلو من البلاغة المعهودة عند النساء البدويات. ومن أغاني الرحى نقدم العينات التالية:

(يا رحى جابوك من فسّاطو.. عليك البنتّة يشيّعو ويواطو)[1].
(يا رحى جابوك من جنّاون.. حتى ثقيلة في الشعير تعاون)[2].

[1] **جابوك**: جاءوا بك. **فساطو**: منطقة حول مدينة جادو بجبل نفوسة. **البنتّة**: البنات. **يشيّعو ويواطو**: يغنين بأصوات ترتفع تارة (يشيعو) وتنخفض تارة أخرى (يواطو).
[2] **جنّاون**: قرية بجبل نفوسة.

(خفي عليّ يعطيك هشيمة.. ولا ليمت بيك المعاون ديمة؟)[1].
(خفّي عليّ يا رحاة الرّايس.. على الله يرحو بيك زوز عرايس)[2].
(يا رحى تستاهلي عجمية.. تستاهلي خادم باثناشنمية)[3].
(يا رحى تستاهلي دابوكة.. تستاهلي خادم سمى مبروكة)[4].

وتخاطب المرأة الرحى قائلة:

(رحاة أربعة ماكش رحاة وحيدة.. رحاة شيخ مسمّي الطوابع فيده)[5].

وتردّ عليها الرحى قائلة:

(رحاة أربعة وإلاّ ثلاثة قُدّر.. يظل خجلهم في الدقيق محدّر)[6].

وتتألم أخرى فتقول:

(أني داهشة حس الرحى كادتني.. وأمي بعيدة وغيرها ما جتني)[7].

---

[1] **هشيمة:** كسر. **لاليمت:** إلى متى. **ديمة:** دائما.

[2] **الرايس:** الرئيس. **زوز عرايس:** عروستان.

[3] **تستاهلي:** تستحقين. **عجمية:** امرأة سوداء. **أثناشنمية:** أي ثمنها اثنا عشر مائة (ألف ومائتين).

[4] **دابوكة:** خادم سوداء. **سمى:** اسمها.

[5] **رحاة:** رحى. **ماكش:** لم تكوني، أي لستِ. **وُحيدة:** تصغير وحدة. **فيده:** في يده.

[6] **قُدّر:** قادرات. **خجلهم:** شعرهم. **محدّر:** ساقطا ومنحدرا.

[7] **أني داهشة:** متعبة:. **حس:** أحس أن، أشعر بأن. **كادتني:** أتعبتني ولم أحتملها لوحدي. **ما جتني:** ما جاءتني.

1- جز الحيوانات:

كان البدو يقيمون احتفالاً كبيراً لهذه المناسبة (ذبح وسلخ ومهاجاة وبارود..)، فيقومون بتقييد أطراف الخراف، يخاطبون بعضهم بالقول مثلا:

(هاتهالي يا غالي.. يا زهو بالي.. يا راقدة والريم فالي..)
(هاتهالي البركوسا.. وجليم سوسا.. وأني فرج للمحبوسا)[1].
وغيرها.

ثم يسترسلون في الغناء المشجع لهم والمسلّي لسامعيهم، فيضفون جوّاً خاصاً بجني الأصواف والأوبار التي تعود عليهم بالخير والبركة. وهذا بعضهم، يبدو أنه يقوم بجز أغنامه لوحده، فيستغيث بأهله وربعه ويخاطب الشاة بالقول:

(يا مّا لو كان حذاك.. من حي قرباك.. يفزعولي أني ويّاك)[2].

وغيره يقول:

(صافي واري البهمي.. وعل الحمّي.. ومباقلك غير المي.. وعبد زنهار.. وفوق المعاطن كل نهار)[3].
(ياماّ يا حمر الزبيب.. ليا المغاريب.. وبالك تقولي ايدي الطيب)[4].

---

[1] **هاتهالي**: هات-ها-لي، قرّبها إليّ. **البركوسة**: الشاة. **جلم سوسة**: المقص المصنوع بسوسة. **المحبوسة**: الشاة المقيّدة.

[2] **يا مّا**: يا أمّي، ويقصد الشاة. **لو كان حذاك**: لو كنت بجنبك. **حي قرباك**: الأحياء القريبين منك. **يفزعولي**: يهرعون إلي.

[3] **واري**: نسيم. **البهمي**: البهماء، نوع من العشب تحبذه الخراف. **الحمّي**: الحر. **المي**: الماء. **عبد**: رجل أسود يكون راعيا للغنم. **زنهار**: متقد شررا. **معاطن**: موارد الماء.

[4] **حمر الزبيب**: تظهر سيقان الشاة بين اصفرار واحمرار بسبب نوع من الأعشاب. **بالك تقولي**: لا تفكري في.. **تطيب**: تتورّم من مسك المقص.

ويتحسّرون على من لا يملك الغنم، فيُحرم من متعة هذا اليوم:

(يا أمّا اللي ماك عندي.. مريّض بلا دي.. مغلوب في حاجة زاهدي)[1].

(اللي ما عنداش غنم.. وحصان ينهمّ.. عليه يرخي الميعاد تمم)[2].

(يامّا يا عشعاش.. يامّا لاش.. يامّا الشيخ اللي ما يسواش.. ويشاوروا فيه.. ومجمّل الناس عليه)[3].

وإذا انشغل النسوة عن أداء صيحات الزغاريد المشجّعة للرجال، يذكّرهن أحدهم بالقول:

(يامّا يا عكروتا.. في وسط خوطا.. ما لفتلك زغروطا.. أم الزغاريط.. لومك على مولاة البيت)[4].

5- حداء الإبل:

أو (المهاجاة)، وهي أهازيج وأراجيز تكون مرتجلة أولاً ثم تُحفظ من قبل السامع لها، فتصير مع الزمن (مهاجاة) يرددها الراكبون على الإبل ورعاتها. وهي -عادة- أبيات منفردة، أو قصائد ذات البيت الواحد، توضع خصيصاً لتشجيع الإبل وحثها على السير مسافات طويلة وتحمّل أثقال هائلة، حيث تؤدى بأصوات

---

[1] **اللي ماك عندي**: ما لا أملكها. **مريّض**: تصغير مريض. **دي**: داء. **مغلوب**: لا يستطيع توفير الشيء. **زاهدي**: شيء تافه

[2] **اللي ما عنداش**: من ليس عنده، أي لا يملك. **ينهمّ**: يهمّ. **عليه يرخي الميعاد تمم**: ليس محترما من قبل الجميع.

[3] **يامّا**: يا أمّي. **عشعاش**: مربّي الغنم. **لاش**: لماذا. **ما يسواش**: لا قيمة له، لا يساوي شيء.

[4] **العكروت**: مقطوع الأذن. **الخوطة**: الحلقة أو الزريبة. **ما لفتلك**: لم ترد عليك.

مطوّلة وموزونة تتفق مع وقع خطوات الإبل وحركتها في السير. وقد اعتادت الإبل على سماعها والاستمتاع بها، فيصل بها الأمر أحيانا إلى التأثر بها سلباً وإيجاباً، فقد تطرب وتسرع الخطى عند سماعها، وقد تسقط دمعتها من شدة التأثر بصوت الحادي (المهاجي). وذلك مثل:

(مدّي رقابك واشربي لرياحي.. إن شا الله بعد الشقا ترتاحي).
أو (أني ضامنك عقب الشقا ترتاحي).
(هبهب عليها يا نسوم البارد.. وامنع كحيلة مالسبيب الجارد[1] أو الشارد).

(يا عوجة السيقان يا مدّادة.. يا سعد من قعّد عليك زنادة)[2].
أو (يا سعد من ربّى عليك أولاده).
(تلقى جرايرها وما تلقاها.. قطّاعة الجوبة بطول خطاها)[3].
(خفافها خبزات بلدياتي.. وضلوعها للحمل محنياتي).

(مدّت رقابيها وقالت سوقوا.. نخلات بوصرّة قريب نذوقو)[4].
(كل ما حذيناها وقالت سوقوا.. وهاكا ليبارق والجبال يتوقو)[5].

---

[1] **السبيب الجارد**: الخيول الغائرة، ربما الأصل (الشارد).

[2] **عوجة السيقان**: أم السيقان المعوجّة. **مدّادة**: التي توسّع خطواتها وتمدّها أثناء السير. **يا سعد**: كم هو سعيد الحظ. **قعّد زناده**: جهز سلاحه للاستعمال.

[3] **جرايرها**: أثر أخفافها على الأرض (الجرة). **الجوبة**: المسافة الطويلة.

[4] **سوقوا**: كما لو كانت تأمر أصحابها بقيادتها إلى المكان المقصود. **بو صرّة**: نوع من البلح أو التمر.

[5] **هاكا**: ها ذاك. **ليبارق**: جبال صغيرة. **يتوقوا**: ينظرون إلينا (كأن الجبال تنتظرهم وتتوق لرؤيتهم).

وتُبرِّش النساء قائلات:

(يا خال يا مولى الجمل يهدّر.. هَيْ نركبو لثنين ولاّ حدّر،
يا خال يا مولى الجمل والناقة.. هّيْ نركبو لثنين ونلحقو الفلاّقة)[1]..

وتخاطب الفتاة خطيبها مالك الإبل بالقول:

(الازرق فحل البل برَّ بيعه.. واشريلي بيه أخراص بالتربيعة)[2]..

وتغني النسوة (برّاش) ليلة عاشوراء فتقول:

(البل عوجة العراقيب.. ليا شيعت ما تواطي[3]،
تطوي الوطى طي في طي.. طي الحصيرة على البساطي)[4].

4- الحصاد:

وقت الحصاد من أصعب الأيام وأعسرها على البدوي. فهو يصادف أكثر أيام الصيف سخونة وحرارة، ويسمون تلك الفترة بـ(العنصرة) التي تعني شدّة الهجير. حيث تنضج خلالها السنابل وتجف، مما يستوجب الإسراع بجنيها ودرسها وتذريتها واستخراج الحبوب منها، فلا يجوز تأجيل ذلك إلى الأوقات

---

[1] **حدّر**: إنزل. **الفلاّقة**: رجال مسلحون ربما يكونون مغيرين على الإبل وهاربين بها.

[2] **برّ**: إذهب، إمضي. **أخراص بالتربيعة**: نوع من الأقراط.

[3] **العراقيب**: العرقوب: الركبة من الخلف. **ليا**: إذا. **شيعت**: رفعت رقبتها. **ما تواطي**: لا تنزلها.

[4] **الوطى**: الأرض.

الباردة المقبلة. والبدو يعوّلون كثيراً على موسم الحصاد، حيث يضمنون غذاء سنة كاملة من الحبوب -قمحاً كانت أو شعيراً-، فمنهما يستخرجون أنواعاً عديدةً من الوجبات المفيدة للجسم والمرضية للذوق، كالبازين والزمّيطة والكسكسي والدشيشة وغيرها.. فيجهّزون لمحاصيلهم المطامير[1] الخاصة بتخزين (النعمة)[2] بطريقة تجعل من الحبوب في مأمن من الفساد والتسوّس. ونظرا لأهمية الحصاد عند البدو، فهم يخاطبون الزرع بشيء من المهابة والقدسية:

(نمردولك بالمريد.. نقعدولك بالقعاد..

آه! يا حلو العصيد.. يا دواء أوجاع لفّاد)[3].

---

[1] **المطمور**: طريقة خاصة بتخزين الحبوب وطمره تحت الأرض.

[2] **النعمة**: الحبوب الصالحة لتجهيز للغذاء.

[3] **نمردولك**: إذا احتاج الأمر لوضع المريد فنحن مستعدون لذلك. **نقعدولك**: وإذا احتاج الأمر لوضع الجلوس فنحن فاعلون. **لفّاد**: الفؤاد، الجوف والبطن والمعدة، أي دواء لداء الجوع.

الفصل الثالث

الألعاب

تمهيد:

رغم المهام اليومية الصعبة والمتعددة التي كان يؤديها البدو منذ لحظة استيقاظهم في الصباح الباكر إلى ساعة خلودهم للنوم ليلا، إلاّ أن اليوم عندهم طويل، خصوصاً في فصلي الربيع والصيف. وقد يحدّثك كبار السن عن أمرين مهمين يميزان زمانهم الماضي عن زماننا الحاضر، الأول: أن نهارهم كان طويلاً مقارنة بنهار اليوم المثقل بالمهام المعقدة التي تستنفذ كل الوقت دون فائدة تُذكر. والثاني: أن الأكل كان لذيذاً حتى وإن احتوى على الخبز والماء فقط. ويصفون أيامهم تلك بـ(الأيامات الحلوة)، وتكمن تلك الحلاوة في بساطة العيش والتقشف والبعد عن التعقيد والمغالاة والمبالغة. وما دام الأمر كذلك فلا بد أن يجدوا في ذاك اليوم الطويل فسحةً من الزمن يروّحون فيها عن أنفسهم، فيخترعون لها مناشط جسدية وفكرية يتسلّون بها ويلتقطون -عن طريقها- أنفاسهم من جديد ويستعيدون بها طاقاتهم وقدراتهم الذهنية والعضلية. وهذه بعض العيّنات للألعاب التي كان البدو يمارسونها:

أولاً- ألعاب عضلية:

أ- عظم الساري:

(والساري – في الأصل- الذي يخرج من بيته آخر الليل لأداء عمل معيّن أو للسفر إلى مكان بعيد). إذن فهي لعبة ليلية يتعاطاها الصبية دون الصبايا

لاعتمادها على شيء من الخشونة والاحتكاك ووقوعها في وقت الظلام. حيث تُختار عظمة قديمة (عظمة ساق الشاة مثلا). ويجتمع الصبية عند خط أو دائرة محدّدة بخطوط على أرض مستوية، ويقوم كبيرهم برمي العظمة بعيداً في الظلام، وهم مطأطئو الرؤوس أو مغمضو الأعين أو ملتفتون إلى الخلف، ثم يعطيهم الإيعاز بالتحرك والبحث عن العظمة. وأثناء البحث يخاطبون العظمة بالقول:

(بقّص لي.. نبقّص لك.. عقاب الليل نرقّص لك)[1].

وإذا عثر عليها أحدهم يخفيها عن أصدقائه ويتسلل خفية من بينهم ويعود جرياً إلى الحلقة التي انطلقوا منها أول مرّة. أما إذا اكتشفه أصدقاؤه قبل وصول الحلقة يقبضون عليه ويضربونه فيخسر الرهان ولا يفوز بمهمة رمي العظمة في الجولة الثانية وقيادة اللعبة، وربما يحرم من اللعب نهائياً. وهناك طريقة أخرى: يقوم من عثر على العظمة بضرب أقرب زميل له قبل وصوله إلى الخط المحدّد أو الدائرة.

ب- سبع صبايا:

وهي لعبة خاصة بالبنات فقط. حيث تصطف سبع بنات الواحدة وراء الأخرى، وتضع يديها على كتفي صاحبتها، وكلّهن في مواجهة امرأة تقوم بدور (الغولة) وهي شخصية خرافية على هيئة عجوز بشعة تأكل لحم البشر. لذا يجب ألاّ ترى البنات الست المختبئات وراء الفتاة التي في مقدمة الصفّ. وتبدأ اللعبة

[1] **بقّص**: فعل أمر بمعنى إظهر لي على هيئة شيء مضيء حتى أراك في هذا الظلام الدامس.

بميل العجوز (الغولة) إلى اليمين قائلة: (سبع صبايا في قصباية ندور ندور وناكلهم)، فيميل البنات إلى الاتجاه المعاكس قائلات: (والله ما تذوقيهم). وهكذا كلما مالت العجوز لرؤية إحدى البنات، مال صفّهن تجنباً لوقوع نظرها على أيٍّ منهن. وإذا تمكنت الغولة من ذلك نتيجة ارتباك الصفّ وكثرة الحركة والميلان، تعلن اسم الفتاة التي اصطادتها وتأمرها باللحاق بها، فتأتي الفتاة (الفريسة) وراء الغولة وتضع يديها على كتفيها كما كانت تفعل مع صديقاتها في الصفّ، وفي ذلك إعلان على أن تلك الفتاة صارت تحت تصرف الغولة، فيتحسّر عليها صُحيباتها بالقول: (يا خسارة فلانة كلتها الغولة)!. وشيئاً فشيئاً يقل عدد الفتيات ولم يبق في الصفّ غير الأولى التي تعلن فشلها في حماية فريقها، وتقدّم نفسها كآخر فريسة للغولة. وتنتهي اللعبة لتعاد مع سبع بنات أخريات وغولة أخرى، وهكذا.

وهذه اللعبة يمارسها الفتيات البالغات أو القريبات من سن البلوغ، ويشاركهن النساء المتزوجات والعجائز النشيطات، لذا كان لزاماً عليهن القيام بذلك في مكان قريب من البيوت بعيداً عن أنظار الرجال والشبّان نظرا لما قد يتعرضن له من كشف شعورهن أو أجزاء من أطرافهن بسبب حركة اللعب، فلا يجدن حرّيتهن كاملة في أداء تلك اللعبة. وعادة ما يكون زمن هذه اللعبة في الليالي المقمرة خصوصاً في فصل الصيف.

ج- ألعاب الكبّوس:

قلنا في ما مضى من صفحات أن البدوي لا يستغني عن كبّوسه (طاقيته) مهما كان الأمر، وكذلك صغار السن. ونظراً لسهولة خلعه وإعادته على الرأس يجد

الجميع متعة في العبث به وتحريكه، مثل تغيير وضعه على الرأس في عدة اتجاهات، أو خلعه ووضعه على ركبته أثناء الجلوس، أو تفقد ما أودعه فيه من أشياء صغيرة كالنقود مثلا، أو خلعه وتنفيضه من الغبار والأتربة العالقة به، أو اللهو به وتدويره على طرف إصبعه وقت الفراغ، وغير ذلك من الحركات التي يخص بها البدويُّ كبّوسَه. ويبدو أن ذلك أوحى له باستخدامه في ألعاب رسمية مقننة. كان من بينها:

6- يُرسَم على أرض مستوية خطّان متوازيان بعيدان عن بعضهما البعض بمسافة لا تقل عن عشرة أمتار (أو عشر خطوات واسعة). كما تُرسم في الوسط تماماً دائرةٌ يوضع في مركزها الكبّوس. تلك هي ساحة اللعبة وميدانها. يصطف فريقان من الشبان عند كل خط لا يحق لهم تجاوزه. ويرشّح كل فريق شاباً يكون الأقوى بنية والأكثر مهارة والأسرع جريا. حيث يصل الشابان ويقفان فاتحي رجليهما عند الدائرة المرسومة التي بها الكبّوس، بشرط ألاّ تطأ أقدامهما حرم تلك الدائرة. ثم يُعطى لهما الإيعاز ببدء اللعبة، وذلك بتحين فرصة خطف الكبّوس. وإذا تمكن أحدُهما من ذلك قبل منافسه يعود جرياً نحو أصحابه، وإذا كان منافسه أسرع منه ولحق به قبل الوصول يقذف الكبّوس إلى رفاقه وراء الخط المرسوم، وإذا سقط الكبّوس قبل الخط يرتمي عليه الخصمان ويحاول كل واحد منهما انتزاعه. في الوقت نفسه يتعالى صراخ الفريقان خصوصاً رفاق خاطف الكبّوس الأول الذي أوشك على الوصول به إليهم. وإذا فشل في ذلك وتمكن خصمُه من الظفر بالكبّوس والعودة به إلى رفاقه المنتشين بالانتصار، يقوم الفريق المهزوم بتوبيخ رفيقهم وقد يلجأ بعضهم لضربه لأنهم خسروا بسببه نقطة كانوا

على وشك الفوز بها. وبعد أن تهدأ النفوس تعاد اللعبة بترشيح شابين آخرين، وهكذا. وهذه اللعبة تشبه إلى حد ما لعبة (Rugby)، إلاّ أنها أقل خشونة وأكثر براءة وتسامح. ومثل هذه الألعاب يمارسها الشبان في مرحلة البلوغ والمراهقة، حيث يجدون فيها مجالاً لتفريغ الشحنات الزائدة من طاقتهم، ورغبتهم في تكوين الجماعات بعيداً عن قيود الأسرة النواة.

1-وهناك لعبة أخرى يقوم بها الأطفال الصغار مستخدمين الكبّوس. وهي أكثر هدوء وأقل خشونة من الأولى. حيث يجلسون على هيئة دائرة كبيرة يغنّون ويصفّقون، ويقوم أحدهم بالجري منحنياً وراء حلقة الأطفال أكثر من مرة، إلى أن يتحين فرصة انشغال أحدهم بالتصفيق والغناء، فيضع الكبّوس خلفه دون أن يشعر أحد به، وإذا أكمل دورته وعاد إلى الطفل الذي لم يتفطن لوجود الكبّوس خلفه يلطمه على ظهره ويأمره بتناول الكبّوس والدوران به خلف الدائر بينما يحتل هو مكانه، وهكذا.

ويمكن أن تمارس الفتيات الصغيرات هذه اللعبة باستعمال قطعة من القماش أو غطاء رأس أحدهن بدل الكبّوس. وهذه اللعبة لا يزال يمارسها أطفال الكشّاف والبراعم الصغار إلى يومنا هذا.

5-وهناك لعبة أخرى لا تعتمد على المجهود العضلي، وإنما تميل أكثر إلى الألعاب الفكرية. حيث يُعبّأ نصف الكبّوس أو أكثر قليلا بالحجارة الصغيرة أو الحصى، ويُقلب بكل حمولته على الأرض، ويُرفع تاركاً الحجارة أكثرها مكوّماً وقليلها مبعثراً. ويتقدم الطفل الأول الذي وقعت عليه القرعة ويبدأ بالتقاط الحجارة المستقلّة عن غيرها، إلى أن يتعقّد الموقف بالتقاط الحجارة الملتصقة بغيرها، فإذا

تحركت الحجارة غير المستهدفة يتوقف عن اللعب ويفسح المجال للطفل الثاني دون قرعة، ثم الثالث والرابع، وهكذا. وفي هذه اللعبة كثير من التركيز والانتباه، حيث يقوم الطفل بالالتفاف حول تلك الكومة واختيار الحجارة التي لا يحرّك التقاطُها غيرَها، وقد يضطر لتغيير وضعه: منحنياً ومنكبّاً تارة، أو مستلق على بطنه أو جنبه تارة أخرى، وغيرها من الأوضاع التي يحاول من خلالها اكتشاف الحجارة التي لا تلتصق أو لا تتكئ على غيرها. وعند الانتهاء من التقاطها جميعا يحسب كل طفل ما بيده من حجارة، وتعتبر نقاطاً لصالحه، فيفوز الحائز على عدد أكبر. وتعاد اللعبة عدّة مرات.

ومثل هذه الألعاب يمارسها عادة أطفال ما قبل سن البلوغ والمراهقة، حيث يختبرون فيها قدرتهم على التركيز واكتشاف الفروق الفردية التي تميز الواحد عن غيره من رفاق المرحلة العمرية، علاوة على الشعور بالانتماء إلى الجماعة.

د- ألعاب الكُرة:

وأهمها كرة (الرُّود)[1]، وهي عبارة عن كيس مكوّر مصنوع من الجلد المتين والصلب (قدّة). وتُستعمل فيها العصي (المساويق)[2]. وتُنتخب الفرق من نجعين أو نزلتين أو عائلتين وأحياناً من قبيلتين مختلفتين متباعدتين مكانياً. ويتكون الفريقان من الرجال الأقوياء نظرا لاعتمادها على الخشونة واستعمال القوة

---

[1] **الرود**: إما أن تكون من الورود، أي توريد الكرة إلى الهدف، أو أصلها (روض) أي ترويض الكرة وتوجيهها إلى الهدف، أو لأنها نوع من الرياضة والتريض.

[2] **المساويق**: جمع مسواق، وهي نوع من العصي، سميت هكذا لأنها تساق بها الحيوانات.

البدنية في ممارستها والجري بها مسافات طويلة، ويكون عدد الفريقين متساو. وتبتدئ من مسافة بعيدة ومتوسطة بين بيوت النجعين قد تتجاوز الكيلومتر، وتُعتبر البيوت مرمى تنتهي عنده الكرة وتُحتسب هدفا، وهو الهدف الوحيد الذي تنتهي به المباراة بالفوز أو بالهزيمة. وهي لعبة حماسية جادة لها قوانينها. وعندما تحتدم المنافسة لا يمكنك تحديد موقع الكرة التي تتلاطمها العصي بسرعة فائقة. وقد مارس سكان شبه الجزيرة العربية هذه اللعبة منذ القديم، ويُذكر أنهم كانوا يحدثّون أخبارها بالقول: (وتجاحفنا الكرة بيننا بالصوالج)[1]. وهكذا يحصل في (الرود)، فلا يمكنك رؤية الكرة بين أقدام الرجال، حتى ترتفع العصي في الفضاء وتتعالى الصيحات إعلاناً عن تسجيل الهدف، عندها يمكنك رؤية الكرة وقد تجاوزت بيوت الفريق المنافس. وقد تحضر النساء والصبايا لمشاهدة أبنائهن وأزواجهن وآبائهن وهم يلعبون هذه اللعبة الرجولية. وقد تنتهي المباراة بغضب أعضاء الفريق المهزوم، بل وقد يخرج الأمر عن حدود اللعبة إلى الاعتداء بالضرب على أعضاء الفريق المنتصر. إلاّ أن كبار القبيلة أو العائلة يحولون دون تفاقم المشكلة وتهدئة الوضع قبل تأزمه، وينتهي كل شيء بالتراضي، فيتحمل الفريق المهزوم نفقات الوليمة الكبيرة التي تقام بالمناسبة.

وهذه اللعبة البدوية الخالصة تشبه إلى حد كبير لعبة الهوكي (Hockey) التي تمارس على مسطحات الجليد عند الغرب؟ غير أن البدو يتعاطونها من أجل التسلية والتريّض، لا من أجل الفوز بالمبالغ المالية الضخمة أو الألقاب العالمية البرّاقة. إلى جانب أن أعضاء الفرق المتنافسة في لعبة كرة الملح كلهم أخوة وأبناء

[1] أي دحرجناها على الأرض بالعصي.

عمومة وخؤولة أو من الجيران المتآلفين، وليسوا محترفين دوليين. وقد جرت العادة على أن ممارسي هذه اللعبة لا بد أن يكونوا من الرجال البالغين والمتزوجين، وإذا مارسها بعض الصغار فذلك مجرد تقليد للكبار أو تدريب على اكتساب مهارات اللعبة.

ثانياً- ألعاب فكرية:

من عادة البدو أن يجمعوا الحصى أو الحجارة الصغيرة في أيديهم عند جلوسهم لمناقشة القضايا الهامة. فتراهم يُفرغون تلك الحجارة من اليد اليمنى إلى اليسرى والعكس، ربما بدون شعور منهم لانشغالهم بالحديث أو التفكير فيه. وإذا أردتَ الحكمَ على أنهم اتفقوا أو اختلفوا عقب التداول، عليك بمعاينة مكانهم بعد المغادرة، فإذا كانت الحجارة متكدّسة فوق بعضها فذاك دليل على أنهم اتفقوا، فتركوا الحجارة بكل هدوء وانسحبوا. أما إذا كانت الحجارة متناثرة فذاك دليل على أنهم اختلفوا، فقذفوها بغضب وانصرفوا. ومن جهة ثانية اعتاد البدو على جمع بعر الإبل (الجلّة)[1] بقصد استعمالها كوقود للطهي والتدفئة. وهذين العنصرين (الحصى والجلّة) ربما كانا سبباً في اختراع ألعاب مناسبة لهما، كان من أهمها: لعبة الخربقة للكبار، والتشّة للصغار:

[1] في العربية (الجلّة والجليلة)= الناقة. و(الجلّة جمع جِلّة)= البعر الذي لم يتكسّر. (ابن منظور: اللسان).

أ- الخربقة:

في الأصل العربي: خربق النبت= اتصل ببعضه البعض، كما تعني التربص بالفرصة ليثب الواحد على ثياب خصمه[1]. والواقع أن لعبة الخربقة كذلك، حيث تتصل مربّعاتها ببعضها البعض، ويتربص اللاعب بالفرصة للانقضاض على كلب خصمه ويأكله! كما سنرى. و(الخربقة) مشهورة عند البدو، بل هي شطرنج البدو في ليبيا ولعبتهم المفضلة. ويتعاطاها في الغالب كبار السن ممن تركوا مسؤولية القيام بالأعمال اليومية للأبناء والأحفاد، واكتفوا بإصدار الأوامر وتوجيه الإرشادات النابعة من خبرتهم الطويلة، فلا يجدون غير الركون إلى (أندادهم الشيابين) لتجاذب أطراف الحديث، أو الاستمتاع بـ(طُرح خربقة)، وأحيانا تكون (الخربقة) أهم من الحديث الذي لا طائل من ورائه. فيجلسون (حانيين أركابهم) ساعات طويلة يلعبونها أو يشاهدون من يلعبها، فتراهم يؤيدون هذا وينتقدون ذاك، بل ويغضبون أحياناً ممن أخطأ اللعبة ويتهمونه بالغباء وجهل أصول اللعبة، وكما يقال: (المتفرج فارس).

وهذا لا يعني أن (الخربقة) حكر على كبار السن فقط، بل ولصغار الرجال والشبّان نصيب فيها. فكلما سنحت لهم الفرصة ووجدوا في يومهم وقت فراغ أسرعوا إلى (الخربقة) وانكبّوا عليها بلهفة. غير أن مشاغلهم اليومية لا تسمح لهم بالبقاء ساعات طويلة حول رقعة (الخربقة) مثل ما يفعله كبار السن، فيكتفون بعدد بسيط من الأشواط ويهمّون بالعودة إلى أعمالهم.

---

[1] اللسان.

تبدأ اللعبة بتهيئة مسطح من الرمل الناعم، وتُحفر فيه حفر بواسطة أصابع اليد الأربعة، على هيئة جداول متوازية عددها الإجمالي (40) حفرةً أو داراً، تتزعمها جميعا دارُ الوسط في مركز المربعات، وهي بذلك تشبه رقعة الشطرنج ومربعاته. ويُجهّز لها عدد من قطع (الرّشاد) وهي الحجارة الصغيرة، و(الجلّة) وهي بعر الإبل الجاف. وتُسمّى كل قطعة منها (كلب)، وهي كالبيادق في الشطرنج، وكل لاعب له (14) بيدقاً أو كلباً.

يبدأ المتنافسان برمي (الكلاب) في (الديار) على التوالي، ويسمون ذلك بـ(البني)= البناء أو (النزول)، وهو يحتاج لدقة فائقة في اختيار الديار المناسبة للكلاب بحيث لا يقع إحداها بين كلاب المنافس. هنا ينظر البادئ الأول باللعب إلى وضع الكلاب، فإذا وجد كلب منافسه بين كلبين من كلابه يقذفه خارج الرقعة ويعلن موته قائلاً: (كلبك مات)، ثم يحرك كلباً آخر متجنباً وقوعه بين كلاب خصمه الذي يقوم بنفس الحركة. وهكذا كلما وقع كلب اللاعب بين كلبي خصمه يقذفه خارج رقعة اللعب، إلى أن تتغلّب كلاب أحدهما على كلاب الآخر وتقتلها بإخراجها خارج الرقعة، فيفوز بالشوط. ثم يعاد بناء (الطُرح)[1] من جديد وهكذا.

وهناك طريقة الفوز ليس عن طريق قتل الكلاب بواسطة وقوعها بين كلاب المنافس، وهي طريقة (الهف): الفارس باثنين. وهي إذا وضع اللاعب كلبا، ولم يجد المنافس منفذا للدخول يضطر للتنازل عن كلبين من كلابه معلناً موتهما مقابل كل كلب من كلاب اللاعب الذي أغلق المنافذ. وإذا تكرر (الهف) ثلاث مرات ينتهي الشوط بفوز المخطط له. وقيل في هذه الطريقة شعراً:

---

[1] الطُرح: بضم الطاء: الشوط.

(سبعة لعبو الخربقة في شارب شين.. ومابهى خلاص الدين..
ويطلب هف الخربقة الفارس باثنين).

وهذه اللعبة تجد اهتماماً كبيراً لدى كبار السن كما ذُكر. وقد تصل بهم الحماسة إلى درجة الغضب الشديد، خصوصاً إذا اكتشف أحدُهم أن منافسَه تحايل عليه أو غشّه في تحريك كلابه بما يخالف قواعد اللعبة. وقد يصل الأمر أيضاً إلى درجة (النّغرة) وهي غضبة عنيفة تنتاب العصبي الذي يرفض الهزيمة ولا يحتمل وطأتها ويصرّ على عدم الاعتراف بها، فيلقيها بكل ثقلها على كاهل منافسه. وفي كلا الغضبتين يقوم الغاضبُ – عادة – بإفساد رقعة اللعب ويُخلط الرمل بما حوته من كلاب، وينهض منتفضاً غير مكترث بـ(شملة جرده) التي تكنس الأرض وراءه. ولكن العرفَ سيد المتخاصمين، والبدو لهم أساليب عدة للترضية وجبر الخواطر. وما هي إلاّ لحظات حتى تُنصب الرقعة من جديد وتعود الكلاب إلى ديارها، وكأن شيئا لم يحدث، ويُعاد (الطُرح) الذي يموت عدة مرّات في اليوم الواحد! إلاّ أن (النغرة) قد تستبد بأصحابها فيصير الضرب بالدبابيس بين الفرق المتخاصمة هو الفيصل، وذلك قبل أن يحصل الصلح المعتاد في مثل هذه الحالات من قبل أناس محايدين لا دخل لهم في اللعبة. وعادة يتدخل أصحاب الجاه والشرف والبركة مثل العجائز الهميليات وغيرهن.

ب- التشّة:

وهي كالخربقة في بناء ديارها. إلاّ أنها لا تتجاوز ثلاثة جداول متوازية، كل جدول به ثلاثة ديار، أي تسعة إجمالا. ويمكن نحتها يدوياً في مسطح الرمل أو تخطيطها ورسمها عليه. وبيادقها أيضاً من الحجارة والبعر أو نواة التمر، وعددها ثلاثة من كل نوع، أي ستة إجمالا. وبما أنها لعبة أطفال فهي أسهل من الخربقة، وقد تُعتبر تدريباً عملياً لحذق لعبة الخربقة مستقبلا.

توضع الكلاب في الجدولين على الأطراف ويُترك الجدول الأوسط فارغا. ويبدأ اللاعب الأول بتحريك كلب من كلابه إلى الوسط، ويفعل الثاني كذلك. المهم ألاّ يترك الواحد للآخر فرصة إعادة رصف كلابه الثلاثة في اتجاه واحد عمودياً أو أفقياً أو قطرياً. وإذا تمكن أحدهما من ذلك يصيح في وجه صاحبه: (تشّة)، وتُحتسب نقطة لصالحه. وتعاد اللعبة برصف الكلاب على جنبي الرقعة، وهكذا. ويبدو أن لفظ (تشّة) أصله من الصوت الذي يُؤمر به الحمار للتوقف. وهو من العربية (تشا) لزجر الحمار[1]. كما لو كان اللاعب الفائز يزجر منافسه ويزدريه ويأمره بالتوقف عن تحريك كلابه مثلما يأمر الواحد حماره بالتوقف عند نقطة معينة. وهذه الإهانة قد تُحفّز اللاعب المهزوم على التحدّي وردّ تلك (التشّة) المهينة إلى منافسه في الشوط الموالي.

وهذه اللعبة رغم بساطتها تحتاج لكثير من التركيز والتفكير بما يلائم عقلية تلك المرحلة العمرية المبكّرة. لذا كانت من الألعاب الفكرية التي تعاطاها الآباء والأجداد في صغرهم. وهي تقابل شبكات الكلمات المتقاطعة والضائعة التي

[1] إبن منظور، اللسان.

تنشر على صفحات الجرائد والمجلاّت في يومنا هذا. إلاّ أن أهلنا الأوائل لم يتعاطوا الطباعة والورق، بل كانت البيئة الطبيعية مصدراً لثقافتهم ومعلّماً لأبنائهم وفصولاً دراسية تمتد مساحتها بامتداد البصر في الأفق البعيد، سطوحها الرمال الناعمة وأقلامها الأصابع الخشنة ووسائلها التعليمية كل ما تجود به الصحراء دون استثناء. فاستلهموا منها الدروس التي نقلوها إلينا بكل أمانة قبل أن تلين أصابعنا وتلامس أزرار الحواسيب وأجهزة التحكم عن بعد، ومشاهدة العالم، بل ومخاطبته باللغة التي يفهمها، دون أن يبرح الواحد منا مكانه. كما لو كان العالم تغلّب علينا في (طُرح تشّة) فتوقفنا عن اللعب، واكتفينا بالمشاهدة والتفرج عليه من بعيد!

ج- السيزة (أو السيق):

(السيزة) في الأساس (سيجة) بجيم قُلبت زاياً، على عادة الليبيين، مثل: (عزوز)= عجوز، (زوز)= زوج، (زازية)= جازية.. ويقول علماء المصريات أن (السيجة) لعبة فرعونية كان يمارسها قدماء المصريين. وربما تكون أساساً، أو إحدى أسس لعبة الشطرنج. وقد شاهدتُ -منذ سنوات- شريطاً سينمائياً تاريخياً به مشهدٌ رائعٌ يمثل كيلوبترا وعشيقها بطليموس يلعبان (السيجة) على متن إحدى مراكبها في النيل، وذلك بواسطة إلقاء مكعّبات ملوّنة فوق رقعة اللعب. وتعتمد (السيجة) على أهم عنصرين: رقعة اللعب وحساب الأهداف. والبدو يسمّون (الخربقة) أيضاً (سيزة) أي (سيجة)، والجيم القاهرية تُنطق في ليبيا (g) أي (Seega)= (سيقة)، ومذكرها (Seeg)= (سيق).

وكانت أمّي – وهي أصيلة مدينة الرجبان بالجبل الغربي– قد علّمتني لعبة تسميها (السيق). وتتكوّن من رقعة اللعب = (مربعات أو ديار محفورة على سطح الرمل الناعم)، ومن (البيادق أو الكلاب وهي من الحجارة الصغيرة وبعر الإبل)، أما أداة اللعب فهي (عبارة عن أربع عصيٍّ متساوية من جريد النخل، لا يتجاوز طولها العشرين سنتمتراً، مشطورةً طولياً، بحيث تكون لها بطون بيضاء وظهور خضر)[1]. تُمسك العصيّ مجتمعة بقبضة اليد وتُقذف على الأرض. فإذا قُلب ثلاث منها وظهرت خضراء، وبقيت واحدة وظهرت بيضاء، تُحتسب نقطة، وتُسمّى (سيق). وإذا كانت اثنتان باثنتين، تُحتسب نقطتان، وتُسمّى (ذُكّان) أو (ذُركان). وإذا بقي ثلاث منها بيضاء، تُحتسب ثلاث نقاط، وتُسمّى (ثلاثة). وإذا بقيت كلها بيضاء، تُحتسب أربع نقاط، وتُسمّى (أربعة). أما إذا قلبت كلها وظهرت خضراء، تُحتسب ست نقاط، وتُسمّى (ستة). وتتحرّك الكلاب على الرقعة بحسب تلك النقاط. ومن حق اللاعب أن يعيد اللعب إذا حصل على (سيق) وهو فاتحة اللعب، وكذلك (أربعة) و(ستة)، وما عدا ذلك فيفسح مجال اللعب لغيره.

وأفضل نتيجة يحصل عليه اللاعب في المرّة الواحدة تكون (سيق وأربعة). لذا كان الناس يتفاءلون بهذه النتيجة في حياتهم العامة، فيقولون مثلا= (تلك العملية مرّت: سيق وأربعة)، أي أنها مرّت في ظروف جيدة ونتيجتها حسنة، ربما لأن حاصلها (خمسة) الذي يرمز لدرء العين الحاسدة، وكلّها في اللون (الأبيض) الذي يرمز إلى الصفاء والسماحة. ويتغنى طالب[2] المحفل في العُرس

---

[1] البطن البيضاء مسطحة، وتمثل لون قلب العصا من الداخل. والظهر الأخضر مقوّس، ويمثل قشرة العصا الخارجية.

[2] يسمّي البدو الرجل الأسمر الذي يغني في الأفراح: **طالب**. وكذلك الشاعر.

بمن يدفع له أكثر في عملية (التبريح)[1] فيمدحه بالقول: (طراشيق، ومضحكه سيق، وصبّوا العسل فوق نابه)= (الطراشيق= زوبعة البرق والرعد الشديد، ويستعير السيق للتعبير عن بياض أسنانه، لأن السيق يعتبر العصا البيضاء الوحيدة بين العصيّ الداكنة، كما يشبّه كلامه الحلو بالعسل المسكوب على نابه). وخلاصة القول أن لعبة السيق مشهورة عند الصيعان حتى وإن لم يمارسها بعضهم، لأنها لعبة مشهورة في الجبل أكثر من الجفارة.

وتتفق لعبة (السيق) مع الخربقة في كونهما يرتكزان على رقعة المربعات المحفورة أو المنحوتة في الرمل، ولهما كلاب من الحجارة وبعر الإبل، وتكون فيهما الغلبة بأكل الكلاب أو موتها وإخراج أكبر عدد منها خارج رقعة اللعب.

---

[1] يبرّح: يذكر اسم من دفع له المال بصوت عال أمام النسوة ليزغردن عليه. والفاعل: برّاح.



الفصل الرابع

العادات والتقاليد

تمهيد:

العادات: كل الأفعال والأقوال التي اعتاد الناس عليها. والتقاليد: كل ما يأخذه الواحد عمن سبقه ويقلّده فيه. وهذه العادات والتقاليد قد تتحول إلى أعراف وقوانين اجتماعية لا يمكن للبدوي مخالفتها والخروج عنها حتى وإن لم يقتنع بها، ويُعتبر الخروج عنها خروجاً عن الجماعة. فكانت في الزمن الأول بمثابة المدرسة الاجتماعية الإجبارية التي يجب أن ينهل منها الجميع ثقافتهم. وخوفاً من مخالفة تلك العادات والتقاليد من قبل الناشئة المتمردين دائماً، يقيّدها الكبار بقيود دينية، سواء كان ذلك بدراية أو بدونها. فيأخذها الصغار عن الكبار كما لو كانت مسلّمات غير قابلة للنقاش. ومع مرور الزمن تصير منهاجاً فلسفياً اجتماعياً عاماً يتقيد به الجميع ولا يحيد عنه أحد. غير أن ذاك المنهاج قد لا يبقى على حاله دائماً، فقد تتغير بعض عناصره بفعل المؤثرات والمتغيرات الزمنية، سواء عن طريق الاختلاط بالغير، أو عن طريق تعلم بعض الأفراد من ذوي الحظوة في مجتمعهم، فتتغير النظرة تجاه ظاهرة اجتماعية معينة وتعاد صياغتها ووضعها في إطارها الجديد، وهكذا.

وعلى سبيل المثال لا الحصر، تلتزم الفتاة الصويعية بلباس اللون الأزرق الغامق المائل للسواد، ويُرجع أهلُها ذلك إلى توصية الجد الأول الولي الصالح (سيدي امحمد أبو صاع). فلا تطالب الفتاة بغير ذاك اللون ما دامت عزباء في بيت أبيها. أما إذا تزوجت فلها الحق في لباس الأقمشة الملونة والمزهّرة التي

تريدها. كما أن الفتى لا يتخلّى عن جرده وكبّوسه، عازباً كان أو متزوجاً. وبقي هذا التقليد إلى وقت ليس ببعيد من الآن. وما ينطبق على اللباس ينطبق على تصرّفات أخرى، وذلك مثل التفاؤل والتطير والنظرة للأمور الميتافيزيقية كالعين الحاسدة والسحر والجن والأرواح الخفية والظواهر الطبيعية والأمراض الغامضة، وطرق الشفاء منها وتجنب أهوالها. وكلها أمور مؤثرة في التصرفات، أقوالاً كانت أو أفعالاً. غير أن تلك المفاهيم بدأت تتناقص مع ازدياد الوعي بها وارتفاع نسبة المتعلمين بين أفراد المجتمع البدوي. وإذا أردنا مقارنة اليوم بالأمس لوجدنا أن كثيراً من العادات والتقاليد التي كانت حدوداً لا يمكن لأجدادنا تجاوزُها وقد قُلبت عند أبنائنا رأساً على عقب، وصارت تُنعت بالعادات التقليدية البالية. فالفتاة الصويعية لم تعد تلبس الأزرق الداكن وهي تسير متأبطة الكتب في الطريق إلى الجامعة، والشاب الصويعي لم يعد متدثرا بجرده وكبّوسه وهو يداعب لوحة مفاتيح الحواسيب ويخاطب العالم بواسطة شبكة الإنترنت العالمية. وكلاهما مطمئن من أن جده راض عنه، فسيدي (امحمد أبو صاع) لم يكن -يوما- ضد تطور أبنائه ورقيهم!

وحول هذه العادات والتقاليد التي كانت -في يوم من الأيام- حدوداً لا يمكن اختراقها، نقدم في هذا الفصل بعض العينات التي أثرت في تصرفات البدو، وجعلت لكل قبيلة خصوصيتها في ممارسة حياتها، مركزين بالخصوص على قبائل الصيعان، للاطلاع على أنماط التفكير عندهم، ونظرتهم للحياة من حولهم، وتسخير إمكانياتهم العقلية في الاحتفال بالأعياد الدينية والمناسبات الخاصة، وفي

كل ما يتصل بالعلاقات الاجتماعية المرتكزة على العادات والتقاليد والأعراف السائدة بينهم، والتي باتت تعرف عندهم بـ(الأسبار)، أي سبر الأمور وتجربتها.

أولاً- المناسبات الدينية:

الصيعان – في زمن بداوتهم وبُعدهم عن مراكز العمران – كانوا يعتمدون على فراستهم البدوية وتقديرهم للمكان والزمان. فيتعرّفون على الأماكن بواسطة شم تربتها ومعاينة نباتاتها، ويحددون الاتجاهات بواسطة الشمس نهاراً والنجوم ليلاً. أما الزمان فلهم القدرة على تقسيم فترات اليوم باستخدام عدة طرق بدائية كانت لهم بمثابة الساعة الأرضية التي تحدد المواقيت، وذلك مثل مراقبة ظل عود يثبتونه في الأرض، مع الأخذ في الحسبان فروق التوقيت بين يوم وآخر وفصل وآخر. كما يستدلّون بالنجوم في تحديد المواقيت ليلاً. فكان لهم ذلك وسيلة مفيدة لمعرفة مواعيد الصلاة ما داموا بعيدين عن صوامع المساجد التي يُسمع منها الآذان فقط في المدن والقرى. أما شهور السنة فهم ينظرون دائماً إلى السماء ويتطلعون إلى الأهلّة التي تولد مع بداية كل شهر قمري جديد. وبواسطتها يحددون مواعيد المواسم الدينية مثل بداية شهر الصيام ونهايته والاحتفال بعيد الفطر، ويوم (الوقفة) لمعرفة بداية موسم الحج والاحتفال بعيد الأضحى، ورأس السنة الهجرية، ويوم عاشوراء، والمولد النبوي الشريف..

وقد أثّرت طريقتهم في تحديد المواقيت اليومية والشهرية والسنوية على أسماء الشهور القمرية، التي يسمّونها (الشهور العربية)، والتي اختلفت أسماؤها

عندهم عن التقويم المتعارف عليه. ونورد فيما يلي أسماء الشهور (البدوية) قرين كل شهر قمري:

6 – محرّم: عاشورا (لوقوع يوم عاشوراء فيه).

1 – صفر: تومي عاشورا، أي توأم شهر عاشورا: محرّم (لأفضلية شهر محرّم الواقعة فيه عاشوراء).

5 – ربيع الأول: المولد (لوقوع مولد النبي الكريم فيه).

4 – ربيع الثاني: تومي المولد، أي توأم شهر المولد (لأفضلية شهر ربيع الأول).

3 – جماد الأول: جاد، أو المنسي الأول (لعدم وقوع حدث هام فيه).

1 – جماد الثاني: جماد، أو المنسي الثاني (مثل سابقه).

5 – رجب: رجب (كما هو).

0 – شعبان: شعبان، أو القصيّر (لأنه يمر بسرعة نتيجة انشغال الجميع بالاستعداد لاستقبال شهر رمضان المبارك).

1 – رمضان: رمضان (كما هو).

68 – شوال: العيد الصغير (يصغّرون عيد الفطر ويكبّرون عيد الأضحى).

66 – ذو القعدة: بين الأعياد (لوقوعه بين العيدين، وخلوّه من أي حدث مهم).

61 – ذو الحجّة: العيد الكبير (يكبّرونه تعظيماً لمناسك الحج).

وبهذه الاجتهادات الفطرية البسيطة يكون للبدو تقويمهم السنوي وعلومهم الفلكية الخاصة بهم. ولكنهم لا يستغنون – بأي حال من الأحوال – عن الأخبار القادمة من المدن والقرى القريبة من مضاربهم، فهم لا ينأون دائماً بعيداً عن العمران، بل يبقون – في أغلب الأحيان – قريبين منه بحسب الظروف

المعيشية، يجلبون منه حاجاتهم، كالشاي والسكر والزيت والملح وغيرها من مواد التموين، والأدوات المصنوعة كالمحاريث والمناجل والغرابيل.. والأقمشة والملابس.. والمواد الدقيقة كالأمشاط والإبر والخيوط وأدوات الزينة والعطور والبخور[1]، وغيرها. إلى جانب ذهابهم إلى الأسواق لبيع المواشي والحبوب.. وحضور جلسات المحاكم. ومن خلال هذا الاتصال المباشر –حتى وإن كان متقطعا ومتباعد الأزمان– كانوا أيضاً يجلبون من المدن الأخبار عن بدايات الشهور وحلول الأعياد زيادة في التأكيد. وكانوا يخافون دائماً من تأخيرهم أو تبكيرهم في موعد بداية شهر رمضان ونهايته، فيرسلون المراسيل إلى أقرب مدينة أو قرية، وينتظرون عودته بفارغ الصبر ليأتيهم بالخبر اليقين، فيقبلون على أداء مناسكهم بنفس مطمئنة بعيداً عن الشك. أما إذا كانوا بعيدين جداً عن العمران فقد تطمئن قلوبهم لما يمليه عليهم اجتهادهم في تحديد بداية ونهاية الشهور.

أما العبادات اليومية فلا ينتظرون قدوم أخبارها من المدينة لعدم احتمالها الانتظار، لذا فهم يعتمدون على تقديراتهم الخاصة، بواسطة مراقبة حركة الشمس في السماء وظلال الأشياء على الأرض، كما ذُكر. أما الصلوات الليلية فالبدو أكثر من الحضر تقديراً لظاهرتي غروب الشمس وشروقها، لأنهم يعيشون في العراء ويمكنهم رؤية الشمس عند ظهورها أول النهار واختفائها في نهايته، وذلك بواسطة النظر في الأفق الممتد إلى آخر نقطة تلتقي فيها السماء بالأرض دون حواجز طبيعية كانت أو صناعية. وهذا بطبيعته يمكّن البدو من تقدير حركة الشمس وتحديد مراحلها بين الشرق والغرب، وبالتالي يستطيعون تقرير الوقت المناسب

[1] وهذه الأدوات الدقيقة عادة ما يوفرها التجار المتجولون من اليهود الذين يجوبون الصحاري بحميرهم المحملة بالنفائس.

لصلاتي المغرب والصبح والإفطار والإمساك عند الصيام. أما صلاة العشاء فقد ينظرون إلى النجوم الساطعة في سماء الصيف وتحديد موعد الصلاة. وقد يكتفون في ليالي الشتاء بتقدير موعد صلاة العشاء بلحظة شعورهم بالنعاس، لأن البدو ينامون مبكّرا ويستيقظون مبكّرا، وساعات النوم عندهم محددة ومنتظمة بصورة تجعل زمن السهرة محدداً أيضاً، فيقومون للصلاة قبل الخلود للنوم.

أ- عيد الأضحى:

كبقية المحتفلين بهذه المناسبة يقوم الصيعان بذبح الأضاحي، بل وبذبح الخراف في اليوم التاسع، أي يوم (الموسم) أو (الوقفة). أما الأضاحي فلها مراسمها الخاصة. حيث يجوّعون الخروف ويُعطّشونه، ولا يقدّمون له الماء والطعام إلاّ قبل الذبح مباشرة، ولهم في ذلك حكمة: فالتجويع يُخفف كمية الفرث في جوف الشاة، والشراب بعد العطش يساعد على تنظيف أمعائها ويزيد من سيولة دمائها والتخلص منها عن طريق الأوردة والشرايين أثناء الذبح. لذا جرت العادة أن يقدّموا للخروف بعد صلاة العيد مباشرة حفنة أو مدّاً (لوح) من الشعير وكثيراً من الماء، ويحرقون أمامه البخور (الجاوي). ثم يبسملون ويكبّرون، ولسبب من الأسباب يذكرون اسم أحد أفراد الأسرة، حيث تُسمى الأضحية في تلك السنة باسمه، ربما يكون رب الأسرة. وبعد الذبح يُوضع الملح في حفرة الدم وتُردم، ويُنصح الأطفال بعدم تخطيها أو المرور فوقها بدون بسملة، ويُسمونها (باسم الله العظيم). ثم يلتفتون إلى الشاة المذبوحة للشروع في سلخها (قبل أن تبرد). حيث يتخلّصون من جلدها بطريقة السلخ إذا أرادوه فراشاً أو رقعةً، أو بطريقة السمط

للاستفادة منه في أغراض أخرى كالقرب والمزاود وما إليها، والأخيرة تحتاج لمهارة نادرة. ثم تُعلّق الشاة وتُستخرج أمعاؤها. ويحرصون على عدم تقطيعها في يوم العيد الأول، بل تبقى معلّقة ثلاثة أيام متتالية، فذلك عندهم (سبر)[1] لا يُخالف. والبعض يأخذ في اليوم الثاني (الطابق) أي الكتف وجزء من عظام الصدر، وتجتمع العائلات لطهيه وتناوله. ولكن الأغلبية لا يمسّون الخروف في اليومين الأول والثاني، ويردّون على الأطفال الطامعين في قليل من الشواء بالقول: (موش باهي)[2]، إلى درجة أن هذا اللفظ ترسخ في أذهان الأطفال على أنه (حرام). فيكتفون بشواء جزءاً من الكبد. وقد اعتادوا على نثر قليل من الكبد المشوي في الهواء، معتقدين أنها حصة (الملائكة) من كبد الأضحية! كما اعتادوا على معاينة مرّارة الشاة وتعليقها، خصوصاً إذا كانت مكتنزة بالسائل الأخضر، معتقدين أنه يمثل ميزانية ودخل الأسرة في السنة القادمة، ويغضب من يجد مرارة خروفه قليلة السائل.

وقد يستعيد أفراد الأسرة نشاطهم في اليوم الرابع لعيد الأضحى، حيث يقوم رب الأسرة بتقطيع الشاة، ويرنو الأطفال إلى قطع من اللحم، فلا يحصلون على غير الستار الحاجب للقفص الصدري للشاة، يسمى: (الشلافيط) أو (الشفاطات)، فيشوونها. لذا تكون عملية تقطيع اللحم أسعد لحظة عند الأطفال، وهم يراقبون رب الأسرة يشرّح اللحم، تساعده زوجته في تقديده وخلطه بالبهارات اللازمة للقديد، وهذه عادة كان يمارسها كل الليبيين حيث يحتفظون باللحم المقدد طيلة السنة، والاستمتاع بوجباته الشهية في فصل الشتاء. كما تقوم الزوجة

---

[1] **السبر**: عادة شعبية تمت تجربتها في الماضي وتبين صدقها فأصبحت مقدّسة ولها حرمتها. والسبر في اللسان: التجربة والخبرة.

[2] **موش باهي**: ليس حسنا، وهي توحي بأنها أقل من كلمة (حرام).

بليّ المصارين على قطع من (المعلاق) و(الكرشة) والشحم، وتجهيز العصبان المقدد الذي اعتاد البدو على تناوله في يوم عاشوراء. أما الكتف الأيمن فيُطهى ويُحتفظ به كاملاً دون تقطيع إلى يوم رأس السنة، أي يبقى مغموراً في الدقيق وملفوفا في الجلد طيلة عشرين يوماً. حيث تحتفظ عظمته بأنباء ما قد يحصل للأسرة في تلك السنة!

وعن سُنّة (أو سبر) عدم تقطيع (سقيطة) العيد في اليوم الأول، فيحكى أن شاباً عاد من المدينة – بعد سنوات من الدراسة والتعلّم – رفض تلك العادة وأقنع أباه بالتخلّي عنها، وأكّد له أن لا علاقة لها بالدين. فقبل الوالد ذلك على مضض. وفي نفس السنة أكلت الذئاب بعض الخراف، فأرجع الوالد سبب ذلك إلى اختراقه عادة آبائه وأجداده. إلاّ أن الشاب أصرّ على موقفه. وفي العام الثاني توفّى أحد أفراد الأسرة، فأرجع الوالد سبب ذلك إلى تلك (البدعة) التي جاء بها ابنه من المدينة! وفي العام الثالث حصل أيضاً ما نغص على الوالد حياته. ولا يزال الشاب على رأيه، وأقنع أباه بأن كل ما حصل كان قضاءً وقدراً ولا علاقة له بتقطيع الشاة في أول أيام العيد. وجاء العام الرابع بأحداث سارة ومفرحة، فاقتنع الوالد برأي ابنه، ولم يعد متشبثاً بالاحتفاظ بشاة العيد مدة ثلاثة أيام كاملة. ويُعلّق راوي هذه القصّة أن ذاك الوالد تخلّص أخيراً من (الشيطان) الذي كان يفسد عليه عقيدته!

ومن أسبار عيد الأضحى أيضاً عدم طهي (النعمة) أي الوجبة المعدّة من الشعير أو القمح إلاّ في مساء اليوم الثاني. حيث يكتفون في صباح اليوم الأول

بتناول (اللفاد) = الفؤاد، أي الكرشة والكبد والرئة والكلى.. وفي الليل يتناولون لحم الرأس، ومن يخالف ذلك قد يتعرّض للأذى كالموت وفقدان الغنم..

ومع مرور الزمن ثبت أيضاً عدم صحة التنبؤات التي تأتي بها طلاسم الكتف الأيمن لخروف العيد. كما ثبت عدم وجود علاقة بين سائل مرّارة الخروف وميزانية الأسرة ودخلها السنوي. إلاّ أن مسألة تجويع الخروف وتعطيشه قبل يوم العيد والإصرار على شرابه قبل الذبح قد يكون مفيداً في زمن ندرة المياه، ويساعد ربة الأسرة على تنظيف (أمعاء ومصارين وبطن وكرشة) الخروف بأقل كمية من الماء، مما يمكّنها من إعداد العصبان المقدّد بصورة جيدة. كما ثبت – مؤخراً – أن تناول اللحم مباشرة بعد الذبح غير مفيد من حيث اللذة والقيمة الغذائية، لذا يُنصح بترك الشاة مدة أربع وعشرين ساعة قبل تقطيعها وتناول لحمها، وهذا ما تفعله بعض المطاعم الراقية في أوروبا حالياً. ولعل أجدادنا الأوائل تفطنوا لذلك، فلم يجدوا في ثقافتهم البدائية غير كلمة (موش باهي)، وحرّموا علينا أكل لحم خروف الأضحية طازجاً في أول أيام العيد.

ب– رأس العام:

أهم تقليد يتميز به رأس السنة القمرية تلك البدعة التي يمارسها البدو بعد أكل لحم الكتف الأيمن لخروف عيد الأضحى. فيقوم رب الأسرة –إذا كان عارفاً لمعاني التشققات التي بعظمة الكتف– بقراءة تنبؤات تلك السنة. فقد يُخبرك بالقول: (أنظر هذا مشهد قبر)، أي أن تلك السنة ستشهد وفاة أحد الأقارب أو الأحباب. وقد يعلمك: (هذه ورقة مهمة أو دراهم)، أي أن العائلة

ستستلم ورقة رسمية من الحاكم مثل الإفراج عن مسجون، أو تعويض مالي كانت الأسرة تنتظره، أو رسالة من أحد أفرادها الغائبين. وقد يُخبرك: (هذه طريق طويلة)، أي أنه –دون غيره– سيسافر إلى مكان بعيد وسيجلب الخير لأسرته. وغير ذلك من القراءات التي تتكرر تقريباً مع كتف كل أضحية. وهي تشبه قراءة الكف والفنجان وغيرهما من ترهات يقوم بها المنجّمون والعرّافون في بعض المجتمعات، وكلهم كاذبون ولو صدقوا. والتبرّك بأكتاف الحيوانات عند البدو يعود إلى ثقافتهم الدينية الشعبية، ولكنها متأصلة في التراث الإسلامي، حيث ثبت أن صحابة رسول الله (صلى الله عليه وسلّم) كانوا يكتبون القرآن الكريم على العديد من المسطحات كان من بينها أكتاف الحيوانات لقلة القراطيس عندهم، ولكنهم لا يعيرون اهتماما للتشققات التي بكتف الحيوان.

ج– عاشوراء:

يصادف يوم العاشر من محرّم الحرام عدّة مناسبات دينية، تتعلّق بعشرة أنبياء، مثل آدم وإدريس ونوح ويوسف ويعقوب وموسى وداوود، وغيرهم (عليهم جميعا السلام)، ويضيف الشيعة مقتل الحسين بن علي (كرّم الله وجهه). وهذه الحادثة الأخيرة تجد عند الفرق الشيعية اهتماماً كبيراً، فيحيونها بمراسم تفوق غيرها في مناسبات دينية أخرى. وقد يعود ذلك إلى بشاعة تلك الجريمة وأثرها في قلوب المؤمنين. ورغم أن سكّان ليبيا وبقية الشمال الأفريقي ومصر كلهم من السنّة إلاّ أن جميعهم وقع تحت التأثير الشيعي زمن الدولة الفاطمية. وبقي ذاك

التأثير قائماً إلى زمن ليس ببعيد، بل أن بعض ملامحه لا تزال واضحة في بعض العادات والتقاليد المحلية حتى الآن.

ففي زمن الفاطميين في المغرب العربي ثم في مصر أو في عهد الصنهاجيين، كان الآذان والخطب على المنابر والشعارات شيعية الصيغة والأسلوب، وذلك قبل أن يقطع المعز بن باديس الصنهاجي علاقته مع الدولة الفاطمية في مصر. ثم تبعه مباشرة هجرة أبناء سُليم وهلال من صعيد مصر إلى المغرب العربي، فعاد – شيئاً فشيئاً – العمل بالمذاهب السنية بدل الشيعية. ولكن كثيراً من البدو، خصوصاً المرابطين والأشراف منهم لا يزالون يحتفلون بيوم عاشوراء على أنه إحياء لحادثة مقتل الحسين بن علي، وذلك إما بدافع الانتماء إلى البيت الشريف، أو بدافع حبّهم لها وتعاطفهم معها حتى وإن لم ينتموا إليها. ولا غرو في ذلك، فكل المسلمين يحبّون ويحترمون ويجلّون نسل فاطمة الزهراء ابنة رسول الله صلّى الله عليه وسلّم حتى وإن كانوا من العجم.

وهناك عدّة أدلّة تشير إلى تعلّق الليبيين بآل البيت، وذلك مثل تسمية أبنائهم وبناتهم بـ(أسماء النبي الكريم وألقابه الشريفة)، و(علي)، و(الحسن والحسين) إذا كان المولودان توءمين، و(زين العابدين) و(فاطمة)، و(الزهراء) الذي تحوّل مع الوقت إلى الاسم المحلّي (زُهرة).. ولا يُذكر اسم علي بن أبي طالب إلاّ وسبقه لفظ (سيدنا) وهذا ما لا يحظى به خلفاء بني أمية وبني العبّاس، ولا يُذكر اسم فاطمة إلاّ وسبقه لفظ (اللّلة) أو (للّتنا) أي السيدة وسيدتنا[1]. وإذا ذكروا رقم اثنين يتفاءلون بتمثيله بـ(محمّد وعلي) بل ويستنجدون بهما معا عند الشدائد (يا

---

[1] **اللّلة**: لفظ لا يوجد في غير أقطار المغرب العربي، ربما كان بتأثيري أمازيغي.

محمّد ويا علي). وتتغنّى النسوة في العديد من المناسبات ذاكرات اسم النبي بلقب (بابا فاطمة) و(جد الحسن والحسين). وعندما يروي الرجال القصص الدينية يذكرون علياً بوقار لا يحظى به غيره من الشخصيات الإسلامية. إلى جانب ذكر العديد من القصص والمواعظ التي تكون فيها فاطمة الزهراء مع ابنيها السبطين الحسن والحسين من أبرز شخصياتها.. وغير ذلك كثير من الإشارات التي تدل على حب الليبيين لآل البيت سلام الله عليهم جميعا.

ونعود إلى الاحتفال بيوم عاشوراء ونذكر أن قبائل الصيعان – شأنهم شأن القبائل الليبية البدوية الأخرى – يحيون هذه المناسبة بعدة طرق تختلف بحسب اختلاف النظرة – أصلا – إلى سبب الاحتفال بهذا اليوم الذي تعددت فيه المناسبات الدينية كما سبق الذكر، وكذلك بحسب التقليد والتأثر وانتقال العادات من السلف إلى الخلف بزيادة أو بنقصان، وأغلبهم لا يعي السبب الحقيقي والدافع الأساسي وراء إحياء يوم عاشوراء، فبقي ذلك الأمر مجهولاً عند كثير من البدو إلى وقت قريب من الآن.

فقد يحتفل الصبايا ليلة التاسع من محرّم بإحضار جذع من نبات السدر المشوّك، على أن تحضره فتاة تسمى (فاطمة) أو (عائشة). وتشترك ربات البيوت في نشر أشرطة وسيور من الخرق البالية على أشواك ذاك النبت بحسب عدد أفراد أسرتها، ويطلقن عليه اسم (سيّدنا بلال)، ويعتقدن أن بلالاً توفي في مثل تلك الليلة. ويحطن به وهن يغنين بأصوات حزينة فيها شيء من (مقام الصبا) الحزين، ومن بين ما يقلن:

(يا بلال يبل بلولة، يا بلال اطرشق زوله.. يا بلال خش لمدينة، يا بلال ما عاد يجينا).

وفي الليلة الثانية يشيّعن ذاك النبت بخرقه وخيوطه بعيداً عن مضارب البيوت بمراسم مهيبة تشبه مراسم تشييع الجنائز، مصحوبةً بأصوات ناحبة. ثم يعدن جرياً إلى مكانهن ويكملن السهرة بترديد الأغاني العاطفية البعيدة عن الهم والغم والحزن. أما الفتيان فيضرمون النار في كومة كبيرة من الحطب ويستعرضون قدراتهم على القفز فوق لهيب النار أمام أنظار أمهاتهم وبتشجيع منهن.

وقد يحتفل البعض الآخر من الصبايا قبل يوم عاشوراء بإضرام النار في الحطب بمراح الإبل وراء بيوت النجع. وإحضار جدع من السدر بواسطة (فاطمة) أو (عائشة)، ويضعن عليه الخرق البالية الممزقة، مثل سابقاتهن. ثم يشرعن في الرقص والنخيخ[1]، وهن يغنّين ويندبن ويوجهن كلامهن إلى النساء العجائز فيقلن:

(إندبو يا شايبات.. على نبينا قالوا مات)
(إندبو يا شيب الشيب.. على نبينا ما هو عيب)
(إندبو يا شيب الجنة.. على نبينا ما هو منا).

وفي هذه الحالة لا يكون ذلك إلاّ إحياءً لذكرى واقعة (الطفّ) بكربلاء التي استشهد فيها الحسين. وقد تبدأ مراسم الاحتفال بيوم عاشوراء منذ اليوم

[1] **النخيخ**: رقصة يرقصها الصبايا بواسطة تمايل شعورهن وهن جالسات على ركابهن. والنخيخ في العربية هو زجر الإبل بالقول: إخ إخ، حتى تبرك، أي أنها من حكاية الصوت.

الأول من السنة، ويستمر عشرة أيام متواصلة، إلى أن تبلغ ذروتها في يوم عاشوراء. وهذا ما يفعله بالضبط شيعة العراق. كما يتغنى البنات بمرثية قالتها خادمة البطل (غومة المحمودي) نائحة عليه:

(يا طار غومة طار.. نقلوه في مشوار)،
(يا طار سيد خليفة.. في النجع لا من كيفه.. بعده قعدنا جيفة.. قعاد الحطب في النار)،
(يا طار سيد رقية.. في النجع لا من زيه.. رياسته بحرية.. والنجع بعده حار)[1].

وفي كل الأحوال فهن يغنين ويبرّشن[2] وينعين شخصاً مهماً فقدته الأمة، فيضفين على السهرة شيئاً من الحزن، اعتاده الناس في هذه المناسبة.

ويمارس الصيعان عادة طبخ (العصبان) المقدد المعد من (مصارين وكرشة وشحمة) خروف العيد خصيصاً ليوم عاشوراء. ويكون ذلك مصحوباً بأكلة خاصة تسمّى (الهريسة) وهي مرق غني بحبوب الشعير والبقوليات، تقابل وجبة الفول والحمص التي يجهزها أهل بعض المدن لهذه المنسبة، ويتفق جميعهم على طبخ البقوليات في عاشوراء. أما البدو فيطهون كميات كبيرة من تلك (الهريسة)، ويطلبون من الجميع الأكل حتى التخمة، مدّعين أنه من لم يشبع تلك الليلة سوف

---

[1] نقلت هذه القصيدة من كتاب: **صدى الجهاد الليبي في الأدب الشعبي**، للدكتور/ **محمد سعيد القشّاط**، الصادر سنة 1971، ص46. كما وجدتها منشورة بكتاب: **الأدب الشعبي**، للأستاذ/ **امحمد المرزوقي**، الصادر بتونس سنة 1967، ص 221، ويقول أنها تُغنى بالجنوب التونسي ليلة عاشوراء.

[2] **البرّاش**: نوع من الأغاني طويلة النفس تؤدى جماعيا. **والبرش** في العربية: اختلاط الألوان، **والبرشاء**: جماعة الناس. (اللسان).

لا يشبع طيلة سنة كاملة، وذلك اقتداءً بنصيحة الرسول صلى الله عليه وسلم بالتوسعة على العيال في يوم عاشوراء. حتى (المناصب= الأثافي) الحجرية التي توضع عليها القدور فوق النار تشبع من (الهريسة)! حيث تضع النساء على كل (منصبة) كمية منها. كما يحرصن على التأكد من بقاء الأكل فائضاً حتى الصباح، وإلاّ سيتهمن بالتقصير في تأمين الشبع للجميع.

وقد تعود عادة طبخ الحبوب هذه إلى نوح عليه السلام، حيث يقال أنه أول من اتخذ الحبوب والبقول يوم عاشوراء وهو اليوم الذي رست فيه السفينة على الجودي، فقال: "اجمعوا ما عندكم من الزاد"، فجاء هذا بكفّ ذرة، وهذا بكفّ شعير، وهذا بكفّ حنطة، وهذا بكف عدس...، وهكذا، ثم قال: "أطبخوه جميعاً فقد هنئتم بالسلامة"[1].

ويسمى هذا الطبيخ نفسه عند الصيعان (هريسة). حيث يقوم الصبية – ابتهاجا بهذه المناسبة– بالتجوال بين البيوت للحصول على (الهريسة) رغم كثرتها، أو أي شيء آخر يطمعون في الحصول عليه. وهم يغنّون:

(عاشورا، عاشورا.. اعطوني عاشورتي، لا تنوضلكم غولتي..
غولتي مخنانة، تنوض من الجبّانة)[2].

وهذه اللعبة ما هي إلا نوع من الدعاية وإضفاء جو من الاحتفالية ومشاركة الجميع في إحياء هذه المناسبة.

---

[1] الزلاط، محمد منصور: عجائب المعارف وغرائب الفنون واللطائف، ؟، ص119.

[2] **تنوض**= تنهض. **مخنانة**: يخرج المخاط من أنفها.

وعندما كنّا صغارا كنّا نسأل – بدافع حب الاطلاع – عن معنى تلك الرموز الغامضة، فلا نجد إجابات شافية، إذ يبدو أن آباءنا وأمهاتنا كانوا يجهلون – هم أنفسهم – تلك الرموز والتصرفات التي ورثوها عن آبائهم وأجدادهم دون معرفة سرها، فهي – عندهم – مجرد عادة أو (سبر) لا تجوز مخالفته، وأن الاحتفال بعاشوراء على غير تلك (الأسبار) سيكون (موش باهي) عليهم وعلى أولادهم وأرزاقهم!

د– المولد النبوي:

البدو يسمّون شهر ربيع الأول بشهر المولد تبركاً بمولد سيد الكائنات. حيث يحيون هذه المناسبة بإقامة حلقات الذكر. وليلة المولد يسهر النساء على قلي الفطائر (السفنز) بكميات كبيرة. وهناك من يكتفي بطهي العصيدة التي تُجهّز من دقيق القمح مصحوبة ببعض الدهان كالزيت والسمن والعسل دليلاً على التقشف وتجنب الإفراط في الصرف.

ثانياً- المناسبات الشعبية:

أ–المولود الجديد:

يفرح البدوي إذا أنجبت له زوجتُه ولداً، ليحمل اسمه، ويسمونه (عمارة الدار). وإذا كان الوالد قادرا ماديا يذبح لابنه عقيقة، وإلاّ اكتفت الأسرة بالفرحة وإعداد وليمة متواضعة لا تتعدّى (العيش بالزيت) للرجال و(العيش بالحلبة)

للنساء، حيث تقوم الأم منذ بداية حملها بتجهيز كمية من البقوليات لطبخها عند الولادة، وتعتبر تلك الوجبة غذاء (النافس) التي تساعدها على در الحليب لرضيعها. وقد يقوم الرجال بتقديم بعض الدراهم للأم الوالد يسمونها (النحيلة) وهي عبارة عن بضعة دراهم (فرنك عادة) كنوع من المساعدة المالية لأسرة المولود.

ب- الخِتان:

رغم أن الختان مناسبة خاصة بأهل الطفل المختون، إلاّ انه يُعتبر مناسبة دينية، لأن دخول الطفل للإسلام مشروط أولا بالختان. ويسميه البدو (الطهور) أو (الطهارة)، معتبرين أن استئصال الجزء الزائد من جلدة العضو التناسلي للطفل يطهّره من دنس البول وغيره مستقبلا. وقد أثبت علم الطب الحديث أن الختان يمنع الإصابة ببعض أمراض العصر، وأخطرها: مرض (الإيدز). ويصرّ المسلمون على ختان أطفالهم في سن مبكّرة جدّا، ويُرجع البدو ذلك إلى أن (الجرح يبريه البول). أما إذا أصيب الطفل بمرض -ما- يستعجلون ختانه معتبرينه علاجاً، فيقولون أن (الخلعة) أو (الفجعة) التي تنتاب الطفل عند الختان تُذهب عنه الأمراض، ربما لانشغاله بألم الجرح الجديد فيزول المرض بزواله.

ولما للختان من قيمة دينية عظيمة، يحتفل به البدو ويعتبرونه عُرسا، قد يفوق عُرس الزفاف عند البعض. وعادة ما يختارون له يوم المولد النبوي الشريف. فيقوم الأب بشراء كُسوة طفله كاملة: (سورية)[1] بيضاء من القماش الفاخر،

[1] سورية: قميص.

و(كبّوس)[1] جديد مرصّع بـ(الودع)[2] و(صخاب القرنفل)[3] وغيرها. كما يقوم بتقديم هدية فاخرة إلى زوجته، ويوفر لها كل ما تحتاجه العروس ليلة زفافها. ويجهّز الذبائح لتقديم الولائم للضيوف والمشاركين والأهل والأقارب. ويبدأ الاحتفال بتجهيز الطفل نظافةً وحلاقةً وقيافةً، فيُحلق شعر رأسه كله باستثناء خصلة منه تُسمى (القُطّاية)، فتغني لها النساء قائلات: (نادوا له خالته تظفر له قطايته) وغيرها من الأقارب. وتُكفى قصعةٌ على فراش نظيف (حصيرة عادة) وسط بيت الشعر، وتغطى بالرمل الناعم المنخول، فتغني النساء قائلات:

(فرشنا الحصيرة وغربلنا التراب..
وحضّرنا محمد والشيطان غاب).

ويؤتى بالطفل قبل دخول الخاتن (الطهّار) وعادة ما يكون شيخاً كبير السن يحترف الحُجامة أو الحلاقة وله خبرة في ختن الأطفال. فيتقدم أحد أعمام الطفل لمسكه وتكتيف ذراعيه مع رجليه المنفرجتين فوق القصعة المغطاة بالرمل وفي اتجاه القبلة، ويحيط به الرجال ماسكين رداءً أحمر يغطون به (الطهّار) والطفل معاً. أما الأب فقد يكون حاضراً إذا كان رابط الجأش صبوراً أو يغادر إذا كان رقيق المشاعر عطوفاً. بينما تقف الأم وهي في كامل أبهتها وزينتها أمام بيت الشعر، وقد أحاط بها النسوة يواسينها ويخففن عنها الألم، وقد أحضرن لها إناءً من الماء البارد تضع فيه رجلها اليسرى ليلطف حرقتها ويبرّد لوعتها على ابنها

---

[1] **كبوس**: غطاء الرأس، أو طاقية.

[2] **الودع**: أصداف بحرية.

[3] **الصخاب**: نوع من العطور المعجونة.

المتوجّع، وهي تبكي بدموع حارة، فلا تسقط دمعة حتى تقوم النساء بمسحها من على خدّها، وهن يغنّين ويزغردن بأصوات عالية كي لا تسمع الأم صياح ابنها واستغاثته بها لتخلصه من أيدي هذا الرجل الغريب الذي جاء ليستأصل جزءاً من جسمه. وكن يغنين الأغنية الخاصة بهذه المناسبة، والتي تقول:

(طهّر يا المطهّر، صحّ الله لديك..
ولا توجعلي الغالي، ولا نغضب عليك)[1].

وذلك بلحن يسمى (الصوت) وهو نوع من الغُرب البدوية التي تطال فيها الحروف وتمتد. وكانت النسوة يخففن من ذاك المد وتكسير حدته بإضافة (نون التعدية)، هكذا: (طهر يا نلمطنهر، صنحة الله لدينيك.. ولا توجنعلي الغانالي، ولا نغضنب علينيك)[2].

كما يضفن عليها آهات ببحّة مصطنعة. وهذه الأغنية التي يغنيها نساء الصيعان أثناء ختان أطفالهن، نسمعها أيضا عند الأخوة بتونس، وذلك بسبب تأثر القبائل العربية ببعضها البعض في زمن لم تُصنع فيه هذه الحدود الوهمية بعد.

أثناء إجراء عملية الختان يأمر الرجال الصبي بضرب الخاتن بالعظم وبيضة الدجاج المسلوقة التي في يده لتلهيته عن الشعور بالألم، أو إقناعه بالانتقام

---

[1] **صحّ الله لديك:** سلّم الله يديك. **لا توجعلي الغالي:** لا تؤلمه.

[2] جرت العادة على أن العرب قديما كانوا يضيفون النون، ويعبّر ابن جنّي عن ذلك في (الخصائص) بالقول أن النون زائدة في مثل (عنبس= عبس) و(عنسل= عسل) وغيرهما..

من (الطهّار) عما فعل به. بينما يكون (الطهّار) قد أفرغ من تلك العملية الجراحية المؤلمة التي تمت بدون تخدير، وينشغل بربط الجرح بقطع من القماش النظيف. وتتم عملية الختان بسرعة متناهية لم تكن متوقعة من الأب والأم معاً. وما هي إلاّ لحظات من دخول (الطهّار) إلى البيت حتى يخرج منه الرجال ويسلمون للأم ابنها ويباركون لها دخوله في الإسلام[1].

تجلس الأم أمام البيت، وتُجلس ابنها المختون في حجرها، والنساء محيطات بها. وتضع الكبّوس المخضّب بـ(الدناديش)[2]، ويتقدّم الرجال ويرمون فيه الدراهم، والوالد يراقب ذلك ويسجل كل قيمة يرميها الرجال في الكبّوس، ويعتبره ديناً معلقاً في رقبته سيسدده يوم ختان أبناء أولائك الرجال. ويسمون تلك العملية بـ(الشاشية)، وهي إحدى أسماء الكبّوس. وكان النساء يحفّزن الرجال على رمي المزيد من المال بالزغاريد والغناء عليهم قائلات:

(وين أولاد عمّه وين اللي ثَمْ.. يرموله الدراهم ويزيدو الغنَمْ)،
(وين أولاد عمّه وين اللي حضرْ.. يرموله الدراهم ويزيدو الشجر)،
(وين أولاد عمّه وين أولاد بوه.. يرموله الدراهم ويكيدو عدوه).

[1] نقلت هذه التفاصيل ليس كشاهد عيان فحسب، وإنما نقلت ما حصل لي شخصيا، حيث كنت يومها وقد تجاوزت الخامسة من عمري، فساعدتني السن المتأخرة التي اختارها والدي لإجراء تلك العملية على تذكر تفاصيل ذاك اليوم لحظة بلحظة ومشهدا بمشهد. وكما يقولون: (الصغير ثبّات)، لذلك ثبتت أحداث تلك التجربة القاسية في ذاكرتي، ولا أنساها ما حييت.

[2] **الدناديش**: المعلقات المذكورة آنفا.

ج- العُرس:

العُرس عند الصيعان كان يوماً واحداً فقط، شاملاً لكل العناصر (الكسوة والحنة والجحفة)[1]. ولكن الاحتفال به يمتد إلى أكثر من أسبوعين، أسبوع قبل العُرس وأسبوع بعده. ويكون - عادة - في فصل الصيف، عقب الانتهاء من موسم الحصاد مباشرة. ولاحتفال الصيعان بالعرس يوماً واحداً قصة أسطورية، حيث يقال أنهم كانوا يحتفلون به ثلاثة أيام متتالية مثلهم مثل بقية القبائل المجاورة لهم، غير أن إحدى جدّاتهم هربت تاركةً كُسوتها وقُفّتها في البيت، فقرروا ألاّ تبيت كسوة بناتهم في بيت العروس ولو ليلة واحدة. ومنذ تلك الحادثة صار العُرس عندهم يوماً واحداً رسمياً، حتى لا تتكرّر ظاهرة الهروب مرّة أخرى. وهذا الأمر ليس مستغرباً، فالفتاة قد تكون مُكرهةً على اقترانها بابن عمّها، وجرت العادة على عدم أخذ رأيها فيه، ما دام العُرف يقتضي الزواج العائلي. ويُفنّد البعضُ هذه الأسطورة، ويصرّ على أن حفلة العرس عند الصيعان تستمر ثلاثة أيام رسمية. بينما نرى أن لكل فرقة رأيُها في عدد أيام العرس، ولا يتفق الجميع على أمر واحد بسبب اختلاف الرؤى والظروف الاقتصادية والعادات الموروثة لكل قبيلة أو لحمة أو أسرة. إلاّ أن عادة هروب العروس ليلة زفافها صارت عادة أو (سبر) عند البعض، فيرتّبون لها هروباً مصطنعاً ثم يعودون بها لإتمام بقية المراسم.

تبدأ مراسم العرس مع بداية الأسبوع، وربما قبله بأيام، وتشمل التجهيزات الضرورية للفرح، مثل جلب كميات كبيرة من الحطب لغرض طهو

[1] **الكُسوة**: يوم خاص بإحضار كل ما يلزم العروس من لباس وغيره. **الحنة**: هو يوم الحنّاء التي تُخضب بها النساء أطراف العروس. **الجحفة**: وهي (الهودج) يوم خاص بإحضار العروس إلى البيت الذي أعده لها العريس.

الطعام والإنارة ليلا. وإحضار عدد من المطاحن (رحيّ) لطحن الحبوب، قمحاً كانت أو شعيراً. وللرحى مراسمها، حيث تُبنى لها بيت خاص وتوقد أمامها النيران (سامر)، لأن عملية الطحن تتم ليلاً. ويقوم الرجال بإحضار الخرفان اللازمة للولائم ووضعها في زريبة خاصة خلف البيوت (في المراح). وتشرع النساء أيضاً بخياطة بيت العريس، وهي عبارة عن عدد من الفلجان (جمع فليج) والطرايق[1] (جمع طريقة) المنسوجة بالوبر والصوف، فتُفتح وتُطرح على الأرض (لتمحيطها) وتسوية طيّاتها، ثم تخاط (الفلجان والطرايق) بمراسم وأغاني خاصة، تقول فيها النساء:

(بيت الغالي منين طرحوه..عل الارض مدّوه..حتى المشايخ ما كسبوه).

والمعروف أن بيت الشعر يتكوّن من عدة (فلجان) يصل إلى 11 فليجا، وهو بيت كبير لا يملكه غير القادر ماديا وعادة ما يكون شيخ القبيلة. لذا كانت الأم تفتخر ببيت ابنها وترفع شأنه إلى مرتبة بيت المشايخ حتى وإن كان صغيراً، وفي ذلك تعظيمٌ لمناسبة العرس. ثم يواصلن الغناء مخاطبات البيت:

(يا بيت من قِبلة جديد مخيّط.. خشّك رقيق النقش كيف مبيّت).
(يا بيت من قِبلة جديد مرشّم.. خشّك رقيق النقش كيف موشّم).

والمعنى يجب أن يُبنى البيت في اتجاه القِبلة، ويكون جديدا، لأن من سيدخله (يخشّه) لا بد أن يكون عروساً جميلةً لم يمض على بداية فرحها وقت طويل. كما يجب أن يكون البيت مميزاً بالرسم والزخارف (الرشم)، لأن من

---

[1] **الفليج:** جزء من نسيج بيت الشعر. وفي اللسان العربي (الفليجة) شُقة من شُقق الخباء. **والطرايق:** جمع طريقة، وهي القطعة التي توضع في وسط وعلى أطراف البيت لتحميه من الصواري والركائز والأعمدة الخشبية.

سيدخل (يخشّه) لا بد أن يكون عروساً جميلةً لم يمض على وشم وجهها وقت طويل. (وسنتعرض للوشم في السطور القادمة).

كل هذه المراسم يجب أن تُستهلّ بالصلاة والسلام على الرسول الكريم، على هيئة أصوات تنطلق من حناجر النساء العجائز. حيث تجلس كل واحدة منهن قبالة الأخرى، ويؤدين الصوت أزواجاً أزواجاً، وما أن تُقفل الجملة الصوتية حتى ترتفع ولولة الزغاريد، مصحوبة بدويّ البارود المنطلق من بنادق الرجال. ويتكرر ذلك مع كل مقطع من مقاطع هذه الأغنية التي تقول:

-(صلّى الله على الهادي محمّد.. بابا فاطمة.. برق اللي يهمّد..
صلّى الله عليه).
-(صلّى الله على الهادي الشريف.. بابا فاطمة.. شاشه النظيف..
صلّى الله عليه).
-صلّى الله على الهادي النبي.. بابا فاطمة.. والسيد علي..
صلّى الله عليه).
-صلّى الله على الهادي الشفاعة.. باب فاطمة.. شيخ الجماعة..
صلّى الله عليه).

وهنّ يشبّهن وجه الرسول الكريه بوميض البرق (اللي يهمّد)، ويعظّمن رداءه (الشاش النظيف)، وهو نبينا أبو فاطمة وصهر علي (علينا) وشفيع الأمة (الجماعة). وخلال أداء هذه الأغنية يصيح بعضهن قائلات:

(اللي ما يصلّي على الهادي.. يعطيه الرمد يصبح يدادي).
(اللي ما يصلّي على محمّد.. يعطيه الرمد يصبح يكمّد).
وتعقبها ولولة الزغاريد..

هذه الأغنية النسائية – بسيطة التركيب عظيمة المعنى – لا بد منها، فهي الفاتحة التي يُستهلّ بها العُرس، بل لا يكون العُرس عُرساً بدونها. ومن ثم يبدأ الفرح. فيهتم النسوة من أهل العروس بابنتهن، وينأى الفتيان من أهل العريس بابن عمّهم إلى مكان بعيد عن أنظار أبيه وأعمامه وأخواله، ولا يعود إلى البيوت إلاّ في مواكب معينة ومعلنة مثل مراسم الحلاقة والحنة.. فتحيط به النساء للغناء والزغاريد عليه أثناء إجراء تلك العمليات.

ويتم إعداد (الجحفة)[1] بواسطة النساء العارفات لهذه الصنعة الدقيقة، فقد تُصنع (محليا) وقد تُجلب من خارج النجع. فإذا كانت من خارج النجع تُجلب بمراسم خاصة، وكلما مرت بنجع من النجوع الأخرى تُكرّم بذبح خروف ويُستضاف مرافقوها، إلى أن تصل مكانها. وتُصنع الجحفة من سيقان نبات (السدر) وتُشد بـ(علب البل) وسيور الجلد. وتُلبس بأردية بيضاء وحمراء، وتُعلّق بها الأجراس والجلاجل لتُحدث أصواتا منبّهة، كما تُزيّن الناقة الحاملة لها بأشرطة مزهّرة تسمى: (اللبَبْ)[2].

---

[1] **الحجفة:** الهودج، وهي أكبر من الدربوكة والباصور المخصصان عادة للرحيل.

[2] **اللببُ** في العربية ما يُشدّ على صدر الدّابة أو الناقة، اللسان.

أما يوم العرس الرسمي فيكون عادة يوم خميس. حيث (تُرمى الكسوة) على العروس في الصباح، و(الكسوة) مكوّنة من الملابس والأردية والحلي وأهمها (الخرص والخلال)، والأحذية، والفراش والغطاء كـ(المطرح والمرقوم)، و(القُفّة) المليئة بالعطور والبخور والحناء ومواد الزينة. وتجلب كلّها من مدينة طرابلس. فتخرج محمّلة على ناقة أو فرس من بيت العريس في اتجاه بيت العروس، وكلاهما في نفس النجع أو النزلة عادة، فيضطر مسيّرو الموكب للدوران حول البيوت سبعة أشواط، تبركاً بالطواف حول الكعبة، وأيضاً بقصد إطالة زمن الموكب والاستمتاع بمباهجه وزيادة قيمته الإعلانية وإظهار الكسوة وإشهارها أمام الجميع. إلى أن تدخل كل تلك المحتويات إلى بيت أم العروس، ويحتفل النسوة بمراسم فتح القفّة ووضع الملابس فوق رأس العروس، وتوزيع بعض محتويات القفة على الحاضرات. ومن أغاني الكسوة التي تمجد العريس:

(جاب الكساوي بالزايد.. يبغي الشوايد.. يا سعد من بيه تكايد)[1]،
(جاب الكساوي غير حرير..ترجح نواوير..والغالي يعاند في المدير)[2].

وفي منتصف نفس اليوم يتم الاحتفال بمراسم الحنّاء، حيث تُخضّب يدا ورجلا العروس بعجين الحنّاء، بينما يُحنّى إبهام وكف العريس. وفي مراسم (حنّة

[1] **يبغي الشوايد**: يريد الشهرة. **تكايد**: تكيد لعدوها.

[2] **ترجح نواوير**: تتأرجح فيها الزهور، أي ملابس مطرزة ومزهرة. أما **المدير** فهو صاحب وظيفة محلية مرموقة في الإدارة العثمانية.

العروس) تقوم إحدى النساء (الشوشانات)[1] بزخرفة أيدي العروس بالحنّاء وهي تُغني:

(مدّي إيديك للحنّة.. وارخي ليديّة.. يا أم الخواتم ذهبية)
(مدّي إيديك للحنّة.. وارخي ليصابع.. يا أم الخواتم بالطابع)..[2]

وأثناء وضع الحنّاء أو (التلبيسة) النهائية قبل الخروج من بيت أهلها، تنبهر العروس بالبكاء والنحيب. وهذا البكاء صار عادة عند كل بنت يوم خروجها من بيت أهلها حتى وإن كانت ستُزف إلى فارس أحلامها. ويرى البعض أن الفتاة تشعر بأن بيت أهلها هو بيتها الحقيقي، وأن الزواج ما هو إلاّ نفي اختياري أو اضطراري، فتعبّر عن ذلك بالبكاء عند خروجها من البيت الذي ولدت وتربت وترعرعت وكبرت فيه. وأحياناً ليس بالضرورة أن يكون البكاء حقيقياً، فتسألها (الشوشانة) عن سبب بكائها قائلة:

(علاش تبكي يا ام سوار.. والدمع قطار.. والحلو في فمك مرار)[3].

وهناك عادة متّبعة عند الصيعان، وهي إجراء عملية وشم وجه العروس قبل البدء في مراسم العُرس أو أثنائه. وهذا النوع من الزينة الموغل في التاريخ،

---

[1] **الشوشانة**: المرأة السمراء (الخادم).

[2] **ليديّة** (تصغير يد). **ليصابع**: الأصابع. **الطابع**: الختم الذي تُختم به المعادن الثمينة.

[3] **علاش**: (الأصل: على أي شيء)، أي (لماذا).

يشير إلى دخول الفتاة إلى الحياة الزوجية. ولكنه منهي عنه في الإسلام، ففي الحديث: (لعن الله الواشمة والمستوشمة والمتّشمة)..

والفتاة الصويعية لا تتزين ولا تلبس الأقمشة الملوّنة ما دامت عازبة في بيت أبيها، وستلحقها (دعوة جدها امحمد أبو صاع) إذا خالفت ذلك. أما في حفلة زفافها فيحضر لها والدها (الوشّام) ليحدث في جبينها وأرنبة أنفها وأسفل شفتيها علامات وزخارف بواسطة جروح تُطلى بالسخام الأسود، وتُعتبر زينة لها. كما يُشترط أن يكون ضمن الكُسوة رداء أحمر اللون كدليل على السماح للفتاة بلباس الملون والمزخرف ابتداء من يوم عُرسها ونبذ اللون الداكن.

وفي مساء نفس اليوم تقام مراسم (الحجفة) المثبّتة أساساً على ظهر الناقة (الباركة) أمام البيت، فتقوم الأم بتحميل الجهاز الذي جهّزته لابنتها، والمحتوي على فرش البيت والوسائد والغراير والمراقيم.. وتموين يكفيها مدة طويلة من الزمن محشو كله في حاوية تسمى (القراف) مصنوعة من جلد البقر، تُجلب عادة من المدينة. ثم تركب العروس في المكان المخصص لها فوق تلك التجهيزات وسط الجحفة. ويبدأ موكبها. فيقود الناقة فتى يسمى محمد أو علي، وهي محفوفة بكوكبة من الفرسان، يتقدمهم نافخو المزامير وقارعو الطبول، وتسير وراءها النساء والرجال والأطفال. وعادة ما تكون العروس ابنة عم العريس ويقيمان في نفس النجع، لذلك جرت العادة على التزام الطواف سبعة أشواط حول البيوت قبل إناخة الناقة أمام بيت العريس، ذاك البيت الذي قيل فيه: (يا بيت من قِبلة جديد مرشّم.. خشك رقيق النقش كيف موشّم). فتُوجه النسوة من أهل العروس أغنية التوصية التالية إلى أهل العريس:

(ما تضربوش المصوابة، رقيقة العصابة، راهي صغيرة وغضّابة، والوقت طويل)[1]..

(ما تضربوش العيسوقة، سابق حموقة، أدّيّر على النجع تسوقة، سوق مراحيل)[2].

وقد تقوم العروس ذاتها بتلك التوصية عن نفسها، فتقول:

(ما تضربوني، لا تقولوا سابت.. سلّم ولد باباي وامّي جابت)[3].

وتنتهي مراسم العُرس بليلة (الدخول)، حيث يزفّ العريس من قبل أصدقائه (عرّاسته) بالصلاة والسلام على رسول الله:

(مولاي صلّي وسلّم دائما أبدا.. على حبيبك خير الخلق كلهمِ)..

ثم تُتلى الفاتحة، ويدخل العريس إلى بيته، ويلتقي العروسان لقاء العمر على سنة الله ورسوله، وسط مزيج من الأصوات المختلطة بين أغانٍ وأهازيج وزغاريد وطلقات بارود، إلى أن (تتهنّى العروس) ويخرج العريس إلى أصدقائه وأبناء عمومته، وقد صار (سلطانا)، بينما تحيط الفتيات بالعروس، وقد صارت (سلطانة).

---

[1] **ما تضربوش:** لا تضربوا. **المصوابة:** لا تفعل غير الصواب. **العصابة:** غطاء رأس المرأة، وهو شاش يلف رأسها.

[2] **العيسوقة:** نوع من الشجر الطويل، ربما العوسج. **سابق حموقة:** سريعة الغضب منذ صغرها. **ادّيّر:** وهي من الإدارة والتدوير، أي: قادرة على قيادة قافلة كاملة أثناء الرحيل.

[3] **سابت:** أهملت. **سلّم:** حمى الله.. **ولد باباي:** أخي. **جابت:** أنجبت.

ويبدأ على إثر ذلك احتفال من نوع آخر يسمى (العرّاسة)، يقيمه الشباب ولا يتدخل فيه الكبار إلاّ في حالة عجز الصغار على أداء وظيفة من وظائف (العرّاسة) أو الإخلال بقانون من قوانينها. وفي الغد تُقام مراسل (يوم الصباح)، حيث تُعاد العروس إلى جحفتها بكامل زينتها، ويُطاف بها حول البيوت وسط الأهازيج والزغاريد واستعراض الفرسان وأصوات الأعيرة النارية. فأهل العريس يفتخرون بفحولة ابنهم، وأهل العروس يحتفلون بعفة ابنتهم ووصولها إلى بر السلامة سالمة. بينما ينأى الشباب (العرّاسة) بسلطانهم (العريس) بعيداً عن المضارب. ويستمر هذا الاحتفال أسبوعاً كاملاً، وقد يزيد، ويعتبرونه أسبوع الفرح الحقيقي، حتى أن الأمهات يرجون من الله طول العمر لحضور فرح أبنائهن وبناتهن، فتخاطب الأم ابنها أو بنتها بالقول: (يلحّقْني فرحك سبع أيام وسبع ليالي وليلتين زايدات)، ذاك هو الأسبوع الذي تتمنى حضوره كل أم. والعرّاسة فريقان: البوغافية (وهم المتزوجون)، والعزارى (وهم العزّاب). ويشترك جميعهم في ألعاب معقّدة يقوم خلالها (البواغفية) المجرّبون بالإيقاع بـ(العزارى) المستجدّين في فخ الألغاز، ويكون الحكم أخيراً بيد العريس (السلطان صاحب الصولجان). وقد تستفيد العروسة (السلطانة) وصويحباتها من الأتاوات التي تجنيها من المخالفات المادية التي يؤديها لهن كل من يرتكب خطأ في حق (السلطان والسلطانة) أو من لا يحترم ويجهل نواميس (العرّاسة).

خلاصة الباب الثاني:

تعرض هذا الباب إلى الآداب والألعاب والعادات والتقاليد التي كان بدو المنطقة الغربية لليبيا يمارسونها، معرجاً على بعض خصوصيات الصيعان فيها. فكان الفصل الأول محتوياً على بعض الألفاظ العامية البدوية كالأسماء والكنايات والأوصاف والأفعال ومسميات الأشياء والمقتنيات وغيرها.. كما ركّز الفصل الثاني على الأدب الشعبي المتداول في البادية، وذلك مثل أساليب سرد القصص الشعبية والأحاجي والأغاليط التي كانت تقام لها الجلسات أثناء السهر شتاءً والسمر صيفاً. كذلك الأمثال الشعبية ذات الطابع الهزلي كنوعٍ من السخرية والتهكم على مهازل القدر، وذلك بدافع التسلية من جهة، وبث التوعية بطريقة كاريكاتيرية من جهة ثانية. إلى جانب التعرّض للأساليب الشعرية في مجال المناظرات بين الشعراء وأغاني المناسبات كالحصاد وجز الحيوانات وحِداء الإبل أثناء الرحلات الطويلة. أما الفصل الثالث فتحدّث عن الألعاب، التي كان منها الألعاب العضلية مثل (عظم الساري) و(سبع صبايا) و(الكبّوس) و(كرة الرود)، ومنها الألعاب الفكرية مثل (الخربقة) و(التشة) و(السيق). وأخيراً خُصص الفصل الرابع للعادات والتقاليد التي تمارس في المناسبات الدينية مثل عيد الأضحى ورأس السنة وعاشوراء.. والمناسبات الشعبية مثل المولود الجديد والختان والعُرس.وتبقى بعض الممارسات والألعاب الأخرى، سترد في الباب القادم، حيث رأيناها أقرب للعقائد منها للتسلية، ففصلناها بعنوان جديد (الدعوات المستجابة) وأفردنا لها باباً خاصاً.

حسن ابو عوف الحويثي

الباب الثالث

الدعوات المستجابة

أني ندهة المطرّف..

ليا كان ولدي لا خنب لا حرّف..

(امحمد أبو صاع)



الفصل الأول

عقائد ومعتقدات

تمهيد:

العقيدة الإسلامية هي الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله، وبقضائه وقدره، وباليوم الآخر. أمّا الشرائع والعبادات فمأخوذة من كتاب الله العزيز وسنة نبيّه الكريم ومما شرحه الأئمة وفقهاء الشريعة. وما دون ذلك فهو اجتهاد لا يستند إلى مراجع أصلية مهما كان مسبوقاً بنية حسنة وصادقة. ففي زمن غياب الوعي تحولت بعض المعتقدات والشعائر الدينية إلى ممارسات مغلّفة بغلاف الدّين والدّين منها براء. ولكنّها كانت بمثابة العادات والتقاليد التي استحسنها البدو ومارسوها بقناعة تامة. ثم بدأوا يتراجعون عنها تدريجياً مع ازدياد الوعي وانتشار الثقافة الدينية بين الناس بواسطة أئمة المساجد المتعلمين وطلبة العلم في المدارس والجامعات وطبقة المثقفين. ولم يكن ذلك بالشيء الغريب في عهد لم تكن فيه الشعوب العربية ماسكةً بزمام أمرها. فقد ساعد جمود الحكم العثماني – مثلاً– على عزلة الوطن العربي خصوصاً بعد تحويل طريق التجارة خارج أراضيه. فضلاً على أن العثمانيين ذوي الطبيعة القبلية البدوية لم يكن لهم زادٌ حضاري يقدمونه لشعوب البلاد التي يدخلونها، فبدأ الموروث الثقافي العربي يتآكل دون إضافة[1]، خصوصاً في البوادي والصحاري البعيدة عن العمران.

ولا غرابة إذا وجدنا بعض التناقضات الملحوظة في العقلية البدوية تجاه بعض المعتقدات الدينية التي توحي بدمج غير مقصود بين العقيدة الإسلامية

---

[1] للمزيد أنظر: الدسوقي، د.عاصم، مصدر سابق، ص ص 18-19

السمحة وتصرفات غير مقبولة في كثير من الأحيان، مثلاً: البدو يقرّون بأن الدم نجاسة، فيقدّمون كمية كبيرة من الماء لخروف العيد بقصد التخلص من الدم في جسمه، إلاّ أنهم في – المقابل – يستقبلون الدم المتدفق من أوردته بأيديهم ويلطّخون به أوتاد وأطناب وأعمدة البيت، اعتقاداً منهم بأن ذاك التصرف يجلب لهم ولعيالهم الخير، بادّعاء أن خروف العيد مبارك وليس ككل الخراف.

كما أنهم يؤمنون إيماناً راسخاً بأن الله وحده يعلم الغيب، ولكنّهم يلتجئون إلى العرّافين والمنجّمين (كالتقّازين) لمعرفة أخبار الغائبين عنهم أو تحديد مكان إبلهم التائهة في الصحراء. وغير ذلك من الاعتقادات التي نراها اليوم فاسدة، بينما كانت عندهم جائزة ولا ضرر فيها، بل يقرنونها بأدعية ومراسم ما أنزل الله من سلطان، ولكنها كانت مستجابةً من ربٍّ يعلم سرائرَ عباده ونواياهم. وهذا يذكّرنا بالقصة الشعبية التي تحمل المثل المشهور: (ميمونة تعرف ربّي، وربّي يعرف ميمونة)[1]. ولميمونة هذه أختٌ في الصيعان، كانت عجوزا مباركة لا تعرف قراءة القرآن عند الصلاة، فتصلّي (رحمها الله) بعبارة واحدة تكرّرها في كل سجدة قائلة: (يا ربّي خلّيلي معيزاتي ووليدي فلان، الله أكبر). والواضح أن الله استجاب لدعائها وحقق لها رجاءها وأعطاها (على قياس نيتها) كل ما طلبت وتمنت. ونقدّم في هذا الفصل نماذج من تلك الممارسات والعقائد والمراسم والأدعية المستجابة:

---

[1] خلاصة هذه القصة: أن لفيفا من العلماء مرّوا ببيت (ميمونة) وكانوا في رحلة بحرية، فوجدوها لا تقرأ القرآن عند الصلاة، فحفّظوها الفاتحة. وما أن ركبوا السفينة وتوغّلوا في البحر حتى نسيت ميمونة ما حفظت، فلحقت بهم مشيا فوق الماء راجية منهم تذكيرها ما نسيت. وما أن رآها العلماء حتى صاحوا فيها: (ارجعي من حيث جئت وصلّي كما كنت تصلّين، فميمونة تعرف ربي وربي يعرف ميمونة). والعبرة من هذه القصة أن نية ميمونة تفوقت على علم العلماء، فقيّض ربّها لأقدامها أن تسير فوق الماء، بينما يركب العلماء السفينة، وهذه المعجزة لا يحظى بها غير الأنبياء!

طلب الغيث:

طلب الغيث قديم قدم التاريخ البشري، فكان الإنسان القديم منذ الوثنية الأولى ينظر دائماً إلى السماء، ويسخّر كل أفكاره لمخاطبتها طمعاً في الماء. وقد اعتقد قدماء الليبيين من سكان (الجبل الأخضر) أن السماء مسطحة، فأشارت قبيلة (الأسبِت) على الإغريق إلى مكان سماؤه مثقوبة، أي كثيرة المطر، فبنوا فيه مدينة (قورينا). كما كانت الصبايا من قبيلة (الأوزين) حول بحيرة (تريتونس) وهو (شط الجريد) حاليا، يقدّمن القرابين لآلهتهن (أثينا) ابنة إله البحر والماء (بوزايدون) ويقمن مراسم تُشبه مراسم طلب الغيث إذا عزّ المطر[1].

ورغم كراهية الإسلام لمثل تلك المراسم والاستعاضة عنها بالالتجاء إلى الله وأداء صلوات الاستسقاء، لازال البدو – لعهد قريب – يمارسون بعض الطقوس التي يمكننا إدراجها ضمن العادات والتقاليد الشعبية و(الأسبار) ولا علاقة لها بالدين، ولكنها كانت بمثابة ألعاب مدفوعة بنية صادقة نابعة من القلب وعقيدة راسخة في الله عز وجل وثقة في أوليائه الصالحين، وهذا سر استجابة السماء لهم.

والصيعان – زمن بداوتهم – كانوا ينظرون أيضاً إلى السماء. ففي فصل الخريف يراقبون السحب ويميزون الممطرة منها، ويحددون وجهتها، ويرسلون أحدهم (يغبّط)[2] أو (يوهّي)[3] ليرصد مكان نزول المطر ومساحته ومستوى

---

[1] للمزيد أنظر: **البرغوثي**، **التاريخ الليبي القديم**، مصدر سابق، صفحات متفرقة.

[2] **أغبطت السماء**: دام مطرها. (اللسان).

[3] يقال إلى السحاب إذا انبثق بالمطر انبثاقا شديدا: (وهت معازيله) أي سقطت مياهه. (اللسان).

(الثرى)[1]. ثم يتوجّهون إلى ذاك المكان لحرثه. ولهم تجارب في معرفة نزول المطر:

6- النظر إلى مصدر البرق والرعد (بيت الماء) أو (المزن)، فإذا كان (رأس عين) أي وراء الشمس، سيصل المطر بعد ثلاثة أيام.

1- في فصل الصيف، وفي ليلة معيّنة منه، يقوم المتنبئ بوضع ثلاث حبّات من الملح فوق البيت، وهي تمثل: (شهراً معيناً من الخريف، وشهراً معيّناً من الشتاء، وشهراً معيّناً من الربيع). وإذا وجد في الصباح إحداها سائلة فذاك يعني أن الشهر الذي تمثله سيكون مطيراً، وربما يجدها كلها سائلة فذاك يعني أن كل الشهور التي تمثلها ممطرة. وللملح أسرار منذ القدم، فعلى سبيل المثال كان قدماء الليبيين (خصوصا سكان واحة سيوة)[2] يعتقدون أن الملح يزداد وينقص في الليل بازدياد القمر ونقصانه[3].

5- وهناك طريقة عد الشهور والنظر إلى النجوم، حيث يتميز بها أحدهم عادة، فيكون مقصدَ الجميع ليخبرهم بموسم المطر، ويستعدّون للحرث من خلال ما يخبرهم به. ويسمّون ذلك (العدّان) أو الأيام المعدودات، وتبدأ في شهر أكتوبر وبالتحديد

---

[1] **الثرى**: مستوى غوص مياه المطر في الأرض، وهي عربية فصيحة: الثرى هو التراب النديّ.

[2] بعض المؤرخين يقول أن واحة سيوة كانت ليبية قبل أن يحتلها قدماء المصريين في منتصف القرن السادس قبل الميلاد، ربما لأن آلهتها كانت مصدر الوحي إذ كان كهنتها الليبيون يستقبلون الاستفسارات حتى من المدن الإغريقية كثيرة المواحي.

[3] أنظر: **البرغوثي**، مصدر سابق، ص 217.

في اليوم 55 من الخريف. ويغتنمون صفاء سماء الصيف، ومدته 18 يوما، تظهر فيها 3 نجمات كل 60 يوماً، وهي (الثريا، عَيّوب، الميزان، المرازم، سهيل) ويعتقدون أن لكل نجم (نوة)، فيطبّقون ذلك على الفصول المتوقع نزول المطر فيها، وهي الخريف والشتاء والربيع.

4- تجربة شخصية (نصر جلّة): حيث كان يقوم بمعاينة اتجاهات الرياح بواسطة تذرية التراب، ويعيد الكرّة أربع مرات. وذات مرة أمر أهل بيته بإحضار الغنم بسرعة والعودة بها إلى زرائبها، وما أن وصل أولها حتى انهمرت المطر، واستمرت سبعة أيام بلياليها.

3- وهناك أصحاب الموهبة والمعرفة والتجربة، أو أهل البركة، مثل (عثمان بن بلقاسم بقير)، الذي يصيح في منامه: (غابّات، أو رابعات، أو زاغبات)، وفيها إمّا بشارة بنزول المطر أو تحذير من مغيرين على الإبل، وكثيراً ما تكون تنبؤاته صادقة. فيشير إلى نجعه (أولاد سلاّم) بالبقاء أو بالرحيل، فلا يتجاوزون أوامره.

1- وهناك خبراء الحيوانات الذين يراقبون سلوك حيواناتهم فيستشعرون منها تبديل الفصول وتغيير الأحوال الجوية. وقد اشتهر بذلك في المنطقة الغربية (غيلان) الذي طلب منه بعض العارفين جاءوا لاختباره أن يأتيهم ببعض لبن الإبل، وعندما أحضر لهم اللبن اعتذر منهم عن التأخير فقال لهم: (سريع نطيع.. مشيت في الشتي جيت في الربيع)، وقد علّمته الناقة

أنها إذا (عطفت) ورغبت في حلبها اتجهت إلى جهة معينة، ويكون ذلك في فصل الشتاء، وإذا دخل عليها الربيع غيّرت اتجاهها، فعلم غيلان أن الربيع قد حل بتغيير الناقة وجهتها وهو يحلبها.

5- وهناك علامات نجدها في القصيدة التالية:

-(يا من راه ضيّانه شعيل.. يضوي بعد ما غيّب اوقات
طيّاح البِسر في نوّة سهيل.. عشر أيام في اكتوبر لولات
دزّو حومة العبِد البخيل.. صادق ما يعلّ الزلاّت
يلقى فيه من ساقه طويل.. والفشتال والدنّي وفرق العيهقات)[1].

وهنا وصف دقيق للمكان الذي نزل فيه المطر (الشخب)، حيث يجد فيه المبعوث الحيوانات المعروفة في المكان آنذاك، مثل الغزال والأرنب والحجل والقطا، وفي حالة العثور عليها خريفاً يكون العام خصباً.

أما إذا بخلت السماء وشحت عندهم المياه يلتجئون إلى الله يستغيثون به ويستسقونه، فيؤدي الرجال صلاة الاستسقاء. بينما يقوم النساء والأطفال بمراسم خاصة بطلب الغيث، ويسمّون ذاك المهرجان بـ(عز الغيث) أي عندما يعز الغيث ويقل نزوله.

---

[1] **طيّاح البسر**: يجعل التمر ينضج ويسقط. **نوّة سهيل**: أنواء نجمة سهيل أول الخريف وهي حارّة. **دزّو**: أرسلوا. **حومة العبد**: الرجل الأسود باحثا عن الثرى. **ساقه طويل**: الغزال. **الفشتال**: الحجل، والاسم مأخوذ من مشيتها. **الدني**: الأصل: الدنّاء، وهي الأرنب، والاسم مأخوذ من تصرفاتها. **العيهقات**: القطا، والاسم مأخوذ من صوتها.

6- كرة المغرف:

يحتفل النساء الصويعيات بطريقة تخالف العُرف، وهي القيام بلعبة (الكرة) المحرّمة عليهم عادة، فهي حكر على الرجال الأقوياء، وفي ذلك تكسير لنواميس العرف والعادة، لعل الطبيعة تغير نواميسها هي الأخرى وتتحوّل من قحط وجفاف إلى ماء ومطر. فتتقلد كل منهن (المغرف) وهو عصا مخصصة لعجن (البازين والعيش والعصيدة)[1]، ويلطمن بها كرة من الأقمشة والجلود الملفوفة، تماماً كما يفعل الرجال، ويجرين وراءها في هرج ومرج بكامل حريتهن، وكن يضعن على رؤوسهن الرقاع (جمع رقعة) لحمايتها من ضربات الكرة الصلبة، وإذ دُمغت إحداهن وسالت منها الدماء يكون ذلك بشارة بقرب نزول المطر، وهذا ما كان يحصل بالفعل.

1- أمك طنبو:

كل الليبيين تقريباً يعرفون (أمك طنبو)، وهي عبارة عن دمية تُصنع من خشبة (المنساج)، يُلبسها الصبايا الملابس ويخضبنها بالزينة والعطور، ويحملنها في أحضانهن ويعرضنها على البيوت لجمع الصدقات، وهن يرددن:

(أمك طنبو بصخيّبها.. طلبت ربّي ما يخيّبها)[2]،

(يا الله ويا الله.. يصب الغيث إن شاء الله).

---

[1] وهي أكلات ليبية تعتمد على عجائن القمح والشعير المطبوخة.

[2] **الصخاب**: عقد من العطور المعجونة تلبسه العرائس عادة.

والرمز في ذلك أن الجماد أيضاً يطلب الغيث من الله وليس البشر فقط، وهو تكسير للعادة. ففي يوم (عز الغيث) يكون كل شيء مقلوباً رأساً على عقب، طمعاً في انقلاب المناخ من اليبس إلى الطراوة ومن الشح إلى الجود، بإذن القادر على ذلك. حتى الرجال يقلبون ملابسهم عند أداء صلاة الاستسقاء.

ومثلما يقول الأولون أن (النيّة) في زمن (البركة) كانت سيدة كل المواقف، (وإنما الأعمال بالنيات، ولكل امرئ ما نوى). وما أن ينهمك الجميع في تلك المراسم، حتى يبعث الله الغمام في السماء و(يلعج البرق ويدرز الرعد)[1] وينهمر المطر بغزارة وسط فرحة الجميع وهم يقدّمون الولائم الجماعية ويُقبلون عليها بمراسم غاية في الروعة والجمال. وتبتل رؤوس المحتفلين الواثقين من استجابة الله لدعواتهم البريئة وقد (أعطاهم الله على قياس نيتهم). وحضرتُ بنفسي تلك المراسم التي لا يعود منها الرجال والنساء والأطفال وكذلك (أمك طنبو) إلى البيوت إلاّ ورؤوسهم مبللة بماء المطر.

والظاهر أن (أمك طنبو) هذه تأثير أفريقي، حيث يتكوّن اسمها من (أمك) وهو لقب للمرأة السوداء، و(طنبو) وهو اسم أفريقي واضح لا نعلم معناه، ربما يكون تشبيها لخشبة طنب البيت، وربما يكون له أثر وثني أفريقي قديم. ويبدو أن هذا التقليد انتقل إلينا من الصحراء الأفريقية بعد اختلاط أهلها بالعرب القادمين من المشرق والمغرب، ودخول كثير منهم في الدين الإسلامي، فحافظوا على بعض تقاليدهم القديمة في شكل لا يتنافى مع الدين الجديد الذي اعتنقوه. والمعروف أن التراث الأفريقي اختلط بالتراث العربي عند أهل الحزام الصحراوي

---

[1] يلعج= يلمع ويومض. يدرز= يزمجر ويدوّي.

الأفريقي مكوّناً مزيجاً رائعاً من الفن الذي اختلف عمّا عُرف في كل من أفريقيا وشبه الجزيرة العربية. وفي هذا الخصوص لم نأنس للتفسير الذي ذهب إليه الأستاذ المرزوقي من أن (أمك طنبو) آلهة المطر عند الفينيقيين[1]، فهذا الاسم المركب لا يغدو كونه اسماً شعبياً معاصراً لا يمكن أن يمت للغة الفينيقية أو حتى البونيقية بأية صلة على حد علمنا. إلاّ أننا نرى –من جهة ثانية– أن لفظ (طنبو) قد يكون أصله بالتاء، هكذا= (تنبو)، ويظهر فيه شيءٌ من مدلول (التنبؤ)، وقد يكون المعنى العام لتلك الخشبة= (أم التنبؤ) أي التي ستتنبأ بنزول الغيث من عدمه، خصوصاً وأن الجو العام لتلك المهرجانات الشعبية يوحي بانشغال الجميع بالمستقبل وتوقهم لمعرفة أسرار اللحظات القادمة وما ستحمله لهم من مفاجآت يتمنون من الله أن تكون سارةً ومفرحةً لا العكس.

5- يا مطر يا خالتي:

وهي لعبة للأطفال الصغار ذكوراً وإناثاً، حيث يخرجون إلى الساحات أمام البيوت، وذلك عندما تبدأ المطر بالنزول على هيئة قطرات خفيفة. وكان الكبار قد فرغوا من صلاة الاستسقاء، فيشاركهم الأطفال في طلب الغيث النافع، حيث يخاطبون السماء بالأغنية المشهورة عند كل الليبيين تقريباً:

(يا مطر يا خالتي، صبّي عل قطّايتي.. قطّايتي مدهونة، بزيت الزيتونة..
يا مطر يا مطّارة، اسقي عروق الجبّارة.. الجبّارة عطشانة، يرويها مولانا)..

---

[1] أنظر: المرزوقي، محمد: مع البدو في حلّهم وترحالهم، 1981، الدار العربية للكتاب، تونس، ص142.

وهم يلفّون حول أنفسهم مكشوفي الرؤوس فاتحي الأذرع مغمضي الأعين حتى لا يشعرون بالدوار والدوخة. والقطّاية هي الشعر الذي يبقيه الأباء على رؤوس أبنائهم عند حلاقتها، وهي تشبه القُنبرة التي على رأس طائر القُنبر، وأصل اسم القطّاية من (قطّ يقطّ قطّا) أي قطع. أما (الجبّارة) فهي النخلة الصغيرة. وقد تستجيب السماء لنداء الصبية، فتتحوّل تلك القطرات، شيئاً فشيئاً، إلى مطر منهمر، كما ذكر، فيختبئ الصبية في البيوت.

4- السمس زرقت[1]:

وإذا طالت مدة هطول الأمطار، يملّ الصِّبية من البقاء في البيوت، وهم يتوقون لممارسة اللعب خارجها. ولكن عندما تنقشع أول سحابة وينكشف قرص الشمس في قلب السماء، ينطلق الصبية خارج البيوت مردّدين أغنية تبدو متناقضة مع ما فعلوه قبل بداية هطول المطر، فيقولون:

(السمس زرقت، والعزوز انحرقت، والشيباني مات، عقّب ثلث بنات، وحدة تسفّ، وحدة تنفّ، وحدة تلكّز فيهم بالكف).

وهذه العبارات لها معان تحتاج للشرح، (السمس زرقت)= الشمس أشرقت، (العزوز)= المرأة العجوز الهرمة، (الشيباني)= الرجل العجوز الهرم، (عقّب)= خلّف، أي جاءت البنات الثلاث من عقبه، (تسفّ)= تتناول في فمها قليلا من الدقيق الجاف، (تنفّ)= تتعاطى النفّة وهي النشوق الشعبي المعروف،

[1] زرقت: أشرقت، وفيها إبدال الشين بزاي.

(تلكّز)= تلطم. وكل هذه الأفعال (تسفّ وتنفّ وتلكّز) دميمة وغير مرغوب فيها، إلى جانب التشاؤم الذي يلحق النفس البشرية من ذكر (الحرق والموت) الذيْن تمناهما الأطفال للعجوزين. وهذا الهجوم المفاجئ على كبار السن ما هو إلا نوع من اللوم الجارح الموجّه من صغار لا يهمهم غير اللعب واللهو، نحو كبار يتمنون ألاّ ينقطع عنهم الغيث النافع. فلا يقابل الكبار هذا الحقد البريء المبرر والمحبب للنفس بغير الوقوف أمام البيوت والتلذذ بمشاهدة رقصات أبنائهم وبناتهم والاستماع لتلك الانتقادات النابعة من فيض البراءة الطفولية الساذجة.



الفصل الثاني

التفاؤل والتشاؤم

الفصل الثاني

التفاؤل والتشاؤم

تمهيد:

التفاؤل والتشاؤم حالة من القبول أو الرفض يستشعرها الإنسان عند تعامله مع المحسوسات، فيُصدر -من خلالها- أحكاماً غيبيةً لمستقبل مجهول. ولعجز الإنسان على معرفة المستقبل بصورة دقيقة يقوم بتحليل سريع لحوادث اللحظة الآنية، ويستعجل -بواسطتها- التنبؤ بحوادث اللحظة القادمة خيراً ستكون أم شراً. ومن ثم تتضح حالةُ الرفض أو القبول، ويُتخذ القرار بالإقدام أو الإحجام. ومع الوقت وإعادة التجربة تصير تلك العملية في شكل ردود أفعال تلقائية وانعكاسات ألاّإرادية تندرج ضمن الدفاعات النفسية لدى الإنسان. فرؤية السواد في الصباح تنعكس على نفسية الإنسان بالشؤم، فقد يتردد أو يحجم أو ينثني عن القيام بالعمل خوفاً من لحظة رديئة تنتظره. أما إذا صادفه البياض فيبعث فيه الأمل والفأل الحسن، فيقدم على العمل بكل همّة ونشاط وثقة في اللحظة القادمة. وما ينطبق على المرئيات ينطبق أيضاً على المسموعات، كالأصوات المزعجة التي تتشاءم منها النفس وتقابلها بالرفض، والأصوات الجميلة التي تتفاءل بها النفس فتقابلها بالقبول والاستحسان. مما ينعكس على تصرفات أعضاء الجسم بالإقدام أو بالإحجام.

وظاهرة التفاؤل والتشاؤم وتأثيرها على النفس البشرية قديمة قدم المجتمعات الإنسانية. فقد عرف العرب أن الشؤم ما يُكره عاقبته، وأن التفاؤل ما يُؤمن جانبه، فقرروا اليُمن لليمين والشأم لليسار أو الشمال. وكانوا يتيامنون إلى

اليمن، أي يميناً، ويتشاءمون إلى الشام، أي يساراً. والتفاؤل عندهم فألٌ فيما يُحسن، والتشاؤم تطيّرٌ فيما يسيء[1]. وقد نهى الإسلام عن التطيّر لأن فيه سوء الظن بالله وتوقع البلاء. وفي الحديث: قيل يا رسول الله ما الفأل؟ قال: الكلمة الصالحة.

أولاً- الخروج من البيت:

6- إذا خرج رب الأسرة إلى مشوار قصير، ولم يتجاوز البيت بخطوات قليلة، يجب ألاّ يعود إليه إلاّ بعد أداء مهمته التي خرج من أجلها، حتى وإن نسي شيئاً مهماً. ويغضب غضباً شديداً إذا خاطبته زوجته أو أوقفته وعطّلته أو نادته بصوت عال أو سألته إلى أين هو ذاهب. وإذا حصل منها ذلك، أو من أي فرد آخر من أفراد الأسرة، يُقلع عن الذهاب ويؤجل مشواره ذاك إلى وقت آخر أو ربما إلى يوم آخر. ولا يتوقف الأمر عند هذا الحد، بل ينهر من كان سبباً في عودته، معتقداً أنه إذا واصل مسيره سوف لا يجني ما نوى جنيه، بل وقد يُعرّض نفسه لخطر محتمل. وتُسمى هذه عند البدوي (العُرضة)، أي يجب ألاّ يعترض سبيله أحد بهذه الطريقة في مشاويره وسفراته.

أما إذا نزل الواحد ضيفاً على قريب أو صديق، ثم عزم على المغادرة، فعلى صاحب البيت ألاّ يصرّ على بقائه حتى وإن كان الطعام المعد له جاهزاً، فيقول له: (بالله عليك ما تعرضليش)، وإذا خضع لمشيئة مضيفه باعتبار أن (حُكم الضيف في يد المضيف) وحصل له مكروه بعد ذلك، يُرجع أمره إلى تلك (العُرضة) التي اعترضته في بيت صاحبه، فيلومه عليها إذا ما التقى به ثانية.

---

[1] ابن منظور، اللسان.

ملاحظة: هناك فرق كبير بين (العُرضة) بضم العين، و(العَرضة) بفتحها. فالعُرضة بالضم سبق شرحها، على أنها اعتراض أو حاجز معنوي يعترض الذاهب ويثنيه عن الذهاب، وهي عُرضة غير مستحبة. أما العَرضة بالفتح فهي عَرضٌ يقدمه متناول الطعام أو محتسي الشاي للقادم عليه، أي أن يقول له: (تفضل كُل معي لقمة، أو اشرب معي طاسة شاهي). وهناك مثل يُضرب بها، يقول: (خلّى العَرضة وجي للتقعميزة)[1] أي عندما عُرض عليه الأكل وهو معزّز مكرّم رفض، ثم تقدم من تلقاء نفسه يتناول الطعام وهو ذليل مُهان.

1- أما إذا كان رب الأسرة مسافراً و(قاصداً ربه) إلى مكان بعيد على أمل العودة منه بوافر الخير لأسرته، فيحتاط كل أفراد الأسرة من ذكر أي لفظ يثنيه عن خروجه من البيت، مثل السؤال عن سبب السفر وإلى أين ومتى سيعود، لأن (المشية مشية الله) = المشيئة مشيئة الله، بل يجب أن يسمع فقط كلاماً مفرحاً يبعث فيه الأمل والتفاؤل. وما أن يغادر البيت بخطوات حتى تنثر الزوجة وراءه كميةً من الماء كانت قد أعدتها مسبقاً لهذا الغرض، وقد تودعه بكلام جميل مثل (إن شاء الله زينة، إن شاء الله مربوحة، إن شاء الله تروحلنا سالم غانم). فيواصل سيره راكباً أو راجلاً وهو مطمئن القلب وكله أمل في نجاح المهمة التي عقد النية على تحقيقها.

5- الضيف: وكذلك يُفعل مع الضيف -قريباً كان أو غريباً- خصوصاً إذا كان خفيفَ الظل طيبَ النفس حسنَ المعاشرة، فيأنس له أفرادُ الأسرة

[1] **خلّى**: ترك وتخلّى. **جي**: أتى. **التقعميزة**: الجلوس.

ويكرمونه طيلة بقائه بين ظهرانيهم. ويغضبون إذا قرر الرحيل عنهم، ولا يجدون سبيلاً غير سكب الماء وراءه عند خروجه من بيتهم، كأنهم يتضرعون إلى الله أن يعيده إليهم قريباً. أما إذا كان ضيفاً ثقيلَ الظل خبيثَ النفس سيئَ المعاشرة، فيقذفون وراءه (سبع رشادات) أي سبع قطع من الحصى أو الحجارة صغيرة، دون أن يشعر. كأنهم يتضرعون إلى الله ألاّ يعيده إليهم ثانية.

ثانياً: ألفاظ يتشاءمون منها، وأخرى يتفاءلون بها:

6- الملح: رغم أن الملح ضروري للطعام إلاّ أن بعض البدو يتجنبون النطق به. فلا يذكرونه صراحةً إلاّ في المواقف السيئة، فيقولون: (يطرشق زي الملح)، ومنها جاءت بعض الـ(الدعوات الموش باهية) مثل: (يطرشق ملحتك)، و(يعطيك ملحة)، ومنها الوصف: (مالحة زي السبخة)، وهي مطابقة لـ(مرة زي الدرياق) أي الترياق، وفي ذلك مطابقة بين الملوحة والمرارة، وكلاهما غير مقبول. لذا، فهم يستبدلون اسم (الملح) باسم (الربح)، ربما كناية للأرباح التي يجنيها تجار ذاك الزمان من الملح المجلوب من أعماق الصحراء. كما يستبدلونه أحياناً أخرى باسم (الإيدام) لضرورته في تجهيز المرق. وإذا ذبحوا شاة وضعوا الملح في حفرة دمها، لمنع الجن والأرواح الخفية من السكن فيها، ويسمونها (بسم الله العظيم)، ولا يتخطونها بدون بسملة. ولكنهم يستحسنون اسم الملح أحيانا ويستعيرونه للتعبير عن خفة الظل والظرف، فيقولون مثلا: (فلان عليه الملح) أي دمه خفيف وكلامه حلو كالملح في الطعام. بل تفتخر المرأة الماهرة في طهو الطعام بالملح وتقارنه بالفارس الذي يمكنه اللحاق بالمرحول في وقت قصير،

فتقول: (الملح فارس، إذا عقب يلحق). وفي هذه الحالة لا يكون الملح مقبولاً ومشكوراً إلاّ بعد طهيه مع الأكل، أما قبل ذلك فيكون مذموماً وغير مقبول.

4- النار: ويُنظر لها على أنها نموذج مصغّر من جحيم الآخرة. ورغم الفائدة التي يجنيها الإنسان من النار، إلاّ أن البدو يتشاءمون من التلفظ باسمها، فيستعيضون عنها باسم (عافية)، وهو مناقض للأصل، وهذا ما يسمّيه النحويون (التضاد). وعادة ما يأمر الرجلُ أهلَ بيته: (اشعلوا العافية) أو (إقدوا العافية) (أوقدوا)، وجميعهم لا يقول في الغالب (العافية طفت) أي انطفأت، وإنما يقولون (النار طفت) أو (النار نقصت) أو (النار هبّت) أي خبت جمراتها. أما رماد النار فيعتقدون أنه مرشّح ليكون سكناً للجن، فلا يتخطونه بدون بسملة. وكثيراً ما كنا نسمع أن صبيةً عذراءَ أفرغت الرماد بدون بسملة فتمكن منها الجن وصار يتحكم فيها لأنها أصابته أو أصابت أحد أبنائه بالرماد! وبما أن الرماد من مخلفات النار، فينعتون الجبان ابن الشجاع بالرماد، إذ يقولون فيه: (النار تعقب الرماد)، أي لم يكن متقد الحيوية والنشاط والشجاعة مثل أبيه، بل كان جباناً متخاذلاً بارداً كالرماد.

5- الأعداد: ولها عندهم رموز، فيتفاءلون بالرقم (واحد) ويمثلونه بلفظ (البركة) أو (ربي واحد). وكذلك الرقم (اثنان) فيذكرونه بعبارة (محمد وعلي). ولهم مع الرقم (ثلاثة) قصة، فيقولون أن (ضيفة النبي ثلاثة أيام)، و(عند الثالثة ينذهب كل شيطان) وغيرها. ويكرهون الرقم (أربعة) ويحرّفونه إلى (نربحو)، حتى يوم (الأربعاء) يغيرونه إلى (اربحا). ولا يذكرون الرقم (خمسة) صراحة، احتراماً للسامع، فيعبّرون عنه بعبارة (عد إيدك) أي عدد أصابع اليد الواحدة، ويذكرون

(خمسة) صراحة لأجل اتقاء شرور العين الحاسدة. وعند ذكر يوم الخميس يقال: (حضر فيه محمد وغاب إبليس). ويستبشرون بالرقم (سبعة) لأنه يمثل أيام الأسبوع وكلها مباركة، وعدد السماوات سبع، وعدد أشواط الطواف والسعي في الحج سبع..

وينفرون من ذكر الرقم (تسعة) لأنه عدد المفسدين الواردين في قصة النبي صالح (عليه السلام)، فيمثلونه باللفظ (نسعدو)، وإذا أرادوا وصف شخص غير مقبول اجتماعياً يقولون عنه أنه (من التسعة المفسدين)، وفي سورة النمل ورد: "وَكانَ في المدينةِ تِسعَةُ رَهْطٍ يُفسِدون في الأرضِ ولا يُصلِحون" [48]. وإذا دعوا بالشر على شخص يقولون له: (يعطيك تسعة).

بينما يتفاءلون بالرقم (عشرة) لأنه عدد المبشرين بالجنة رضوان الله عليهم، كما أنه مضاعف الرقم خمسة الطارد لشرور العين الحاسدة.

أما الرقم (48) فله قصة طويلة، حيث يستخدمه كل العرب تقريباً في قصصهم، مثل الحروب التي تدوم أربعين سنة، و(الأربعين حرامي) أبطال المغامرات المشهورة. كما أنهم يحتفلون بهذا الرقم فرحاً وترحاً، إذ يعتبرون أن مرور أربعين يوماً على نفاس المرأة الوالد كفيل بعودتها إلى حياتها الاعتيادية، فيقولون (فلانة ربعنت). أما المتوفى الذي يمر على وفاته أربعون يوماً فيقولون عنه (فلان ربعن). ونعتقد أن هذا الرقم تسرب إلى الثقافة الإسلامية الشعبية من الإسرائيليات، حيث كانت سنوات التيه بعد خروج اليهود من مصر أربعين سنة. كذلك تأخير موسى (عليه السلام) عشرة أيام بعد الشهر المحدد لمناجاة ربه، جعل اليهود يضنون أن نبيهم قد مات ثم عاد إلى الحياة بعد أربعين يوماً، فصاروا

ينتظرون أربعين يوماً من وفاة موتاهم ليتأكدوا من أنهم انتهوا فعلا ولن يعودوا للحياة ثانية.

4- الطيور: بعضها محبوب عند البدو، وبعضها مكروه. فهم يتشاءمون من الغراب لأنه أسود وخائن الأمانة. ويخافون على صغارهم من (النعوشة) لأن لها قصة أسطورية مع جارتها أو سلفتها والغربال، أو أنها قتلت ابنها ووضعته تحت الغربال، وعندما (سخطها الله طيراً) أرادت الانتقام من جميع الأطفال. لذلك تحرص النساء على تعليق الغربال في مدخل البيت حتى لا تدخل (النعوشة) وتأكل أطفالهن! وجميعهم يكره (البومة) وهي أيضاً طائر ليلي بشع المنظر مزعج الصوت. وإذا رآها المسافر يتشاءم فيعود أدراجه غالباً. ويصفون المنعزل الذي ينأى بنفسه بعيداً عن الجماعة بـ(المبوّم) أي كالبومة التي تكون دائماً وحدها دون زوج، وهذا عكس الطيور التي تطير أزواجاً أزواجا أو في فرق وأسراب. وينعتون المكان الخالي بعبارة (يغرد فيه البوم) لأنه يسكن الأماكن الخربة والخالية. أما (الهدهد) فلا يكون إلاّ مع رفيقته، فلا يصطادونه لأنه صاحب سيدنا سليمان عليه السلام، أو ربما لأنه هزيل لا لحم فيه. ويتفاءلون بطائر الخُطّاف أو (عصفور الجنة)، ويسمون أنثاه (أم بركات) لأنها تأتي في فصل المطر، فإذا اصطادها الصغار، تقوم النسوة بتخضيبها بالحنّاء وربط خيط أخضر في ساقها وتطييرها في الهواء من جديد. ويستبشرون بطائر يسمونه (بوبشير) لأنه يظهر وقت الحصاد وتكاثر الحبوب. ويتباهون بقوة الصقر وسكنه في الأعالي، ويشبهون به الرجل الحر الأبيّ، وينعتونه بـ(الصقر) أو بـ(الأنقر) أي صاحب المنقار القوي، وهو الصقر أو النسر.

3- أصوات الحيوانات: يأنس البدو ثغاء الخراف، وصهيل الخيل، ورغاء الإبل.. وينكرون شحيج الحمير، وعواء الذئاب والكلاب المسنّة، ونعيق الغربان.. فإذا أرادوا مدح شخص يقولون: (فلان يصهل زي الفرس) أو (يهدر زي الجمل الهايج). وإذا أرادوا ذم آخر يقولون: (ينهق زي البهيم) أو (يعوي زي الذيب). وللخيل عند العرب قيمة مادية ومعنوية، فيعتقدون أن (الخير معقود بنواصيها)، وأن الحظ في الحياة مقرون بعناصر ثلاثة: (نواصي وعتب والبعض من الذرية) أي الخيل والزوجات والأبناء. وكل من لا يملك فرساً أو حصاناً يكتفي بتعليق فك فرس في بيته حتى لا يُحرم -معنوياً على الأقل- من الخير المعقود بنواصي الخيل.

1- الظواهر الطبيعية: يعتقدون أن خسوف القمر علامة من علامات الساعة. ويرى البعض أن (القمراء مخنوبة) أي مسروقة. ويتصورون أن عجوزاً ساحرة تلبس جلود الحيوانات وتركب عصا بدل الحمار، وتأتي إلى المقبرة لتسرق القمر، فتنزل لها على هيئة ناقة، فتحلب منها اللبن في قدح مليء بالصوف، وعند عودتها إلى السماء ترفس القدح بخفها فلا يبقى فيه إلاّ ما تَشرّبه الصوف، وهو ما تستخدمه السارقة في عمليات السحر. وهذه الأسطورة تجعل الناس يخرجون ويحدثون أصواتاً عاليةً ليفسدوا على العجوز تلك العملية الخبيثة، فيعود القمر إلى سابق عهده! كما يكرهون الريح (القبلي) في الصيف لأنه حار ومصحوب بالأتربة، والريح (الغربي) في الشتاء لأنه شديد البرودة. أما دُردور الريح المحمل بالأتربة والذي يلف حول نفسه على هيئة عمود يلامس رأسه السماء، فيسمونه (عجاجة)، ويتشاءمون منه ويخاطبونه بالقول: (يا عجاجة حيّدي)، أي غيّري اتجاهك. أما

(العجاج) العام فيسمونه (غبّيري) ويتشاءمون منه أيضاً. ويتطيّرون من الرّعد المزمجر حاد الصوت ويسمّونه (طراشيق) لأنه قد يكون مصحوباً بالصواعق.

5- الخرُب (بضم الخاء): إذا قررت القبيلة انتجاع مكان ما، يقوم أفرادها بنصب البيوت ودق أسافينها، وهي بين العشرة والعشرين بيتاً عادة. على ألاّ يكون ذلك بصورة انتقائية أو عشوائية داخل (الخوطة) التي تحددها مرابط الخيل حول النزلة من كل الجوانب، إلاّ إذا أراد أحدهم الابتعاد عن النجع لسبب من الأسباب. أما بيوت النجع فتخضع لشروط صارمة لا تهاون فيها، خصوصاً فيما يتعلّق بالاستقامة، حيث يضع الجميع أطناب وأوتاد بيوتهم الأمامية على مستوى خط واحد، ولا يقبلون المخالفة لاعتقادهم أن من يتقدّم وتد بيته قيد أنملة عن وتد بيت جاره أو يتأخر عنه سيلقى حتفه أو تحصل له مصيبة أخرى في الأهل والرزق. فلا يجرأ أي منهم على فعل ذلك. وحفاظاً على استقامة البيوت تقوم النسوة العجائز، وهن المسؤولات على بناء ونصب البيوت، بشد حبل طويل (ري) لتحديد أماكن مد الأطناب ودق الأوتاد بدقّة متناهية. وعند القيام بهذه العملية التي تتم بمراقبة شديدة من قبل الجميع، قد يخاطب الواحد صاحبه بالقول: (أنا لا أريد لنفسي الموت، ولا أريد لك الموت)، فتحرص العجائز على دق وتد بيوتهن في المستوى الذي يحدده الحبل بالضبط. ولوحظ أن إحداهن رأت ناقتها سقطت، وهذه تُعد كارثة حلّت في البيت، فهرعت إلى مراجعة أطناب البيوت، فوجدت إحدى الأوتاد وقد تقّدم عن غيره، فلامت صاحبته على ذلك، مقيمة لها الدليل بسقوط الناقة، فاقتنعت وأعادت وتدها إلى مكانه حسبما حدّده الخُرب.

0- نعجة الألف: إذا بلغ عدد الخراف (السعي) ألف شاة، يقوم المالك بربط شاة في الخلاء مدةً من الزمن، وهذا يعني أنها معرضة -أكثر من غيرها- للذئب، فإذا سلمت منه كان ذلك دليلاً على أن صاحب الغنم قد أخرج الزكاة عنها وطهّرها، فلا يمكن أن يقترب منها الذئب. أما إذا لم يزك عنها فلا تسلم الغنم كلها من أنياب ومخالب الذئاب. وهذه العملية التي يُعتقد أن فيها شيئاً من المغامرة تنم عن إيمان قوي. كما أنها تحمل درساً من دروس العبادات بما فيه من تحريض وتشجيع على إقامة ركن من أركان الإسلام ألا وهو (إيتاء الزكاة).

ثالثاً- الأحلام:

الأحلام ظاهرة إنسانية خفية لم يُحسم الجدل حولها بعد. لذلك فهي تندرج ضمن الماورائيات التي لم يجد لها الإنسان تفسيراً صريحاً وواضحاً، فبقيت إلى الآن سرّا يحيّر العلماء والعارفين بالعلوم الروحانية. وما استطاعوا الوصول إليه لا يخرج عن تحديد بعض أنواعها كالتفريق بين الأحلام والرؤى والكوابيس وأضغاث الأحلام وغيرها. ويقسمّها العامة إلى نوعين هما: (الحلمة) و(التختريف). فالحلمة قصتها طويلة ومسترسلة الأحداث، يتذكر الحالم كل تفاصيلها، وهي قابلة للتفسير. والتختريف أحلام قصيرة ومتقطعة، وعادة ما تكون مزعجة بسبب معاناة الحالم من مرض أو أرق، وهي غير قابلة للتفسير. وقد ألّفتْ كتبٌ عديدة، وتخصص أناسٌ كثيرون في تفسير الأحلام، إلاّ أنها تفسيرات عامة لا تعطي تفسيراً محدداً لحلم معيّن. وهذا ما جعل البدو يضعون بعض القواعد لتفسير أحلامهم:

6- إذا ورد في الحلم أي نوع من الشؤم أو الفأل السيئ، فيُستحسن عدم ذكره لأي شخص، ويجوز للحالم إعادته في الخلاء بعيداً عن أي سامع من

الإنس. أما إذا كان الحلمُ يحمل الفأل الحسن، فيُمكن ترديده على مسامع من أراد لعله يحصل على تفسير مناسب له.

1- إذا أراد الحالم إعادة حلمه إلى رفيقه، وبدأ بالقول: (البارح حلمت)، لا بد أن يقاطعه السامع بالقول: (خير إن شاء الله)، فإن لم يقلها فعلى الحالم أن يحجم عن سرد أحداث حلمه، أما إذا قالها فيردّ عليه: (إنت في خياره وعدوّك في غياره) ويروي له تفاصيل حلمه مباشرة.

5- يعتقدون أن الحلم يعتمد على تفسيره الأول، فإذا فُسّر على أنه خير سيتفاءل الحالم بالخير، وأما إذا كان التفسير مخيّباً للأمل سيتشاءم الحالم ولا ينتظر غير الشر. لذا يُنصح دائماً بالابتعاد عن التفسيرات التي لا تبعث في الحالم الطمأنينة حتى وإن رأى المفسّر في ذاك الحلم ما لا يسر ولا يطمئن.

4- رغم تنوع الأحلام من حلم لآخر ومن شخص لآخر، إلاّ أن هناك تفاسير عامة تعارف عليها الناس، تتعلّق بمكوّنات الحلم كالأحداث والأشخاص والحيوانات والأشياء والكلمات والعبارات التي ترد في الحلم. فعطية الميت خير، أما السفر معه إلى مكان بعيد فيعني الموت. وموت الشخص يعني طول عمره، وزواجه يعني قرب موته. والمولود الأنثى يعني السعادة والهناء، والمولود الذكر يعني الشقاء والنكد. والرجل الأسمر وكذلك المرأة السمراء يرمزان للخير. والماء يعني الأمان والطمأنينة. والأسد أو الأفعى وكل الحيوانات المخيفة تعني غضب الولي الصالح على أمر معين مثل عدم تقديم قربان كان موعوداً به. وتناول بعض الفواكه كالتين مثلا يعني المرض.

وإلى جانب الأحلام هناك (السهّاي)[1] وهي شبيهة بأحلام اليقظة. ويسميه البعض (هاسس)[2]. ويُعبّر عنهما بالقول: (خطم عليّ السهّاي) أو (جاني هاسس). وكثيراً ما يذكرهما المريض بالقول مثلا: (البارح وأني متكّي، بين نوم ووقظة، لين وقف عليّ سيدي امحمد أبو صاع لابس جبّة خضراء وعمامة خضراء، وحط يدّه على راسي، حسيت بيها باردة زي التلج، وركبتني منها رعشة من قدمي لقباعتي، لين استاقظت، وما لقيت حد بحذاي)[3]. ثم يُعلن أنه تعافى وشفي تماماً من مرضه منذ تلك اللحظة.

رابعاً- التقازة:

التقازة من العادات الشائعة قديماً، يمارسها العرب وسكان ليبيا القدامى لا سيما التوارق والأفارقة منهم. وهي الاستبصار أو اكتساب موهبة التنبؤ. ربما يكون أصل اللفظ عربي قُلبت حروفه (ط=ت) و(س=ز)= طقس، لذا يكون لفظ (تقازة) أصله (طقاسة) أي التنبؤ بأحوال الجو وتقلباته مستقبلاً، فصار مع الوقت يعني التنبؤ بأحوال البشر الغائبين. ونجد في اللهجة لفظ (تِقز) أي (ند) أو (شبيه) فيقال مثلا: (فلان تقز علاّن) أي يقترب منه أو يضاهيه في السن، ففلان حاضر وعلاّن غائب، وفي ذلك تخمين واستنتاج وتنبؤ وغيبية.

والتقازة -في الغالب- ليست حكراً على متخصص أو مجرّب، وإنما كل من كانت له أزمة نفسية معينة يلتجئ إلى التقازة البسيطة لتخبره عن انفراج كربته. فلا تكون في هذه الحالة إلاّ دفعاً للقلق وطمأنةً للنفس. وعادة ما تكون نتيجتها

[1] **السهّاي**: أصلها من السهو.

[2] **هاسس**: وأصلها هازس، أي (هاجس) مع إبدال الجيم زايا.

[3] **متكّي**: متكئ. **وقظة**: يقظة. **ركبتني**: بمعنى تمكنت مني. **قبّاعتي**: أعلى رأسي. **لين**: إلى أن. **استاقظت**: استيقظت. **بحذاي**: بجانبي.

مرضية أو هكذا خطط لها التقّاز. وقد جرت العادة أن تمارس النساء التقازة في حالات نفسية مختلفة، كلحظة غياب أزواجهن لمعرفة موعد قدومهم، أو أثناء الحمل لمعرفة أجنتهن ذكوراً ستكون أو إناثاً، أو عند انتظار عريس محتمل لبناتهن البالغات.. وغيرها من الهموم التي تشغل بال المرأة.

طرق ممارسة التقازة:

وهناك عدة طرق لممارسة فن التقازة، منها جمع الحصى أو حبّات من البقول أو نواة التمر، حيث تفرز أزواجاً أزواجاً، فإذا انتهى عدد الحبّات متزاوجاً (شفعاً) كانت النتيجة سارةً وفألها طيباً، أما إذا انتهى مفرداً (وتراً) كانت النتيجة مخيبةً ومحزنةً. كما اعتاد بعض الرجال (ضرب خط الرمل) ورسم الطلاسم عليه. إلى جانب قراءة عظمة لوح كتف الأضحية، كما ذُكر. وهناك طريقة (الشبر) وهي قياس اليد والذراع والساعد، من الإصبع الأوسط لليد إلى أعلى الكتف، ذهاباً وإياباً، وهي مسافة أربعة أشبار، والمطلوب أن ينتهي القياس بالزيادة لا بالنقصان، ففي ذلك فأل حسن. وغير ذلك من الطرق.

وأذكر أن والدتي (رحمها الله) كانت تلتجئ إلى التقازة عندما يطول سفر والدي (رحمه الله). فتُحضر غربالا (منخلاً) وتضع في إحدى أطرافه قطعة من الملح، وفي الطرف الآخر قطعة من الفحم، وتمسك المغزل المشدود بالخيط، وتؤرجحه بين الملح والفحم، وهي تقول:

(يا تاقزة يا ماقزة، لا تقزتك لا على قمح ولا على شعير، ولا على فارس إللي يسير، ولكني تقزتك على سعيد ولد سليمة.. إذا كان في

خير وقريب يروح تعالي بالبياض، وإذا كان في شر ومازال مطول تعالي بالسواد.. ساولتك بالنبي، ومحمد وعلي، تصدقي وما تكذبي..).

وتبدأ بإنزال المغزل المتأرجح شيئاً فشيئاً حتى يصطدم بأرضية الغربال. فإذا كان في اتجاه الملح ينطرح وجهها دليلاً على حسن النتيجة، وأما إذا كان في اتجاه الفحم يمتعض وجهها دليلاً على خيبة النتيجة. ثم تعيد تلك العملية ثلاث مرات.

وإذا كانت التقازة بالحجارة أو حبات البقول والنواة، فتُقال نفس العبارات السابقة، مع تغير طفيف، مثلا:

(..إذا كان فلان في خير تعالي بالزوز.. وإذا كان في شر تعالي بالفرد).

وفي حالة التقازة بالشبر، يضع التقّاز قبضة يده اليمنى مليئة بالتراب على رأسه وصدره وركبتيه، ويخاطب التاقزة بالقول:

(درتك على راسي.. درتك على صدري.. درتك على ركابي..إلخ)، والمعنى: (أعهد إليك برأسي وصدري وكل أعضاء جسمي، فلا تخونين هذا العهد ولا تخذلينني)، ويواصل سرد القول السابق مضيفا:

(.. إذا كان خير تعالي بالزايد، وإذا كان شر تعالي بالناقص).

ومن بين الصيعان الذين اشتهروا بالتقازة كان المرحوم (علي شريوط) من لحمة (الجهر) قبيلة (أولاد سلاّم)، عاش زمناً في (زلطن)[1] بجوار ضريح جده

---

[1] تقع زلطن علي الطريق الساحلي بين زوارة وأبي كمّاش.

(سيدي عثمان بن خليفة) وزوّج بناته لقبيلة (خويلد) مخالفاً بذلك عُرف عشيرته. يقال أنه كان ضليعاً في (رمي التاقزة) إلى درجة التكذيب. فاختبره شيخ خويلد بأن أخفى جرداً أو حملا بحفرة أو بئر مهجور، وطلب منه أن يدلهّم على شيء مسروق وذِكر اسم سارقه. فما كان من (علي شريوط) إلاّ أن (رمى التاقزة) ودلّهم على مكان الجرد دون ذكر اسم سارقه، فصدقت رؤيته، ومن ثم صار محل احترام في (زلطن) وفي غيرها[1]. وقد اشتهر بتنبؤ أحداث معركة حصلت بين أفراد من الصيعان وفرقة من السبايس الطليان في منطقة الوطية أثناء جهاد الليبيين ضد الغزو الإيطالي، وكانت تقازته –حسب ذكر الكثير– صادقة. كما اشتهر بالتقازة أيضاً أفراد من (الكوازيز) (مفردهم: كازوز) من قبيلة (أولاد امحمد).

خامساً- قراءة الطالع:

من أبرز عمليات التنبؤ عند البدو، كانت قراءة طلاسم عظام الحيوانات، وقد اشتهر عندهم قراءة عظمة كتف خروف عيد الأضحى. وتلك الطلاسم عبارة عن خدوش وتشققات متعرجة طبيعية تصيب عظام الحيوانات. فقد يرى فيها القارئ خطاً مستقيماً دليلاً على السفر، أو خطين متوازيين دليلاً على قرب موعد حفلة زفاف، أو مربعاً أو مستطيلاً منغلقاً دليلاً على احتمال وفاة أحدهم.. وغير ذلك من التفسيرات التي يتخصص فيها المتخصصون داخل القبيلة على مدار السنة، أو رب الأسرة دون غيره، في كل رأس سنة هجرية بعدما يتناول أفراد أسرته لحم كتف الأضحية.

[1] ذكر لي هذه القصة ابنه بالقاسم بن علي شريوط منذ سنوات، كما سمعتها من كثير من غيره.

وعادة قراءة وتفسير طلاسم عظام الحيوانات قديمة قدم التاريخ. فقد عرفت عند قدماء الصينيين، خصوصاً في عهد سلالة (شانغ) التي يقوم ملوكها وزعماؤها الروحيين دون غيرهم بقراءة وتفسير تلك الطلاسم، حتى بدأ الكتبة يتعمّدون تدوين الرقى والمواحي على عظام الحيوانات، فصارت مقدّسة!



الفصل الثالث

الطب الشعبي (الأمراض وعلاجاتها)

تمهيد:

يقول الأطباء الشعبيون: (ربّي خلق الدّاء والدواء على يد من يشاء)، وهي حكمة شعبية لا يستطيع العلماءُ إنكارها، لأن خالقَ هذا الكون جعل فيه أسباب الأمراض وسبل الشفاء منها. ورغم تطور الطب الحديث المبني أساساً على ما تحويه الطبيعة من أعشاب وغيرها، إلاّ أن السنوات الأخيرة بدأت تشهد الرجوع إلى ما يُعرف بالطب البديل أو العلاج بالأعشاب، أي استخدام الأعشاب على طبيعتها كعلاج لعلل كثيرة، بدلاً من أخذها مُعلّبة على هيئة أقراص وحقن وأشربة ودهانات، مقطّرة أو مضغوطة، مضاف إليها عقاقير كيميائية أخرى داعمة وحافظة لها. حتى الحُجامة والكي والعلاجات الروحية التي كانت لسنوات مضت تُعد ضرباً من ضروب السحر والشعوذة والأخطاء الطبية، صارت لها اليوم مصحّات يتهافت عليها المرضى والمصابون. ولا نستبعد أن تدخل في القريب العاجل إلى مناهج علوم الطب الحديث وتصير لها جامعات وأكاديميات مثلما حصل مع الإبر الصينية التي كانت تُعد من العلاجات الشعبية التقليدية عند قدماء الصينيين.

أما فيما يتعلّق بالأمراض، فإن أمراض العصر التي يعجز الأطباء عن حصرها لكثرتها، لم تكن معروفة لدى البدو زمن بداوتهم، بل لم تكن موجودةً حتى يتعرّفون عليها. فالضغط والسكري والسرطان والجلطة، وكذلك القرحة في المعدة والإثنى عشر والحصى في المرارة والكلى وتورم الزائدة الدودية، ناهيك عن آخر ما ظهر من أمراض كالإيدز والالتهاب الكبدي وفيروسات الحيوانات كالذباب

والطيور والخنازير، لم تكن معلومة لدى أجدادنا الأوائل. وكل ما كان معروفاً لديهم أمراض لا تتعدّى ضربة الدم والسخانة والقَطْرة وغيرها من الأمراض الدورية المعتادة، وبعض الأمراض المستعصية كالجدري وبو نغّوط الذي يصيب الأطفال، وهي أمراض يمكن الاستشفاء منها جزئياً أو كليّاً، وذلك بطرق بدائية كالحجامة والكي وخلطات متنوعة من الأعشاب الجبلية الطبيعية. وتعود قلّة الأمراض وسرعة الشفاء منها إلى أسباب جوهرية أهمها:

6- الغذاء: البدو يتناولون وجبات صحية مكوّنة من العناصر الطبيعية المستخرجة من الأرض مباشرة دون إخضاعها لأي وسيط كيميائي، وذلك مثل القمح والشعير وزيت الزيتون والتمر والتين المجففين ولبن الأغنام والإبل واللحوم المجففة..

1- الهواء: المناخ الصحراوي جاف عادة وقليل الرطوبة لبعده عن البحر، ولكنه نقيّ وخال من الملوثات المعاصرة كأدخنة المصانع وعوادم السيارات وغيرها. علاوة على تباعد سكان الصحراء عن بعضهم البعض، عكس المنازل المتراصّة في المدن، مما يساعد على حجب كمية كبيرة من أشعة الشمس والهواء النقي، وهما عنصران ضروريان لقتل الميكروبات وتجدد الأوكسجين.

5- الحركة: البدو يرتحلون دائما بحسب الظروف المعيشية، لذا تراهم يمارسون رياضة المشي بصورة تلقائية، حتى نساؤهم يقطعون مسافات طويلة لجلب الحطب وورود المياه. علاوة

على التزام الرجال والنساء عادة رفع الأثقال المفيدة لتمرين العضلات والمفاصل.

4- النوم مبكّراً والاستيقاظ مبكّراً: وهي عادة صحية مفيدة في مقاومة الكسل والخمول أثناء تأدية الأعمال النهارية، علاوة على تمكين الجسم من الراحة اللازمة أثناء ساعات النوم ليلاً. ويصرّون دائماً على تعليم أطفالهم قاعدة (أن النوم النهاري لا يعوّض لذة النوم الليلي)، إقتداءً بالقاعدة القرآنية التي تفيد بأن الله جعل لنا النهار معاشاً والليل سباتاً.

3- النار والدخان كوسيلة للطبخ: البدو يستعملون نار الحطب والشعّال الجاف الذي يحدث لهباً طبيعياً ودخاناً واضحاً، وهذه النار مفيدة في نضج الطعام بصورة طبيعية وفي وقته المناسب، وذلك أفضل من النيران الصناعية كالكيروسين والغاز اللذين يحدثان لهباً اصطناعياً بدون أدخنة. أما النيران بدون لهب فقد يستعمل البدو أحياناً جلّة البعير لطهي الشاي غالباً، وهي كالفحم الذي ينتج الجمر دون لهب، وكلاهما أفضل من مواقد الكهرباء ذوات النيران المحمرّة اللاذعة.

1- أواني الطبخ وغسلها: البدو يستعملون قدور الطين، بدلا من قدور المعادن خاصة الألمنيوم الذي أحدث مشاكل صحيةً في زماننا الحاضر. أما أواني تناول الطعام فيعتمدون على (قصاع العود) المنحوتة من جذوع الأشجار، و(قصاع الفخار)

المصنوعة من عجائن الطين. والبدو لا يستخدمون المساحيق والمحاليل المنظّفة، وهي عادة ما تكون مواد كيميائية متسرطنة، بل يعتمدون على الماء وأنواع التربة كالرمل والطين وألياف النخل، وتعريض أوانيهم إلى الشمس والهواء مباشرة، وهي طريقة طبيعية لقتل الميكروبات والشوائب العالقة بها.

أولاً- الأمراض وأوصافها والتعبير عنها:

أ- الأمراض:

6- الأمراض الجلدية: أخطرها (الجُدَري) وهو قروح ممتلئة ماءً، تظهر على الجلد ثم تُقيّح. و(الطالعة) أو (النابوتة) وهي نوع من الدّمّل يُعرف اليوم بالأكياس الدهنية التي تبرز على الجلد وتمتلئ قيحاً ودماً. و(التُلال) وهي حبّات لحمية ناتئة من الجلد. و(الحزاز) وهي الحزوز التي تبدو على هيئة خلايا فقيرة أو قروح جافة تأخذ في الاتساع إذا أهملت. و(البرص) وهي تغير في صبغة لون الجلد، صعب الشفاء منه. و(البهك) وهو كالبرص، أخف وأهون منه. أما (الحسبة) فهي حبيبات متورّمة حمراء تصيب جلدة الطفل، ولها عوارضها وعلاجاتها المعروفة.

1- الأمراض الشتوية: (الكحّاحة) وهي السّعال. و(العوّاية) وهي سعال شديد يصيب الأطفال عادة. و(القَطرة) وهي الزكام الحاد. و(القفاقيف) وهي شدة الارتعاش بسبب أمراض البرد. و(الحمو) وهي الحُمّى..

5- الأمراض الصيفية: (ضربة السمس) وهي التعرض لأشعة الشمس وقتاً طويلاً، فتسبب الألم الشديد في الرأس، يصل إلى نزيف الدم من الأنف، وقد تؤدي إلى الوفاة، وتسمّى (البقلة). (ضربة الدم) التي لا تخف وطأتها إلاّ بخروج كمية من الدم الفاسد بواسطة الجروح المتعمّدة. و(الشقيقة) وهي الصداع النصفي.

4- الأمراض المعوية: (وجيعة فم الكبد) وهي تعبير عن التهاب الإثنى عشر. و(زهاف الكبد) وهي الشعور بالقي. و(الردّان) وهي القي. و(الوجيعة في الجواجي أو الأفّاد) وهي تعبير عن ألم المعدة والأمعاء. و(يبس البطن) وهو تعبير عن الشعور بالإمساك. و(جريان البطن) وهو تعبير عن الإسهال..

3- العظام: (الكسر) وهو الكسر الواضح في العظم. و(الشعب) وهو كسر بسيط أو تشقق في العظم. (الفدع) و(الفكاك) و(البرمة) وهي التواء المفاصل.

1- العضلات والأعصاب: (لحمة مطلوسة) أو (ملصة) وهي تقلص في العضل. و(فاهق) أو (نخصة) وهما تقلص أو شد الأعصاب في الصدر والجنبين.

ب- وصف المريض لحالته:

(نحس في روحي مسخسخ): أشعر كما لو كانت أركان جسمي متخلخلة، بسبب الفشل.

(تقول عليّ ماضغتني هايشة وقادفتني): أشعر كأن تنّيناً مضغ جسمي وتقيأه.

(ما فيّ عظم صحيح): لا يوجد في جسمي عظم سليم.

(ركابي يسطّرو) ركبتاي تخفقان من شدة الألم.

(مصاريني متمزعقات، أو مطمحمطات): أمعائي كما لو كانت ممزّقة أو مسحوقة.

(اللي ناكله نردّه): أي نوع من الأكل أتناوله أتقيأه على الفور.

(ريقي مرّ زي الدرياق): طعم ريقي مرّ كالترياق.

(عيوني مضبّبات): أشعر بغشاوة على عيني وأكاد لا أرى.

(قبّاعتي بالطير منّي): أشعر بأعلى رأسي سينفصل عني ويطير.

(ركبتني وزوزة من قدمي لقبّاعتي): انتابني ارتعاش وقشعريرة من أعلى رأسي إلى أخمص قدمي.

(صدري مغلّق عليّ): صدري كما لو كان مقفولاً من شدّة الإصابة بالبرد إلى درجة الصعوبة في التنفس.

(عندي كحّاحة فارغة): أي سعال بدون بلغم، وهو مؤلم.

(ليلتين ما كحل عيني النوم): لم أنم منذ ليلتين.

(أربع وجبّ ما خش بطني لايج): يومان (في كل يوم وجبتان= غداء وعشاء) لم يلج بطني الطعام.

(طول الليل وأني نزازي، أو نلاجي أو نمولج): طوال الليل وأنا قلق وأبحث عن مخرج من حالة المرض والسهر والسهاد.

ج- وصف المريض من قبل الغير:

(فلان وجهه أصفر زي البزار، أو الكركم، أو الزعفران، أو المح، أو الليمة..): وكلها صفراء اللون، استعارة للتعبير عن حالة المريض.

(فلان وجهه مظلّم، أو مدخّن، أو أسود زي الفليج): أي أسود مثل فليج بيت الشعر، كدليل على الدم الفاسد الذي يجري في وجهه!

(فلان وجهه منفّخ زي البندير): وجهه منتفخ كالدف.

(فلان لسانه رزن أو ثقل أو سقط، ويتكلم بالصبع، أو بالشارة): صار لسانه ثقيلاً لا يقوى على الكلام فيشير للشيء بإصبعه.

(فلان يقدف ويجي على راسه): ينحني كثيراً للتقيؤ.

(فلان شواربه مسبتات، أو يابسات من قلّة الماكلة): شفتاه جافتان بسبب عدم تناول الطعام لفترة طويلة.

(فلان ملوّح زي الخيط): متهالك القوى غير قادر على الحركة كالخيط المرمي.

(فلان عيونه مغرّقات، أو محلوقات أو محلّقات): عيونُه غائرة من شدة الهزال، ويحيط بهما السواد.

(فلان رايح جلدة على عظم، أضربه على الحيط يلصق): أي من شدّة الهزال والضعف والوهن.

(فلان ما قعدو فيه غير السنون مسنّقات والعظام مطنشات): لم يعد يظهر منه غير أسنانه المكشّرة وعظامه البارزة من شدة الهزال.

(فلان يبات طول الليل يهتري، أو يخترف): عند النوم يُطلق كلاماً بدون معنى من شدة الحرارة.

(فلان يبات طول الليل يُنبر): يسعل بدون انقطاع.

(فلان طول الليل يتقوفز، أو يتقومز): ينتفض من شدة الوخز والمغص.

(فلان طول الليل والعرق يخرط، أو يندل منه): يتصبب عرقاً.

(فلان يعوم ويغطس بالعرق): كثيرُ العرق.

(فلان قلعولة المغايث، وطلع منه دم أسود زي القطران): تعرّض لعملية الحُجامة فاقتُلع منه دم أسود كالقار، دليلاً على أنه كان مريضا فعلا!

(فلان آمس تنفس شوي، واليوم نكس): بالأمس تحسن قليلاً، أما اليوم انتكست حالته وعاوده المرض.

ثانياً- العلاج بالأعشاب وغيرها:

بما أن الصيعان وغيرهم من القبائل البدوية الأخرى التي كانت تنتجع سهل الجفارة، وهو سهل محصور بين البحر المتوسط شمالاً، وسلسلة من الجبال على هيئة هلال تحيط به من مدينة الخُمس شرقاً إلى مدينة قابس غرباً، يضم جبال نفوسة والدويرات ومطماطة. تأثر جميعهم بخصوصية مناخ هذا السهل، وذلك من حيث الأمراض التي يسببها تقلب أجوائه، من جهة، والعلاجات المضادة التي تحويها أعشابه ونباتاته، من جهة ثانية. أضف إلى ذلك الثقافات المكتسبة والنظرة المشتركة إلى الأمراض النفسية والعضوية وطرق الشفاء منها.

وقد يتأثر الإقليم النباتي لسهل الجفارة بمناخ البحر المتوسط شمالاً والمناخ الصحراوي جنوباً، فكلما اتجهنا جنوباً قلّت أعشابه وازدادت فقراً، متأثرة بمعدل سقوط الأمطار، فتختفي في أوقات الجفاف وتظهر في أوقات الرطوبة. غير أن معظمها يتكون من نباتات الإستبس الفقيرة، أهمها ما يُعرف محلياً بـ(الشعّال) لجفافه وسرعة اشتعاله، مثل العرفج والرتم والغردق والقزّاح والرمث والتقوفت والسدر[1].. إضافة إلى أنواع أخرى تتنوع بحسب مواقعها المختلفة مثل حواف الأودية وكعوب الجبال وبعض الهضاب وواحات النخيل وغيرها. وبعض فصائل

---

[1] ومعظم هذه الأسماء عربية فصيحة.

السعديات كالحَلْفاء والقدّيم والسبط والديس والصمار.. ومختلفة الطعوم والروائح كالحنظل والحرمل والحمّيضة والنتّينة أو العفّينة.. والنباتات المفيدة غذائياً كالقيز واليازول والجرجير والعسلوز.. بالإضافة إلى النباتات المجلوبة من الجبل والمعروفة باسم (حشائش الجبل) كالشيح والعرعار والفيجل والكليل والزعتر..

ملاحظة: معظم هذه النباتات التي ذُكرت استغلّها البدو في علاج العديد من الأمراض بعد أن خبروها وجرّبوها ثم تعاطوها ووصفوها لمرضاهم.

(الفيجل) قد يكون مفيداً لأمراض الصدر عند الإصابة بالبرد مثل (العوّاية) والسعال الشديد. حيث يطبخ ويلف على الصدر والجنبين والظهر، ويُغطى المريض بأغطية ثقيلة. و(الشيح) قد يكون مفيداً لأمراض البطن، خصوصا الديدان التي تسكنها والتي يسميها العامة (الحناش)، حيث يُطبخ ويُشرب ماؤه، أو يُستنشق بخاره. و(الجعدة والروبيا والجداري والزريقي والدباغ)[1] التي تفيد في علاجات المعدة والإثنى عشر. وشجرة الريح التي تستعمل كمليّن للأمعاء. وهناك خلطة دوائية مشهورة تُسمّى (المختومة) تحتوي على أربعين صنفا من الأعشاب الجبلية كـ(الزريقي والشيح والفيجل والعرعار والزعتر..)[2]، يُضاف إليها أربعون صنفا من العطريات المجلوبة من المدينة كـ(الجاوي والفاسوخ والوشق والحنتيت

---

[1] وهي من الدباغات التي تُدبغ بها القرب فتصير قوية ومتينة ما دامت تُستعمل.

[2] ويتم جمعها من الجبل في الأيام الخمس والعشرين الأولى من بداية الصيف.

والكمون والحبة السوداء..)، تُسحق وتُخلط بالماء أو تبقى دقيقاً، ويتناول منها المريض جرعة على الريق لمدة أربعين يوما.

إلى جانب الأعشاب هناك الوجبات السائلة الحارّة كـ(الدشيشة)[1] و(الحسي)[2] وغيرهما، إذ تقدّم للمصاب بالزكام والسخانة لفترة وجيزة فيشفى بإذن الله. أما الأمراض التي تصيب الأمعاء فتعالج بالصيام لمدة أسبوع أو عشرة أيام.

وهناك طرق علاجية لا تُطعم بواسطة الفم، وذلك مثل:

6)- الحجامة: المعروفة عند البدو بـ(المغايث) جمع (مغوثة) ومصدرها من (الغوث والإغاثة)، وهي إناء معدني صغير مصنوع من الصفائح خصيصاً لهذا الغرض، بحيث تكون فوهته أضيق من جسمه، يُسخن داخله لحرق الأكسجين بهدف شفط الدم من الجروح المحدثة مسبقاً في مؤخرة الرأس من الجهتين اليمنى واليسرى. وتُعاد العملية ثلاث مرّات على الأقل، فتخرج كمية من الدّم الأسود، ويُعتبر دماً فاسداً تخلّص منه الجسم، فيتماثل المريض على التوّ إلى الشفاء. وإلى جانب الحجامة بواسطة (المغايث) هناك جروح أخرى تُحدث على الجبهة أو أي مكان آخر في الجسم حسب نوعية المرض ومكان الألم، وهي (التشليط) و(البقط) و(الوشم) وغيرها. وكان يُستخدم في كل الأنواع السابقة مدية تسمى (موس حبشي) على أن يكون حادّاً بما يضمن حدوث الجروح بالعمق الذي يريده المعالج. وفي جميع الحالات تُعقّم الجروح بالملح عادة.

[1] **الدشيشة:** الشعير المهروش، يطبخ في المرق ليصير حساءً.

[2] **الحسي:** الحساء، وهو دقيق مطبوخ في المرق.

1)- الكي: وهي تسخين قطعة من الحديد إلى درجة الاحمرار وكي المكان الذي به الألم كـ(الملصة)[1] و(الفكاك)[2] والرأس. وهو أنواع وأحجام ومحاور كـ(المطرق)[3] و(الطُّبّاعة)[4] و(التوسويس)[5]. حيث يختار الشخص المعالج المكان المتأثر بالألم. على أن يكون هذا الشخص وارثاً للصنعة أو موهوبةً و(معطية له) من مختص غيره، فتدخل فيها (البركة) إلى جانب الخبرة. وقد يكون مفيداً في علاج أمراض خطيرة كـ(الناصول)[6] الذي يصيب الحلق، فتكوى الرقبة بـ(مطرقين) على اليمين واليسار. وكذلك أمراض العين حيث تكوى عروق الصدغين بـ(طُبّاعتين). وهناك الكي بعود نبات (السمار)[7] على نوع من الفطريات الجافة التي تبرز على سطح الجلد وفي بعض الأماكن الضيقة تسمى (التُلال) جمع (تُلالة)[8]، تُكوى الأم التي تظهر الأولى، فتموت بقية الحبيبات الأخرى لوحدها.

والكي معروف منذ القدم. فقد ذكر هيرودوتس أن قدماء الليبيين أصحاء، وأحد أسباب ذلك أنهم كانوا يكوون أبناءهم عند بلوغهم السن الرابعة في

---

[1] **الملصة**: انزلاق في الغضروف أو العضلة.

[2] **الفكاك**: ليّ في المفاصل.

[3] **المطرق**: كي مستطيل.

[4] **الطبّاعة**: كي مستدير بحجم قطعة النقود، وهي تشبه الختم المطبوع على الورق.

[5] **التوسويس**: تكرار ضربات الكي بأداة حديدية رقيقة كالسلك المعدني.

[6] ربما سمي هكذا لأنه يحتوي على كيس به نواة أو قلب يجب أن يتنصل من مكانه ليحصل الشفاء.

[7] **السمار**: أو الصمار، نبات من فصيلة السعديات، له سيقان طويلة وحادة كالمسمار، ينبت على حواف الأودية ومجاري المياه.

[8] البعض ينطقها ثلالة، بثاء مثلثة. ويبدو أن الاسم مشتق من تلال الجبل لأن التُلال يرتفع قليلا على سطح الجلد كالجبل المرتفع على سطح الأرض.

رؤوسهم كوقاية لهم من الأمراض الناجمة عن نزل الرأس وإفرازاته[1]. وكذلك يفعل بدو هذا العصر، ولكن مع الكبار عادة وليس مع الصغار.

5)- وفي حال الإصابة بمرض (السليمة) وهي من الدمّل الخطيرة الممتلئة بالدم والقيح وتنتفخ تحت الجلد، فتعالج بصفار البيض المطبوخ ودهن المكان المتورّم بواسطة ريشة، أو بجلدة الورل والحرباء، إلى جانب تضميدها بخلطة من (القضّوم)[2] وهو حبيبات ذات نواة صلبة تنتجها بعض الأعشاب البرية. وفي جميع العلاجات السابق ذكرها تنفتح الدمّل وتتخلص من مخزونها وتخرج نواتها، فيبرأ منها المريض.

4)- أما بقية الأمراض الجلدية كـ(الحبّة) و(الطالعة) و(النابوتة)[3] وغيرها من الدمّل، فتعالج بجلّة الإبل، على أن تكون (حويلة) أي مرّ عليها في الطبيعة سنة أو سنتين، فيصير لونها أبيض. فتُسحق كمية منها وتوضع على الموقع المتورّم من الجلد.

3)- وإذا أصيبت العين بداء (الرمد) وهو مرض يكثر عادة في فصل الخريف، فقد أثبتت التجربة أن (الفلفل الحار) دواء ناجع لذلك. سواء بطبخه في الماء وتقطيره في العين، أو وضع (قرن)[4] من الفلفل الأحمر الطازج في (الملاّل)[5] بعد إحداث فتحة في مقدّمته، فيرشح منه قليل من الماء، يُبرّد ويُقطّر في العين

[1] وذلك باستعمال لفافة من الصوف الملطخ بدهن الخروف تُشعل وتُضع على وسط الرأس أو على عروق الصدغ. أنظر: **البرغوثي**، مصدر سابق، ص 151.

[2] **القضّوم**: سمي هكذا لأنه يُقضم، حيث توضع في الفم مدة طويلة من الوقت من أجل التسلية عادة.

[3] **الطالعة والنبوتة**: سميت هكذا بسبب طلوعها كالنبتة على سطح الجلد.

[4] **قرن**: واحدة من ثمرة الفلفل.

[5] **الملاّل**: بقايا النار مخلوطة بالرماد.

مباشرة. وثبت بالدليل أن العلاج بالفلفل مرّة واحدة يمنع الإصابة بالرمد مدى الحياة.

1)- أما تسوّس الأسنان فيعالج بشريحة من الحنظل توضع على الضرس المتضرر وتُطبق عليها الأسنان ويُغلق الفم مدة طويلة من الوقت، وهو علاج صعب جدا وقليل من يحتمل الحنظل في فمه لحظة واحدة. ولكنه في المقابل يمنع الإصابة بالتسوّس بقية الحياة. والبعض يستعمل سائلا أبيض كاللبن يُستخرج من أطراف الضفدعة، يُقطّر بواسطة قطعة من الصوف في حفرة الضرس المتضرر، فيقضي على التسوّس.

5)- وفي حال كسر العظام، تُربط أربع سيقان من القصب أو جريد النخل على العظم المكسور، وتُشد بالحبال، وتُطلى بخليط من عجين الحلبة والجبس، وتُلف بأشرطة من الأقمشة، ويُعطى المكسور حساء دقيق القصب ولبن الإبل. فلا يمر شهر حتى يُجبّر العظم ويلتئم، وتُزال الضمائد، ويقوم المكسور إلى عمله دون شعور بالألم.

0)- وإذا أصيب الشخص ببرد قوي، يقولون عنه (قطر) أو (مقطور) أي أصيب بـ(القَطْرة). ولها عدّة علاجات، ترتكز كلها على أهم عنصرين: إحداث نوع من البخار، والتدثر بأغطية ثقيلة، فيفرز الجسم كمية كبيرة من العرق، وذلك علامة الشفاء الكامل من (القَطرة). وللحصول على البخار المطلوب عدة طرق:

أ- (فاس أطرش) أي مدبب من الجهتين، يُحمى ملياً بالنار، ثم يوضع في الماء، ويُعرّض المريض لبخاره الكثيف.

ب- (سبع رشادات وادي محجوبات) أي سبع قطع من حجر الوادي المخفية تحت الرمل، تُحمى هي الأخرى وتُضع في الماء، فتُحدث بخاراً كثيفا.

ج- (جلّة الحويل) أي جلّة الإبل المتحوّلة التي تعرّضت للشمس مدة سنة أو سنتين فصارت بيضاء. تُنقع في الزيت، وتوضع في النار، فتُحدث دخاناً ثقيلاً وكثيفاً، يُركز كله على المصاب.

1)- (الأفاعي والسحالي كالضب والورل) وهي من الزواحف التي تعيش في سهل الجفارة والجبال المحيطة به، التي جرّبها البدو ووصفوا لحومها لمرضاهم. أما الأفاعي السامّة فيستأصلون منها المقدّمة والمؤخرة بمقاسات مقدّرة ويتناولون لحمها (الشهي) حتى في غير حالة المرض. وهذا يذكّرنا بما ردّده هيرودوتس في تاريخه عن بعض القبائل الليبية القديمة التي قال أنها تعيش على أكل الأفاعي والسحالي.

أمّا الحيوانات الأليفة فهي الأخرى محل اهتمام البدوي لما تشكله له من مصدر رزق أساسي. فيعاملها -إذا مرضت- كما يعامل أهل بيته. وأشهر الأمراض عند العرب جميعاً والتي تصيب الإبل خاصة مرض (الجرب)، وهو من الأمراض الجلدية المسببة للحكّة، حتى ضُرب به المثل الشعبي: (فلان زي الجمل الأجرب). وعلاجه الوحيد القار (القطران)، حيث تُطلى به الإبل فتُشفى. وقد يجد المعالج صعوبة في أداء هذه المهمة، وذلك لكبر حجم الإبل وكثرة عددها. وهذا أحدهم يتذمّر من معالجة الإبل بالقطران، وهو (الشلحي كلّة) من أولاد امحمد. يقال أنه حط رحاله قرب (المحاميد) فسرّح إبلهم مع إبله، وكان

معه ابنه. ومع بداية أداء مهمته مرضت كل الإبل بالجرب، مما اضطره إلى معالجتها بالقطران. وعندما تعب هجاها قائلا:

(يا ريتني ما ريتك.. ويا ريت بيتي ما نزل عل بيتك
يا ريت ما جاك الجرب وطليتك.. ويا ريت ما مدّش عماك ضنيني)[1].

68)- كما أن هناك علاجات توصف في إطار الخدعة والتحايل على المريض، مثل المصاب بمرض (الصفّير)، فيتحايلون عليه بالجلوس في مكان عال، ويهمّون بدحره من الخلف مدّعين الإطاحة به، فيصاب بـ(الخلعة) أو (الفجعة)، فتستقيم أموره ويطلب بنفسه تناول الأكل دليلاً على فتح شهيته بعدما كانت (نيته مسدودة)، فيتعافى من الصفراء بعد مدة. وهناك العلاج من (الفاهق)، خصوصاً عند الأطفال، فيطلب منهم الاستيقاظ مبكراً والانحناء عكس اتجاه الشمس المشرقة للتو، والتقوّس إلى أن يظهر نورها بين الرجلين، ومعاودة ذلك سبع مرات. أو ملء الفم بالماء والتأرجح بغصن شجرة سبعة أشواط. وهذه في حد ذاتها حركات رياضية مفيدة للعظام والعضلات معا، فيزول بمزاولتها ألم (الفاهق) و(المناخيص). وهناك ظاهرة خلع أسنان الأطفال في مرحلة التغيير، حيث كانت أمهاتنا تأمرنا بأن نرمي السن أو الناب أو الضرس بعيداً، ربما فوق البيت، مع مخاطبة الشمس بعبارة: (خوذي ضرس الغزال واعطيني ضرس الحمار)، لأن أسنان الحمار أقوى من أسنان الغزال حسب الاعتقاد.

---

[1] **يا ريتني**: يا ليتني. **مدّ**: سرح ورعى الإبل. **ضنيني**: إبني.

ثالثا- العلاجات الروحانية:

تتدرّج الأمراض الروحانية من الحالات النفسية البسيطة كالقلق والكبت والكآبة وما ينجر عنها، إلى الحالات العصبية المستعصية كالمس والجنون والخبل.. وهي أمراض لا يرى البدو جدوى من الشفاء منها عن طريق الأدوية والعلاجات التقليدية المعروفة كالتي ذكرت آنفاً، وإنما يلتجئون إلى طرق غامضة تتناسب مع هذه الأمراض الغامضة، التي يختارون لها أسماء غامضة أيضاً، مثل: العون، والواري، والريح..)، وكلّها تصب في معنى الهواء وتياراته العنيفة التي لا تُرى. إلى جانب الاعتقاد بسكنى الجن في الأجسام البشرية! وأحياناً يرمزون إلى هذه الأمراض بـ(باسم الله العظيم)، ويسمون الجان بـ(أولاد باسم الله).

6)- الحضرة:

الحضرة حفلة دينية تعتمد في الأساس على ذكر الله ومدح رسوله الكريم (المدائح والأذكار). واسمها مشتق من (الحضور) وهو حضور (وجه الرسول والصحابة وكافة أولياء الله الصالحين) طمعاً في استجابة الله –بجاههم– لدعاء الحاضرين وتحقيق أملهم في شفاء مريضهم الذي نُصبت من أجله (الحضرة). وهي عبارة عن ترديد قصائد دينية منغّمة، ومشطّرة بعبارة (الله يا الله)، ومصحوبة بقرع الدّفوف (البنادير) وأداء الحركات الراقصة (الجذب) التي تتحرك فيها كل أعضاء الجسم، إلى جانب زغاريد النسوة وحرق البخور. وفي خضم هذا المهرجان الصاخب المؤثر على الجميع يتم التركيز على المريض الذي يجب أن يكون أكثر تأثر من غيره، فيُسحب رويداً رويداً –بمساعدة أقربائه– إلى وسط الحلبة ويبدأ في

أداء حركات (الجذب) المرتكزة أساساً على تحريك الرأس من اليمين إلى اليسار، وتحريك الظهر من الأمام إلى الخلف. وإذا ارتفعت عنده وتيرة التأثر يقولون عنه أنه (طاح في الحضرة) أو (شاش)، ويعدّون ذلك أولى بوادر الشفاء. ومن شدّة التعب يسقط المريض على الأرض مغشياً عليه، فترتفع أصوات الرجال وزغاريد النساء وتزداد حدّة قرع الدفوف، إلى أن يفيق المريض وينهض واقفاً وقد انفرجت كُربته وزالت علّته. ولو تفحصنا هذه العملية ونظرنا إلى أسباب نجاحها سنجد أن فوائد (الحضرة) تعتمد على أهم العناصر التالية:

6- النية: وهي الاستعداد النفسي الكامل والاعتقاد الراسخ في أن الله قادر على كل شيء (يحيي العظام وهي رميما)، وهو دون غيره (الشافي العافي) من كل العلل والأمراض سواء أكانت نفسية بسبب الضغوط الأسرية والاجتماعية، أو روحية لها علاقة بمس الجن وسكن الأرواح الشريرة في الأجسام، أو عضوية لا دخل لها بهذا وذاك، أو مشتركة فيما يُعرف حديثاً بالأمراض النفسجسمية. وهذه النية الخالصة والاعتقاد الراسخ يهيئان النفس البشرية المريضة للشفاء.

1- ذكر الله: الحضرة شكل من أشكال حلقات الذكر التي تعتمد في الأساس على ذكر لفظ الجلالة والتفاعل النفسي والحركي معه، (ألا بذكر الله تطمئن القلوب)، وعندما تطمئن القلوب تستجيب سائر أعضاء جسم المريض للشفاء.

5- الثقة في أولياء الله الصالحين: البدو -وغيرهم- يعتقدون أن بعض أجدادهم الأُول لهم حظوة خاصة عند الله، وبواسطتهم تستجيب السماء للدعاء، وقد تتجاوز علاقة الإنسان بالولي الصالح -حياً كان أو ميتاً- حدود الروح إلى

عالم الماديات، فيصير طلب الشفاء من الأمراض العضوية مشروعاً بل وقد يكون مستجاباً مما يقيم الدليل والبرهان على علاقة الصالحين بربّهم، فتزداد ثقة الناس بهم، ويتهافتون على أضرحتهم أو يتبرّكون بأبنائهم وأحفادهم الوارثين لكراماتهم.

4- الجو العام للحضرة: إن قرع الدفوف وأصوات الذاكرين والمادحين وزغاريد النساء وروائح البخور، كلها مجتمعة، تُخرج المريض من حالته المرضية، وتُدخله في جو روحاني خالص، وتُعطيه قوة التغلّب على آلامه إذا كانت عضوية وقدرة التخلّص من الجن إذا كان يعاني من مرض نفسي. لأن لصخب الحضرة وضجيجها أعظم الأثر على نفسية المريض الضعيفة وعلى أعضائه المتهالكة بسبب المرض.

3- الحركة الجسدية: عندما يتفاعل المريض مع دقّات الدفوف الموزونة والأناشيد المنغّمة يجد نفسه مضطرّا لتحريك أعضاء جسمه التي بقيت جامدة وخاملة وساكنة طيلة مدّة مرضه، فيتحرّك الرأس والرقبة وفقرات الظهر واليدين والرجلين. وإذا ارتفع عنده مؤشر الانسجام والتفاعل والاندماج تتحول تلك الحركات البسيطة والموزونة إلى القفز والجري وأداء الحركات العشوائية العنيفة التي تتناقض مع تصرفاته قبل دخول الحضرة حيث لم يكن قادرا على تحريك يده لتناول شربة ماء أو لقمة أكل معتمداً فقط على مساعدة أهله في ذلك.

1- الشعور بالأهمية: عندما يرى المريض أن الحضرة نُصبت من أجله، وأن أهله كانوا حريصين على تجهيزها وتمويلها، يشعر بمحبتهم واهتمامهم به، فيطمئن قلبه، مما يدفعه إلى ضرورة التفاعل مع الحضرة والاستجابة لأوامر

(المرابطية) وحثه على أداء الحركات أو شرب الدواء إذا كان ضرورياً، بينما كان قبل ذلك يرفض الأدوية ولا يستجيب لأداء أبسط الحركات.

5- جانب التنفيس: بعض الأمراض العضوية تصيب الإنسان بسبب القلق أو الكآبة أو الكبت أو الحرمان أو العنف الاجتماعي أو غير ذلك من الدوافع النفسية السلبية، فيجد في الحضرة وصخبها متنفساً يفجّر فيه كوامنه ويفصح عن خوالجه، ليس بواسطة البوح بأسراره لفظاً وإنما بواسطة الحركة العنيفة والصياح العالي، فيشعر بانفراج نفسي وتحسن جسدي، ولو كان ذلك جزئياً ومؤقتاً.

0- التعفيس: وهي عادة ما تكون مصحوبة أو ملحقة بمراسم المداواة بالحضرة. والتعفيس عملية يختص بها الشيخ أو المرابط، إذ يقوم بوضع قدمه اليمنى على ظهر المريض، أو على أجزاء جسمه كلها، إلى درجة الوقوف عليها بكل ثقله، وكل ذلك مدعوماً بقدرة الله وبركة الولي الصالح الذي أقيمت الحضرة على شرفه. وتعتبر هذه العملية -في حد ذاتها- إحدى الطرق الاستشفائية التي يعترف بها الطب المعاصر كنوع من التدليك أو ما يعرف بـ(المسّاج) في العلاج الطبيعي.

كل هذه العوامل تجعل نتيجة (الحضرة) إيجابية في غالب الأحيان، فيتناقل الناس قصة ذاك المريض بالقول: (فلان جاء به أهله محمولاً على الأكتاف أو على دابّة، وعادوا به ماشياً على قدميه. الشيء لله بأولياء الله، وإن لله رجال، وتستور وبركة يا سيدي فلان).

1)- علاجات روحانية أخرى:

وهي كثيرة لا تُحصى. وذلك مثل الرقى المختلفة والمتنوعة بحسب الحالة المرضية، وتُعرف بـ(الكتيبة) أي الكتابة. وكذلك (التعزيم) وهي القراءة على المياه والأغذية. مثلا:

- (التلويذ) على الصبي المصاب بالعين (وهي إما بدافع الحسد أو بدافع الاستحسان وإبداء الإعجاب)، ويُسمى شعبياً (المشبوح)[1]. حيث يتم التعزيم على بيضة نظيفة بقراءة الفاتحة ثلاث مرّات، وذكر اسم (محمد) ثلاث مرات، وتدويرها على الطفل سبعة أشواط من اليمين إلى اليسار، ثم سبعة أشواط من اليسار إلى اليمين، ثم يجري فقسها في إناء أبيض به ماء، فتظهر فيها عين سوداء واضحة، بل ويظهر لها أهداب! فيصمت الصبي عن البكاء ويخلد للنوم. أما بعض العجائز فتضع في يدها قطعة من (الفاسوخ)[2] وتقوم بتدوير قبضة يدها على الصبي (المنفوس)[3] سبعة أشواط يمينا وسبعة أشواط يسارا، فتزول (النفس) عن الصبي.

- وهناك الأتربة والمياه المباركة المجلوبة من أضرحة أولياء الله الصالحين. وهناك رش لعاب (المرابط) أو (المرابطة) على المريض فيُشفى. وهناك زيارة الأضرحة وقبور المرابطين.

---

[1] **المشبوح**: المنظور نظرة سوء أو إعجاب، لأن الشبح يعني النظر.

[2] **الفاسوخ**: نوع من النبات إذا أُحرق يُنتج دخانا كريه الرائحة، يُعتقد أنه طارد للأرواح الشريرة.

[3] **المنفوس**: كالمشبوح الذي أُخذ بالنفس، والنفس هنا من النوع الخبيث.

– ويوجد بعض الأمراض العضوية التي لا تُعالج إلاّ بأسباب روحانية، مثل البركة الموهوبة والمعطية، وهي انتقال أسباب العلاج من شخص لآخر، فيقال: (فلان معطيله الشيء)[1]. ومثل هذه الأمراض مرض (بو نغّوط) القاتل للأطفال، إذ يصاب الصبيّ بهزال شديد وتلتوي أصابعه وتنكمش أطرافه، ثم يتوفّى. ويقال أن هذا المرض لا يزال موجوداً إلى يومنا هذا مشكّلاً لغزاً محيّراً للأطباء لصعوبة تشخيصه. وكان سرٌّ من أسرار علاج هذا المرض قد ورثه ذات يوم (محمد بن خليفة بريبش، قبيلة أولاد سلام) من شخص مبارك مقابل قرص من الخبز وبضعة دراهم، ف(رشّ كفّيه بريقه). ويحتوي العلاج على: (5 حلوق رمّان و68 حبّات شعير وعُرف شيح وعُرف رتم)[2]، تُدق جميعاً وتخلط بالماء وتُعطى للطفل على الريق لمدة خمسة عشر يوماً، فيشفى تماماً ويعود إلى سابق عهده. مع العلم أن هذه الخلطة لا تجدي نفعاً إذا حضّرها من لم يُعط السر بواسطة رش يده بريق صاحبها الأول. وقد جُرّبت مع أطفال هم الآن كبار يؤكّدون صحة ذلك.

أما مسألة (العين) التي تصيب كل شيء (الإنسان والحيوان والنبات وحتى الجوامد) فهي معقدّة وشائكة، وهي معروفة في جميع أنحاء العالم، وقديمة قدم التاريخ. وتتنوع علاجاتها بحسب الثقافات الموروثة لدى المجتمعات على اختلافها. فإلى جانب الطرق العلاجية التي ذكرنا بعضها، هناك أيضاً طرق الوقاية منها وتجنب أهوالها، وذلك مثل ذكر الرقم (خمسة) أو تعليق (خمسة اليد) على كل شيء معرّض لـ(الأخذ بالعين)، وبعض الرموز الأخرى كـ(الحوت) و(قرن الغزال) وغيرها. والآخذ بالعين قد يكون غافلاً عما يسببه للآخرين من أذى،

---

[1] **معطيله**: مُعطى له، والمقصود هنا: السرّ الخفي للدواء أو طريقة العلاج.

[2] **حلق الرمّانة**: مكان زهرتها قبل تكوّرها. **عرف**: غصن صغير. **شيح**: نوع من النبات الجبلي. **رتم**: نوع من النبات الصحراوي.

فذلك من الأمور الخفية التي تدخل في تركيبته الخلقية، ولكن النقيضين (الحسد والإعجاب) قد يكونان دافعين قويين لذاك التأثير المباشر الذي يحصل لمجرد الرؤية. وقد يعزيه البعض أيضاً إلى عدم ذكر اسم الله (مثل: ما شاء الله) أثناء الإعجاب بالشيء فيكون السبب الرئيسي في الإيذاء، أما إذا ذُكر اسم الله فيبطل مفعول العين المؤذية. ويُقال إذا ابتلي أحدهم بامتلاك هذه العين الحاسدة، يمكن علاجه بأن تقدّم له قصعة من الرماد المسقّي بالمرق كما لو كان وجبة من (الكسكسي) الشهي، فيفاجأ بالرماد حال إزاحته غطاء القصعة، ومن ثم يتحسّن أداء عينه!

أمّا السحر الأسود فلم يتعامل معه الصيعان على الإطلاق خوفاً من الله وجدّهم (امحمد أبو صاع). باستثناء البعض من لهم القدرة على إبطال مفعول السحر وجلب أسبابه بواسطة (الصُلاّح) كالحجب المردومة في القبور المهجورة وغيرها. وكذلك مصارعة الجان وإرغامه على الخروج من أجساد المرضى الممرورين! وعادة ما يكون ذلك بواسطة الحضرة كما ذُكر.

الفصل الرابع

الملامح الصوفية عند (مرابطية) الصيعان:

تمهيد:

الصيعان لا ينتمون إلى طريقة معينة من الطرق الصوفية الشعبية المعروفة. فهم (يندهون) ويستنجدون -إلى جانب جدّهم (سيدي امحمد أبو صاع)- بكل أولياء الله الصالحين بدون استثناء ولا تمييز، مثل (سيدي عبد السلام الأسمر) و(سيدي عبد القادر الجيلاني) و(سيدي امحمد بن عيسى) وغيرهم. ورغم أن (مرابطية) الصيعان ملتزمون بكل مراسم (الحضرة) كقرع الدفوف والقيام بحركات (الجذب) وأداء المدائح والأذكار المنغّمة وحرق البخور.. إلاّ أنهم لا يدّعون الخوارق مثل طعن البطون بالسكاكين ولعق المناجل الملتهبة وبلع قطع الزجاج الحادة، وغير ذلك مما يدّعيه البعض باسم أولياء الله الصالحين وهم منه براء. بل وقد يتجاوز البعض الآخر حدود تلك الخوارق إلى الادّعاء بأن الولي الصالح الذي ينتمون إليه لا يدخل الحضرة إلاّ وهو في حالة سُكر، فيبرّرون لأنفسهم شرب الخمر قبل وأثناء وبعد الحضرة. ونعتقد أن أساس ذاك السُكر إنما كان روحياً بسبب إخلاص الولي الصالح في حب الله، وليس مادياً بسبب شرب الخمر، ولا ندري كيف سمح أولائك الجهلة لأنفسهم بذكر اسم الجلالة بأفواه تفوح منها رائحة الخمر، والعياذ بالله.

ولكن (مرابطية) الصيعان لا ينسبون المعجزات والخوارق لجدّهم، إلاّ في حدود ما تسمح به كرامات أولياء الله المعهودة التي لا يرفضها العقل حتى وإن بولغ في وصفها. فيستغلّون ذلك لتحقيق أهداف نبيلة مثل مساعدة المرضى على

الشفاء وترشيد الناس وتوعيتهم وتذكيرهم بدينهم وغرس الفضائل في نفوسهم بشكل شعبي مبسط يقنع المتلقّي. فقد يكون ذلك على هيئة مواعظ وتعاليم مُسندة إلى (الشيخ) الجد الأول، مثل: (أن يرضى امحمد أبو صاع بفعل كذا ولا يرضى بفعل كذا)، أو على هيئة قصائد وأشعار دينية منغّمة وغير منغّمة، مثل: (تارك الصلاة لا تجاوروه ولا تاخذوشي بناته.. وإذا جي للجماعة لزّوه لا خير في حياته)..، أليست هذه موعظة تحث الناس على عدم ترك أهم أركان الإسلام؟ فكانت تلك المواعظ -منثورة أو منظومة- بمثابة الدروس في زمان ومكان غابت فيهما المدارس وحتى الكتاتيب.

ولا يختلف المرابط الصويعي عن بقية المرابطين والدراويش البدو الليبيين من حيث الهيئة، مثل (الشوشة) أو (القطّاية) وهي خصلة طويلة من الشعر متدلية من أعلى نقطة في الرأس، لا تظهر للعيان إلاّ في حالة (الجذب) والانغماس التام في الحضرة. أما شعر الوجه فلا يهتمون باللحية بينما يربّون الشوارب ويتأنقون في تحفيفها وتطويلها وبرم حواشيها.

وقد يستغلّ المتعلّم منهم بعض ما تعلّم من قراءة وكتابة في تحرير الأحجبة والرقى المحتوية على آيات قرآنية وأدعية مختلفة بحسب الحالة، كما يلتجئ غير المتعلّم إلى رسم بعض الطلاسم والأشكال كالدوائر والنجوم مثل نجمة سيدنا داود المسدّسة ونجمة سيدنا سليمان المثمنة[1]. فيرى الناس في ذلك شفاءً لعللهم النفسية والعضوية أيضاً. كما يبحثون في الطبيعة عن الأعشاب والتقاطها، ويقومون بسحقها أو غليها أو تقطيرها أو عصرها لتكون أدوية لمختلف الأمراض

---

[1] لم تكن النجمة السداسية في عهد الأولين تحمل أي رمز سياسي إلاّ بعد اتخاذ الصهاينة تلك النجمة شعارا لهم.

العضوية الشائعة. ومع الوقت يكتسبون خبرة طبية وصيدلانية تجعلهم قبلة المرضى والمصابين بما فيهم الممرورين[1].

ومهما كانت أسباب الشفاء التي قد نراها اليوم أنها كانت عن طريق الصدفة، أو بدافع اقتناع المريض ورضاه النفسي المهيأ لتلك الأسباب، أو أن بعض الأدوية كانت نافعة ومؤدية للشفاء حقيقة، إلاّ أننا لا يمكننا -مع كل ذلك- إنكار النية الحسنة المسبوقة لأعمال الأولين ما دام الهدف خيّراً والمقصود طيباً والاعتقاد في الله قوياً، وفي مثل هذه الحالات تسقط كل التعريفات الميتافيزيقية التي تعجز عن تفسير تلك الظواهر تفسيراً دقيقاً وواضحاً.

أولاً- المدائح والأذكار:

رغم البداوة التي فُرضت على كثير من القبائل الليبية، وعدم تمكنهم من بناء العمارة كالمساكن والمساجد والمدارس النظامية، إلاّ أن الثقافة الدينية لم تتأثر كثيراً بنوائب الدهر، باستثناء ما يتعلّق باستخدام اللغة العربية الفصحى التي بواسطتها يتفقه المسلم في دينه، فبقيت ثقافة البدو على كافة المستويات شعبيةً، لا تخلو من البساطة والعفوية، إذ كانوا يتداولونها فيما بينهم باللهجات العامية. وقبائل الصيعان ليسوا استثناءً من ذلك. فكان (المدّب) أو (الفقي) أو (الشيخ) أو (المرابط) يُعدّ الواحد منهم بمثابة المعلّم الذي يتلقى الناس على يديه الثقافة بشتى الطرق، في تجمع الرجال كاللقاءات في بيت شيخ القبيلة، والحفلات الدينية كالحضاري وحلقات الذكر، والمناسبات الاجتماعية كالمآتم وغيرها.. إلى

[1] **الممرورون**: المصابون بمس من الجنون.

جانب ما يقوم به البعض من تحفيظ القرآن الكريم للناشئة -أحياناً- ومبادئ القراءة والكتابة -أحيانا أخرى-.

والمتتبع لمحتوى بعض المدائح والأذكار التي تؤدى في تلك المناسبات يُدرك عمق معرفة أولائك (المرابطية) لأمور الدين وإلمامهم بقواعد العبادات، وبالتالي قدرتهم على توعية وترشيد الناس وتذكيرهم بأصول دينهم. ورغم أن كثيراً منهم يجهل القراءة والكتابة وبعضهم من أنصاف المتعلّمين، إلاّ أن القصائد التي تؤدى تُنبؤ بثقافة دينية واسعة تؤهل الواعظ والمرشد الشعبي لتقديمها لسامعيه على هيئة دروس مفيدة ومواعظ قيمة. وعلى سبيل المثال يبدأ أحدهم (مدحته) بـ(راس الملزومة) التالية:[1]

(النفس والشيطان منهم حاير.. ومحراثهم في الارض ديما غاير)

ثم يسترسل في (جُرّادة)[2] طويلة تشير إلى أن الحياة الدنيا فانية ما دامت تنتهي بالإنسان إلى القبر، فيقول:

صلّو عل شاهر الأديان.. بالنّور يوقّد (بقاف معقودة)
وارضو عالصُّحبة الأعيان.. يا أمّة محمّد
عالدنيا راهو لا شان.. ياللي متعمّد
راك تظهر منها عريان.. غضبان منكّد
كانش في ذُرع الكتّان.. فيهم تتلمّد[3]

---

[1] **مدحته**: قصيدته. **راس الملزومة**: المطلع. وهذه القصيدة يؤديها دائما (مرابطية الشرايطية) من صيعان أولاد سلاّم في الحضاري أو المناسبات الدينية والاجتماعية العامة.

[2] **جرّادة**: فقرة خفيفة الوزن تقع في وسط القصيدة أو في آخرها، تشبه البرول في الموشحات الأندلسية.

[3] **الصحبة**: الصحابة رضوان الله عليهم. **راك تظهر منها**: سوف تخرج منها. **كانش**: أداة استثناء بمعنى إلاّ إذا. **تتلمّد**: تتدثر وتنكمش.

ثـم يستشـهد بالصـالحين السـابقين ويـذكرهم بالاسـم، وهـذا دليـل على معرفته أيضـا بالشخصيات الإسـلامية ودورهـم في التاريخ الإسـلامي، ولكـن بنسـبة قليلة تظهر فيها الأفكار الشعبية غير المتخصصة، فيذكر على سبيل المثال:

شوف وين عمر وعثمان.. وينه محمّـد
وينه طلحة وسفيـان.. وأصحاب المنبر
وينه بلال الشوشـان.. في الله يكبّر
وينه سيدي سليمان.. في كتابة ينظر[1]

ثم يذكّر بعذاب القبر فيقول:

يا بنـادم بالك تطمـان.. عل فعلك تنـدم
في الأرض السفلى تدفان.. في قبر مهدّم
يأتيك سوال الملكين.. في لباس مسردن
الصيفـة زي الثعبـان.. شعره يتعقّد
يقولك من ربّك يا فلان.. فِ أناهو تعبد[2]

ومن هنا يشرع في سرد السيئات والذنوب التي ارتكبها المسلم العاصي في حياته ويُحذّر من عواقبها، فيقول:

كانك في الدنيا خوّان.. لازم تتمرمـد
تخنب في رزق الجيران.. جاهل في حياتك
عمره ما جابك الأذان.. تترك في صلاتك

---

[1] **شوف**: أنظر. **وينه**: أين هو.

[2] **مسردن**: متسخ وغير مرتب، أي على غير عادة الملابس.

تاكل في سيدك رمضان.. دعوى لزّاتك
تخنب في صروف الميزان.. كثرو سياتك
عليك ربي ديمة غضبان.. ما يحبّش ذاتك[1]

ثم يذكر فوز الصالحين بالجنة، ويرغّب الناس فيها بالقول:

كانك من صاحب الأمان.. ع الجنة فاتك
بين الفردوس ورضوان.. جو حورياتك
قالوله ملايك الرحمان.. زوز بصبّاطك[2]

ويختتم قصيدته بحثّ الناس على كبح جماح النفس ومنعها عن الزلل والخطايا، ويذكّرهم بأن الدنيا فانية ولم تدم حتى للنبي محمّد (صلى الله عليه وسلم) المقرّب لله والمبجّل عنده:

(واصبر لله.. واجبد لجام النفس قبل الزلّة..
ليّام ما دامتش لرسول الله.. الطاهر لمجد صاحب الزناير)[3].

ومن مدائح الصيعان لجدهم سيدي (امحمد أبو صاع) يقول أحدهم مخاطباً وحاثّاً النساء على زيارة جدهن:

(زوري للشايب يا للّة.. ومبعد كيفانه تتعلاّ)[4].
(ماسمح طلاّتة.. بوصاع الشايب لبناته..
جد لّي ندهاته.. جي فازِع متقوّي ظله..

---

[1] **تتمرمد**: تتعذب عذابا سيئا. **تخنب**: تسرق. **دعوى لزاتك**: مصيبة أصابتك وفرضت عليك ذاك الفعل المشين.

[2] **زوز**: تفضل بالدخول. **صباتك**: نعلك أو حذاؤك.

[3] **واجبد**: من الجذب والشد، أي إكبح جماح نفسك. **صاحب الزناير**: صاحب الزيارات.

[4] **الشايب**: الشيخ. **للّة**: سيدة. **كيفانه**: جباله (جمع (كاف).

تجدب ليا راته.. وعليه زغاريطك صُلّة)[1].

(زوريه بنية.. للشايب ولد الوحشية..

ما غلاه عليّ.. جي دونه فاهق ما قلّه..

بوصاع الشايب.. ليا عيّط يستاجه لله)[2].

ومن المدائح المشهورة التي يثبت فيها قائلُها أن (امحمد أبو صاع) كان يعيش متوحشا في البراري يقتات من لبن أبقارها، وأن بركته وجاهه عند الله كفيلان بإيذاء كل من يحتقره ويسخر من أبنائه، فيصاب ظالمهم برزية عدم إنجاب الذرية وانقطاع النسل والرحم، وهي من المصائب التي كانت تقض مضاجع الرجال وتنغص عليهم حياتهم. إذ تقول:

(ديّر يا بوصاع عليّ.. وعجّل بالطلّة والجيّة)[3].

(راضع بقراته.. وساكن وين الهوش مباته..

الناس ل حقراته.. يشتاقو كسب الذريّة)[4].

وهذا أحد الربايعة (وهم قبيلة تنتجع الأرض المشتركة على الحدود المصطنعة الليبية التونسية) ضاعت إبله ولم يجد من يدلّه عليها، فاستغاث بـ(امحمد أبو صاع) وبناته الصويعيات (ربما يقصد الهميليات)، فاستجاب له الله، وعادت له إبله لوحدها، حيث وجدها في مراحها كأنها لم تغادره، فقال:

(قوي هيبة بو صاع، هو وبناته..

---

[1] **ماسمح**: ما أجمل. **طلّة**: ظهور. **لّي**: الذي أو التي. **زغاريط صُلّة**: زغاريد عالية.

[2] **ولد الوحشية**: ولد بقر الوحش. **جي دونه**: حال بيني وبينه. **فاهق**: مسافة طويلة. **ليا عيّط**: إذا صاح. **يستاجه لله**: يتوجه إلى الله.

[3] **ديّر**: فعل أمر من الدائرة والإدارة، أي أحطني بالرعاية.

[4] **الهوش**: الحيوانات المتوحشة. **ل**: الذين أو التي. **يشتاقو**: يفقدون الشيء ويحرمون منه فيشتاقون إليه.

شد ركابه على الذود ردّه ل مباته
في الرّاس العالي.. لنهو جادور عل جهده مالي..
ظنيته بو صاع وافي خصلاته)[1].

ولا يغفل الشاعر الصويعي التفاخر بقومه وعشيرته ومدح رجالها. وهذا (علي العنّابي) شقيق الشاعر المشهور (عظيّم العنّابي) يقول في الصيعان دون تحيز لأية قبيلة منهم:

(فوت النخلات.. تلقاهم لَرْبَع لحمات.. ولاد امّي،
ما همش زفات.. ولا يديروشي المحالات.. نظيف كمّي،
ليا صار عياط.. يجو راكبين الجرّيات.. وغير ومّي)[2].

ومعنى ذلك أن الصيعان تجدهم مباشرة بعد نخلات (الجوش)، وهم أربع قبائل: (أولاد امحمد وأولاد سلاّم وأولاد شرّادة، والهمايلة)، ويصفهم جميعاً بالأخوة وأبناء الأم الواحدة. ويؤكد على أنهم لا يفعلون السيئة، وعرضهم نظيف مثل كم قميصه الأبيض الواسع الفضفاض النظيف. ويهبّون على خيولهم السريعة عند طلب النجدة والحماية. ويقال أن الصيعان – مثلهم مثل القبائل البدوية الأخرى – يهبّون هبّة رجل واحد إذا ما تعرّض أحدهم لخطر خارجي حتى وإن كانوا على خلاف شديد، فهم يتناسون أحقادهم الخاصة بسرعة، ولا يتأخرون لحظة واحدة عن نصرة بعضهم البعض. وهذه العصبية كانت وسيلة من وسائل

---

[1] **الذود**: الإبل. **الرّاس العالي**: ربوة، مكان مرتفع. **لنهو**: وإذا به. **عل جهده مالي**: قادم بقوة.

[2] **لاهمش**: ليسوا. **زفات**: الأصل أزفات، جمع زفت، أي سيء السمعة، وأصل الزفت القطران. **لا يديروشي**: لا يفعلون. **المحالات**: الفعل السيء المستحيل فعله. **عياط**: صياح الاستغاثة وطلب النجدة. **يجوا**: يأتون. **غير ومّي**: ما عليك إلاّ إطلاق الإشارة، أي أن تومئ بيدك.

الحفاظ على النوع، وهي ليست في العرب وحدهم، بل في كل الملل والطوائف والجماعات الإنسانية في العالم قديماً وحديثاً.

وقد يرد مدح الصيعان من خارج قبائلهم، فهذا (الطالب خليفة الحدّاد) من الحرابة، رغم مناظرته الشعرية المشهورة مع (عظيم العنّابي) إلاّ أنه يمدح الصيعان عموما بالقصيدة التالية:

(أني فاس الصيعان نقطع ونونّي.. واللي يذم الصيعان يا حليله منّي.
الصيعان شجرة تقيّة.. اتقّي على كل عاري
عمار فجوج الخلية.. واهل الحصنّة الجراري
واهل الولد ردع مية.. في سوق يوم البكاري
يخلّوه طايح رميّة.. ما بين بايع وشاري
يخلّوه ملوّح.. ويشتاق الودّاد ما عاد يروّح
سكّانين الفج شبحه مطوّح.. مِ الميشار ليا كاف شننّي)[1].

وهو يتوعد من يجرأ على ذم الصيعان. ويمثلهم بالشجرة الكبيرة التي يحتمي بها الناس ويلتجئون إليها عند الضيق. ويصفهم بالشجاعة والفروسية وركوب الصعاب. ويؤكد أن أراضيهم التي يتحركون فيها تمتد من بئر الغنم شرقاً إلى نهاية سهل الجفارة قرب خليج قابس غرباً.

[1] **يونّي**: يغير مجرى السيول عن البيت بالفأس. **يا حليله**: يا ويله. **شجرة تقيّة**: كبيرة يحتمي بها الناس. **فجوج الخلية**: الصحاري الخالية. **الحصنّة**: الخيل. **ردع مية**: الواحد بمائة رجل. **رميّة**: مرمي. **يخلّوه**: يتركونه. **ملوّح**: مرمي فلا يجد من يسعفه. **يشتاق**: يفقد. **الودّاد**: المحب الودود. **يروّح**: يعود إلى بيته. **شبحه**: رؤيته. **مطوّح**: بعيد جدا. **م الميشار**: قرب بئر الغنم غرب العزيزية. **ليا**: إلى. **شننّي**: قرب قابس بتونس.

ثانياً- (اللز والدعاء واستخدام سلاح (البركة):

الشعر عند البدو وسيلة اتصال يقوم الشاعر بواسطتها توصيل رسالة مبسّطة ولكن بدون تسطيح حتى يمكن تلقيها من قبل الجمهور بنفس الدرجة. و(اللز) نوع من الشعر الشعبي، يحتوى على (الدعاء بالشر) ضد الظالم والغريم والعدو. ويقال عند الغضب والشعور بالضيم والظلم. واللفظ في حد ذاته يشير إلى ذلك، فاللز في العامية يعني الضغط والإجبار والإكراه، أي أن الشاعر يكون مضغوطاً عليه ومجبراً ومُكرهاً لقول هذا النوع من الشعر، خصوصاً إذا لم يجد القدرة المادية والجسدية لمقارعة غريمة أو ظالمه أو عدوّه. والصيعان باعتبارهم (مرابطية) قد يلتجئ شعراؤهم إلى قول شعر اللز. وجرت العادة على أن هذا الشعر مؤثر في من يقال فيه، بحجة أن دعاء المظلوم يصل إلى السماء بدون حواجز.

وقد أكد (امحمد أبو صاع) نفسُه على أن الدعاء لا يستجاب بغير الالتجاء لله سبحانه وتعالى. حيث يقول:

(ما لزّنا زول وربحْ.. بالله وأهل العبادة..
ويغدي كما دحية المحْ.. ليا صادفتها الرشادة)[1].

أي لا يفلح من يظلمنا ما دمنا على حق، وما دمنا محتمين بالله وعباده المخلصين، وسيستجيب الله لدعائنا ويهلك المتعدي علينا. ولكن (امحمد أبو صاع) اشترط على أولاده الاستقامة كالصدق في القول والإخلاص في العمل، قبل التفكير في ندهه وطلب جاهه عند الله. فيقول:

---

[1] **لزّنا**: ظلمنا وتعدّ علينا. **زول**: رجل. **يغدي**: يغدو، أي يصبح أو يصير. **دحية**: بيضة. **ليا**: إذا. **رشادة**: حجرة.

(أني ندهة المطرّف.. ليا كان ولدي لا خنب لا حرّف)[1].

أي أنه يستجيب لدعاء أبنائه مهما ابتعدوا ونأوا عنه في الأطراف، بشرط أن يكونوا ملتزمين بالقيم النبيلة والأخلاق الحميدة، غير منحرفين. فيكونون من المرابطين المباركين. وقد قسّم الصيعان قبائلهم بحسب الخصال التي تميزت بها كل قبيلة على حدة، ولكنهم يشتركون جميعاً في الخصال العامة والخصوصية التي ميزتهم عن بقية القبائل الليبية الأخرى المجاورة لهم. ومن بين العائلات التي اشتهرت بالبركة داخل قبائل الصيعان وخارجها في زمن كان الناس لا يكذبون فيه ولا يسرقون:

6- الهميليات:

(الشي لله يا روّيات بالعميتة)، وهن نساء وعجائز قبيلة الهمايلة المباركات. وقصة التروية[2] بالعميتة[3]، أنهن يشددن الرّحال على الإبل بخيط العميتة، والعميتة خصلات من الشعر والصوف (المقردش)[4] على هيئة (أقلام من الطُعمة)، تُلوى على العصا وتُخرت مشكّلة خيطاً يُشد به (الغراير) على الناقة، وهو خيط واهن مقارنة بما يستعمله غير الهميليات. ويقلن أثناء عملية الشد: (بو هميلة يشد رحيله)، فتتماسك الأشياء فوق الناقة أو الجمل رغم وهن الخيط!

---

[1] **المطرّف**: البعيد. **خنب**: سرق. **حرّف**: كذب وحرّف الكلام.

[2] **التروية**: جاء في لسان العرب: روى الحبل ريًا فارتوى أي فتله. والرّواء بالكسر والمد حبل يُشدّ به الحِمل والمتاع على البعير.

[3] **العميتة**: جاء في لسان العرب: عمت الصوف والوبر يعمته عمتا، أي لفّ بعضه على بعض مستطيلا ومستديرا. والعميتة: ما يُغزل منها.

[4] **القرداش**: أداة من فكّين مسطحين من الخشب تبرز منهما أسنان حديدية، تطحن الوبر والشعر والصوف، ويستخرج منها أقلام مستطيلة تُسمى (الطعمة) تكون مادة أوّلية لصناعة الخيط بواسطة المغزل.

ومثلما يقال عن الهميليات أنهن (روّيات بالعميتة) يقال أيضا أنهن (نقّابات الأبّير) أي (حفّارات البئر). ولذلك قصة، حيث كان مرحول (قافلة) من الصيعان قد وصل إلى مكان خال من الماء (يقع حاليا على الحدود بين ليبيا وتونس)، ونال منهم العطش، إلى درجة الشعور بالموت والهلاك، فاستنجدوا بالعجائز الهميليات اللواتي كن من ضمن المرحول، فتعالى صياحهن وندهن جدّهن ورمين لفافات رؤوسهن على صخرة اشتم منها رائحة الرطوبة والندى، وكشفن عن شعورهن المحمرّة بصبغة الحنّاء، فانبجس الماء من تلك الصخرة! فأنقِذن أفرادَ القافلة من موت محقق. والهميلية إذا دعت أو أعطت (الفاتحة) تقوم بالكشف عن رأسها وتنتيف (قُصَّتها)[1] وترتعش فرائس جسمها قبل أن تنطق بالدعاء، فيكون مستجاباً بجاه جدها (امحمد أبو صاع). وكانت الهميلية – ولا زالت – محترمة ومهابة الجانب من قبل الجميع، فلا تُردّ لها وساطة مهما احتدم الصراع بين المختصمين.

1- أولاد التواتي:

(الشي لله يا ضيّاف القيز)[2]، من قبيلة (أولاد شرّادة). ويحكى أن (التواتي) كان يُنجب البنات، وأن أخاه (خليفة) كان يُنجب الأولاد. فسخر الناس من (التواتي) أبي البنات. فقدم عمّهما (عبد المؤمن)[3] (الشي لله يا كسّار الحديد)، فرمى (البرنوس)[4] على (خليفة) وأعطى (البركة) لـ(التواتي). فورث أبناء (خليفة) الهمّة المتمثلة في حسن اختيار الألبسة وضخامة بيوت الشعر وركوب الخيل

---

[1] **القُصّة**: خصلة الشعر المقصوصة والمسدلة على الجبين فوق الحاجبين.

[2] **القيز**: نبات برّي يؤكل نيا ومطبوخا.

[3] وهو سيدي عبد المؤمن (من قبيلة أولاد امحمد) دفين الفاهدية قرب بدر.

[4] **البرنوس**: وهو البرنس، رداء صوفي رجالي ملحق به قلنسوة، لا يُعرف غالبا في غير المغرب العربي.

والكرم، حتى وإن كانت ظروفهم المعيشية سيئة، واشتهر من بينهم (أبو بكر بن عزيّز) صاحب (قصعة الساروط)[1]، وهو مجرى المرق والإدام يُسكب من بيت النساء ويصب في القصعة مباشرة ببيت الضيافة، وذلك بواسطة جرس يُقرع إذا نقص المرق من قصعة البازين[2]. أما أبناء (التواتي) فورثوا البركة واستجابة الدعاء، فكانوا مقدّرين ومبجّلين من قبل الجميع، فلا يدخلون نزاعاً إلاّ وانتهى بالمصالحة، ولا يطلقون دعاءً –خيراً كان أو شراً– إلاّ وكان مستجاباً من عند الله وببركة (امحمد أبو صاع)، فإذا أومأ (التواتي) بكبّوسه (طاقيته) يكون ذلك بمثابة طلقة بارود تصيب الظالم والمستهزئ!

ومن أمثلة شعر اللز:

6)– يقول أحد الصيعان المغتربين:

(ليا كان ذهبتوا رانا صيعان.. واحني اللي دعانا يخلي لَوْطان)[3].

(يا جد يا لوّلّْ.. غريم الفقيرة يشوْقه في البلّْ[4]،

ويرسل عليه الذلّْ.. وتريح ذره في الجبل طُشان[5]،

(جدّي نبغيه.. غريم الفقيرة يسلب حُوليه[6]،

[1] **الساروط:** في الأثر الشعبي يعني مجرى الماء، أما في العربية: سَرِط الشيء: ازدرده. والسراط: الطريق الواضحة.

[2] **البازين:** أكلة شعبية ليبية تُعد من دقيق الشعير المطبوخ.

[3] **ليا كان:** إذاكان. **ذهبتوا:** ضللتم الطريق أو نسيتم الماضي. **رانا:** ترانا. **احني:** نحن. **اللي:** الذين. **دعانا:** دعاؤنا. **يخلي:** يجعل المنازل خالية. **لوطان:** الأوطان والديار.

[4] لوّلّ: الأول. **الفقيرة:** المرابطة، ابنة الشيخ، الصويعية. **يشوقه في البل:** يفقد إبله فيشتاق إليها.

[5] **تريح:** تصبح. **ذره:** أولاده، ذريته. **طشان:** متفرقون كالشظايا.

[6] **نبغيه:** أحبه، أريده. **حولي:** جرد، رداء.

.... من وسط بيته يظهر عريان[1]،
(جديدي يا جدْ.. وليدك بروحي ما عندي حدْ[2]،
يجعلني مناجل فيهم نحصدْ.. في يوم جمعة وقايم الآذان[3]،
وأنت المسمّى جد الصيعان، راقد سبيبة.

الشرح: يبدو أن قائل هذه الأبيات كان يعيش بين أناس غُرب عنه، فظلموه، فقال لهم في (راس الملزومة): إذا ضللتم الطريق أو نسيتم من نحن ومن نكون، فأذكّركم بأننا صيعان، وأن دعاءنا مستجاب عند الله بجاه جدنا (امحمد أبو صاع)، وقد يدمّر دعاؤنا بيوتكم وأوطانكم. ثم ينده جدّه (الأول) ويطلب منه أن يسلط غضبه على غريم زوجته أو ابنته أو أخته (المرابطة) ويفقده إبله، ويرسل عليه الهم والذل، ويفرق شمل أبنائه. وفي البيت الثاني يذكّر جدّه بأنه يحبّه، ويرجوه أن يسلب رداء غريمه فيخرج من بيته عارياً مكشوفاً أمام الناس. أما في البيت الثالث فلم يجد من يحميه من ظالميه غير اللجوء إلى جده، ويتمنى على الله أن يجعله كالمناجل التي تحصد أعداءه، ويرجو أن يكون ذلك أثناء رفع الآذان لصلاة الجمعة زيادة في التأثير. والمعروف أن دعاء الصويعي يُستجاب خلال ثلاثة أيام، فإذا تجاوز تنفيذها تلك المُهلة فتسقط صلاحيتها، ربما بسبب فقدانها المصداقية، أو أنها ليست في محلّها، أو أي خطأ آخر وقع فيه الدّاعي.

---

[1] يظهر: يخرج.

[2] بروحي: لوحدي.

[3] يجعلني: الضمير المستتر هنا يعود إلى اسم الجلالة، بمعنى: أدعوك أن تجعلني.

1)- ويقـول (عثمـان بـن بلقاسـم)، وهـو مـن لحمـة الأبقـار، قبيلـة أولاد سلاّم، على غرار القصيدة الأولى، وعلى منوالها، بل ويقتبس منها بعض الأبيات مع تغيير في القافية، ربما يكون ناقلاً لا قائلاً:

(يا جد يا اهل الولد فزّاع.. يا امحمد يا بوصاع).

(يا جد يا لولّ.. اللي حقرنا يشوقه في البل..

ويرمي عليه الذل.. دون الولادة بيوع ما ينباع).

(ارميه بين الخيل.. الريح قبلي والحصان ثقيل..

راني عليك عقيل.. وقُصّه قصّة موس في الدلاّع)[1].

والمعنى: أنه ينده جدّه الأوّل ويطلب منه النجدة لتحل لعنته على من احتقر أولاده وظلمهم. ويبدو أن الظلم الذي وقع عليهم مفاده أن بعض القبائل المجاورة كانت تغير على إبلهم، لذا كان الدعاء موجّها إلى الله ليحرمهم من إبلهم، ويشتت شملهم وقت الإغارة، فتدوسهم خيولهم المغيرة، ويقطع دابرهم مثلما تقطع السكين ثمرة البطيخ (الدلاّع).

5)- وهـذا أحـد (الكرادنيـة مـن أولاد سـلاّم) يقـول عنـدما أخـذ منـه أحـدُ الإداريين المحليين الضرائب غصباً عنه، ولم يراع حالته الاقتصادية الصعبة:

(يا بو صاع تكون لبيب.. دقّه وما يلقاش طبيب)،

(بعت كرايا.. ودرت القسم على مولايا

يجعلته زي القصباية.. ما تضرب غير بالتنقيب

ويجعلته زي الورّايا.. من غصرة لوقات اطّيب).

---

[1] فزّاع: سريع الاستجابة إذا طُلبت منه المساعدة. يشوّقه: يفقده الشيء فيشتاق إليه. الدلاّع: ثمرة البطيخ عند المشارقة.

المعني: يوجه كلامه أولاً إلى جدّه (امحمد أبو صاع) ويطلب أن يكون لبيباً متفهماً لإشارته ومستجيباً لدعوته. ولفظ (دقّه) فعل أمر مشهور عند الدعاء، بمعنى (أطعنه) فلا يجد طبيباً معالجاً. ثم يشرح حاله بعد فقدان رزقه، فسلّم أمره لربّه (مولاه)، ويطلب منه أن يجعل خصمه كالناي (زي القصباية) الذي لا يُعزف به دون ثقوب، ويجعله كالثمرة التي تنضج وتسقط غصباً عنها (مغصورة) بفعل شدة الحر والهجير وليس بفعل الإنسان عند جني الثمار.

4)- كما يقول عثمان بن بلقاسم بن زعيمة أيضاً عندما سرقوا له خرافه:

(يا جدّي نبتك ناسيني.. لّي ما جابكش عياط
لا تفزع لا تقول ضنيني.. يمشوا شياهي مخنوقات)..
هكّه شياهي يمشوا منّي.. وانت يا شايب متهنّي
مّالا لواش بيك نونّي.. بيّن شَبرك في لزقاط)[1]..

إلى أن يقول:

(منين قايس وتوتاله.. من جعبة زينة قتّالة
جاته على تكّة سرواله.. تحت ضلوعه الطرفيات)[2]..إلخ

وقيل أن السارق توفي بعد سماعه تلك القصيدة بمدة قصيرة!

[1] **نبتك**: يبدو أنك. **ما جابكشي عياط**: ما جاء، أي لم تحضر عند سماع النداء. **تفزع**: تهب. **ضنيني**: ولدي. **هكّه**: هكذا. **متهنّي**: مستقر هانئ البال. **امّاله**: إذن. **لواش**: لماذا. **بيك نونّي**: بك أستعين، والتونية أصلها تغيير سيل الأمطار عن بيت الشعر وما في حكمها. **شَبرك**: برهانك وقوّتك. **لزقاط**: الأزقاط، جمع زقطي أي الشخص السيء.

[2] **منين**: عندما. **قايس**: نشّن ودقّق في الهدف. **توتاله**: استعد له وجعله مواتيا. **جاته**: أصابته. **التكة**: رباط السروال.

3)–ومن برّاش النساء في عاشوراء:

(برّشت بين الدواوير.. ونبغي ملام الصبايا[1]،

ندعي على من فرقنا.. بحربة ودقة زغايا)[2].

وقد تعارف الناس على أن شعر اللز المحتوي على الدعاء بالشر الموجّه ضد كل من يظلم مرابطاً سيكون نافذاً ومستجاباً عند الله. وكثير ممن تعرضوا لمثل هذا الدعاء رأوا العذاب الذي ذُكر في القصيدة التي قيلت فيهم. فلا يتماثلون إلى الشفاء إلاّ إذا رضي عنهم من قال فيهم تلك القصيدة، وعادة ما يكون ذلك عن طريق (جبهية) وهي مجموعة من أعيان قبيلة أو عائلة المصاب، تذهب إلى المرابط وتطلب منه الصفح عن ابنهم أو قريبهم، أو يأتي الشخص بنفسه متضرعاً وطالباً الصفح والسماح.

وإذا اقتنع المرابط المظلوم بأعذار الظالم أو أهله، يعقد معه الصلح، وعادة ما يكون ذلك عن طريق قصيدة شعرية أخرى تناقض كل ما قاله في الأولى، فيتضرع إلى الله بواسطة (سيدي امحمد أبو صاع) أن يرفع عنه معاناته ويخفف عنه أوزاره، فيتماثل للشفاء.

ولكن ما حقيقة الاستجابة للدعاء بالشر تارة وبالخير تارة أخرى؟

إذا ابتعدنا قليلاً عن دائرة النية الصادقة والثقة في الله وأوليائه الصالحين، سنرى أن الدعاء بالشر شيء ذميم لا يرتضيه الله ولا عباده الصالحون، وقد لا

[1] **برّشت:** غنّيت البرّاش وهو نوع من الغناء. **الدواوير:** جمع دوّار وهو النجع. **نبغي:** أريد.

[2] **ندعي:** أدعو بالشر. **فرقنا:** فرّق شملنا. **حربة:** رصاصة. **دقّة زغايا:** دعاء امرأة مباركة مشهورة تُدعى زغاية.

يكون مستجاباً بالسهولة التي ذكرناها آنفاً. ولكن الواقع يثبت نفاذ الدعاء بالشر في فاعل الشر، ويكون الوسيط قصيدة شعرية تُلقى في (حضرة) أو في ميعاد للرجال، أو في حفلة عرس. وهذا يعني أن تلك القصائد أو الأغاني تُلقى على مسامع جمع غفير من الحاضرين، فتُحفظ من قبل الجميع. وهذا ما يجعل لتلك القصائد كبيرَ الأثر على نفسية المعني بها الذي حتماً سيكون حاضراً ساعة الإلقاء، فيفعل فيه الندم وتأنيب الضمير فعلته، وينتابه الخوف من الله ومن المرابطية أيضاً، وتسيطر عليه الهواجس وتساوره الوساوس، إلى درجة الشعور بالألم والوقوع في قبضة المرض، ربما بنفس الأعراض التي ذُكرت في القصيدة، حيث تؤثر تلك العوامل النفسية على الأعضاء الجسمية. أمّا إذا حصل الصلح مع المرابط أو الشاعر، فتطمئن نفس المعني بالأمر ويشعر براحة الضمير، معتقداً أن الله وأولياءه راضون عنه، ويتخلص شيئاً فشيئاً من المعاناة النفسية والصراع مع الضمير، فتتماثل أعضاءُ جسمه للشفاء.

ثالثاً- الخرشاء، دفينة الرحيبات:

وهي (الخرشاء) أو (الخرشي)[1] بنت علي، من بيت (أولاد فرج)، لحمة (السوحة)، قبيلة (أولاد امحمد). أمها من قصر الصّرارّة بورفلّة، ويتصف الصّرارّة أيضاً بالبركة. يُحكى أنها كانت على قدر من الجمال، تزوجت من ابن عمها (ارحومة بن علي الحطّاب)، من بيت (المعاوية)، من لحمة (السوحة) أيضاً. وأنجبت منه ابنها الأول (الحرابي). وعندما كبر التحق بالغنم. وفي ذات يوم انفردت به (جنّية) أي أنثى الجن! وبدأت تدغدغه حتى أشرف على الموت،

[1] الخرشاء: مشتق من الخرش= أعراف من السدر اليابس.

ووعدته بالرجوع إليه ليلاً. فروى قصته لأمه (الخرشاء). فخافت الأم على نفسها ولم تخف على ابنها الوحيد، ورفضت مبيته بجنبها وأمرته بالمبيت في الزريبة (مع الشياه). فربط ذراعه بساق أحد الكباش، وما أن حاول النوم حتى دخلت عليه (الجنية) وراحت تدغدغه حتى مات. وفي الصباح وجدته أمه ميتا يجره الخروف خارج الزريبة. فندمت على ما فعلت، وبدأت تخرج عن طورها، ويقال أنها (استُولت) أي استولى عليها الجان. إذ كانت تخرج كل صباح بإناء العصيدة والسمن وتتيه في (الجفاير) مناديةً ابنها (الحرابي) لتناول فطوره. وكل من يلاقيها من الصيعان يخبرها بأن ابنها مات ولن يعود، إلاّ أنها كانت ترفض ذلك. وفي يوم من الأيام صعدت إلى الجبل وقصدت الولية الصالحة (الهوّارية) المشهورة بـ(أم القرب)[1]، ويقع ضريحها قريباً من الرحيبات، وسط جرف على شكل هلال صعب الوصول إليه، به بِركة ماء عميقة جداً. وروى لي والدي أنهم كانوا يربطون القرب المنفوخة على بطونهم ويقفزون من أعلى الجرف إلى البركة، ربما كان ذلك سبباً في تسميتها بـ(أم القرب)، وكانت تلك العملية محفوفة بالمخاطر لولا بَركة صاحبته. ففي ذاك المكان القصي والخطير وجدوا (الخرشاء)، تقرع الدف وتذكر بَركة (أم القرب)، وتطلب من الله الصفح والغفران عما اقترفته في حق ابنها (الحرابي). ويقول فيها (القجدار) وهو من (الرحيبات) مخاطباً (أم القرب):

(بنتك هني وانتِ بعيدة غادي.. يا ام القرب يا ساكنة في الوادي)[2].

---

[1] تقول الأسطورة أن (أم القرب) غضبت من ابنها، قائلة: (ولدي جاب خفية، غيضني ومشيت)، فعزلت نفسها في ذاك المكان الوعر، ومن مغزلها انبجست تلك العين مكونة بحيرة عميقة، فبقيت هناك إلى أن توفت، فبنوا لها ضريحا، وصارت مقصد الزوار والمتبركين ببركتها. ويبدو أنها تنتمي إلى إحدى قبائل هوّارة.

[2] **بنتك**: إبنتك، ويقصد الخرشاء. **هني**: هنا، ويقصد بلدته الرحيبات. **غادي**: هناك، أي في ذاك الجرف البعيد عن موطنها الأصلي في الرحيبات.

منذ تلك اللحظة صارت (الخرشاء) مملوكةً ومستولى عليها من قبل الجان، ومحكومةً ببَركة (أم القرب)، حيث كانت تزورها بين الحين والحين. وقد أنجبت بعد (الحرابي الأول المتوفّى) أبناءً وبنات: (الحرابي الثاني، ولطيف، وأبو صاع، والكونية، والرقيقة، وعيشة، ويزّه)[1]. واشتهرت في منطقة الجبل الغربي، لا سيما بلدة الحرابة، وظهرت لها كرامات عديدة هناك. إذ كانت تقيم (الحضرة) أمام جموع غفيرة من الرجال والنساء. ومن بين الكرامات التي سُجلت لها، أنها كانت في (حضرة) في الرجبان، وكان من بين الحاضرين رجل فقير معدم يدعى (وحيدة) يرعى البقر لصالح أحد وجهاء البلدة، فكانت (الخرشاء) تضع يدها على رأسه وتقول له (دردر يا وحيدة دردر)، وكرّرت ذلك عدة مرّات، وكان يردّ عليها في كل مرة (شن ندردر غير روث البقر؟). وتقول هذه الأسطورة أنه اغتنى وصار من أكبر أغنياء الرجبان، فأرجع الناس ذلك إلى كلمة (الخرشاء) التي قالتها له في تلك (الحضرة)، ولا زال أحفاده ينعمون بالثراء إلى الآن، ويقال أنهم يخرجون الزكاة باسم الشيخة الخرشاء. أما الرحيبات فقد (استعقد فيها) أهلها. حيث بنت في حي من أحيائها يسكنه (أولاد عطية) مقرها وحفرت فيه قبرها، وطلبت من الأهالي هناك أن يدفنوها فيه بعد موتها، وإن لم يفعلوا صارت لهم (غولة) تجلّيهم عن قريتهم، ففعلوا. وعرفوا عنها عدة تنبؤات تحققت بعد موتها، مثل ما قالته عن حي من أحياء الرحيبات المهجورة يدعى (الخربة) حيث كانت تردد عبارة (نوّري يا خربة نوّري) وهي الآن عامرة بمساكنها وشوارعها وأنوارها كما تنبأت لها

---

[1] ابنها (الطيف الحطاب) واحد من أبرز المجاهدين بالمنطقة أثناء الغزو الإيطالي لليبيا، حكم عليه بالإعدام، ففر إلى بنقردان مع أهله، وكانت معه ابنته (مبروكة الخرشاء) التي روت لي قصة جدتها (الخرشاء) عدة مرات، وأعادت رواتها لي يوم (2116/12/11)، بالمناسبة، هي زوجة أحد أعمامي وجدّة أولادي.

(الخرشاء). وغير ذلك من الكرامات التي احترم -من خلالها- أهل الرحيبات وبقية مدن الجبل روح الولية الصالحة (الخرشاء). فكانوا يزورون ضريحها ويذبحون عنده الخراف تبركاً بالقرب منها.

وعندما فرّ ابنها لطيف الحطّاب من بطش الإيطاليين إلى بلدة (بنقردان) بأرض (التوازين) من برّ (ورغمّة) كانت أمه (الخرشاء) معه، فاستحسنها أفراد قبيلة (النباهنة) في منطقة (الثعلبية) وأحاطوها بالرعاية والاحترام، فسكنت بجوارهم في غار محفور تحت الأرض، وبقيت بينهم سنوات عديدة، وكانت تتجول في (ورغمّة) وتقيم حلقات الأذكار (الحضرة) حتى اشتهرت هناك أيضاً. وفي المدة الأخيرة ذكر (النباهنة) الحاليين لحفيدتها (مبروكة الخرشاء) أنهم -في الليل- يسمعون الذكر وقرع الدفوف والأصوات تنطلق من الغار المهجور الذي سكنته (الخرشاء الجدة) قديماً، وعندما يُقبلون عليه لا يجدون شيئاً، فبنوا عليه مسجداً. وكانوا يتبركون بها دائماً ويطلقون اسمها على بناتهم. كذلك حصل في منطقة الجبل الغربي أيضاً، فكثير من بناتهم يحملن إسم (الخرشاء).

وفي إحدى القصائد التي كان يرددها ابنها (الحرابي الثاني) عند زيارتها إلى (أم القرب)، يقول:

(هيا نزورو الهوارية.. يا كونية.. علحجل ولد أم حوية)[1].
(هيا نزورو عقب الليل.. عل ضو سهيل..
والشيخة تبغي التوصيل.. ما لاقي حيل..
جي دونه ميل ورا ميل.. دار زناكيل..

---

[1] **الكونية:** إحدى بنات الخرشي. **لحجل:** صفة للجمل. **أم حوية:** الناقة، والحوية في العربية فراش خاص يوضع على ظهور الإبل.

ما تقصّه كونشي المهرية)[1].
(هيا نزورو علصباح.. بكباش ملاح..
وجملك قدّامي ينجاح.. يمرد فلاّح..
ذاهب دلّوه الصلاّح.. لديارك ماح..
جي مقطّع من غير ثنية)[2].
(ديرو للّة بتزور.. من كل برور..
وجملها هايج مهجور.. هاتو الباصور..
وقصاعك للضيف تدور.. وقدور تفور..
ولطّك ما تقدّه صويعية)[3].

خلاصة الباب الثالث:

تناول هذا الباب - بشيء من التحفظ - بعض الجوانب الروحانية المؤثرة في النفس البشرية، وطريقة تعامل البدو خاصة الصيعان معها، على اعتبار أنهم منتمون إلى جدهم الولي الصالح صاحب البركات والكرامات المنسوبة إليه والمعترف بها من قبل الجميع. فكان فصله الأول مخصصاً للعقائد والمعتقدات خصوصاً في مسألة طلب الغيث والاستسقاء، والعادات والممارسات المعهودة في هذه المناسبة عند معظم البدو الليبيين، مثل لعبة (كرة المغرف) التي يقوم بها النساء، وهو نشاط يمارسه - في العادة - الذكور الأقوياء دون الإناث. ففي يوم

---

[1] **سهيل**: نجم ساطع يظهر آخر الليل. **تبغي**: تريد، تبتغي. **ما لاقي حيل**: لا يجد جهدا. **زناكيل**: أثقال. **تقصه**: تقطعه. **كونشي**: إلاّ. **المهرية**: الناقة المهرية.

[2] **ذاهب**: ضال الطريق. **جي**: أتى، جاء. **مقطّع**: صاعدا الجبل بدون طريق واضحة. **ثنية**: طريق غير معبّدة.

[3] **ديرو**: جهّزوا. **اللّة**: السيّدة. **الباصور**: الهودج. **لطّك**: فعلك الخارق. **ما تقدّة**: لا تقدر عليه.

طلب الغيث يكون كل شيء معكوساً، أملاً في تبدل أحوال الطبيعة من قحط وجفاف إلى رطوبة وأمطار. فيؤدى الصغار أيضاً دورهم في ذلك، حيث يعرض الصبايا على البيوت الدمية الخشبية المعروفة بـ(أمك طنبو)، ويمارس الصبية الصغار دوران أغنية (يا مطر يا خالتي صبّي على قطايتي)، ويفرحون إذا أشرقت الشمس وانقشع السحاب، وذلك رغبة منهم في اللعب بعد مدة هطول الأمطار التي يحسبونها طويلة حتى وإن كانت يوماً واحداً أو نصف يوم.

وعرّج الفصل الثاني إلى ظاهرتي التفاؤل والتشاؤم، ونظرة البدو إليهما، مثل تشاؤم الرجل من العودة إلى البيت إثر الخروج منه مباشرة لأي سبب من الأسباب. وكذلك تجنب ذكر الألفاظ المنذرة بالشؤم مثل الملح والنار وبعض الأعداد والطيور والحيوانات وأصواتها، وبعض الظواهر الطبيعية. كما استعرض الأحلام وأنواعها وكيفية تفسيرها. و(التقازة) أو قراءة الطالع وطرق ممارستها والألفاظ التي تستجيب لها خيراً –كان ذلك– أو شراً.

أما الفصل الثالث فتحدّث عن الطب الشعبي، مستعرضاً بعض الأمراض العضوية والنفسية، وطرق الشفاء منها، ووصف حالة المريض. وركّز بالخصوص على العلاجات الروحانية كـ(الحضرة) عند مرابطية الصيعان، وتحليل مضامينها وسبر مكامنها وأسباب الشفاء بواسطتها.

وأخيرا ذكر الفصل الرابع بعض الملامح الصوفية عند مرابطية الصيعان، واعتمادهم فقط على نده جدهم وإنشاد المدائح والأذكار دون اللجوء إلى الشعوذة التي ينتهجها البعض الآخر. وكذلك استخدام سلاح البركة عند وقوع الظلم على أحدهم. وقد اشتهر مرابطية الصيعان بشعر (اللز) وهو دعاء بالشر

على كل من تسوّل له نفسه التعدي على حقوق المرابط. ويسود الاعتقاد أن السماء كانت تستجيب لذاك الدعاء إذا كان صادقاً. وأخيراً ورد ذكر بعض النساء المباركات، مثل (الهميليات) و(الفقيرة الخرشاء)، والله أعلم.

الباب الرابع

تحليل المصادر التي ذكرت بدو الصيعان

ساكن في الجوف..

بين سبيبة والعيطوف..

قبره محدوف..

يا ريته في الجوش رقادة..

(خليفة شريوط)

الفصل الأول

تحليل المصادر الشفوية

تمهيد:

الوثيقة التاريخية التي نعتمد عليها اليوم – باعتبارها وثيقةً مكتوبةً – تعطينا كثيراً من المصداقية مقارنةً بما نسمعه من روايات شفويةٍ منقولةٍ من السلف إلى الخلف، ولكن مادة تلك الوثيقة المكتوبة لا بد أنها كانت –في زمن من الأزمان– روايةً شفويةً قد لا تخلو من الأسطورة والخرافة المتداولة بين الناس، وعندما دُوّنت وكُتبت على صفحات ووصلت إلينا في شكل كتب أو مخطوطات، بدت لنا كما لو كانت مصادر تحمل معلومات نادرةً عن زمن غابر لم نشهده، فنعتمدها بشيء من التحفظ، ولكننا نعكف على دراستها وتمحيصها وتدقيقها وتحليلها، حتى نصل –من خلالها– إلى بعض النتائج التي ترضي –على الأقل– جزءاً من طموحنا في معرفة الحقيقة حتى وإن خلت من المنهجية التاريخية. ولا بد من التنويه –هنا– إلى أن الوثيقة الشفوية أو الرواية الشعبية المتواترة تُعدّ أصدق من الحُجّة المكتوبة أحياناً، لأن تواترها جيلاً بعد جيل يجعلها بمثابة شهادة صادقة من قِبَل جميع من حافظ عليها ونقلها إلى غيره فيزداد عدد الشهود عليها، بينما لا تمثل الحُجّة المكتوبة غير شهادة من كتبها ووقّع عليها وهم عادة ما يكون عددُهم قليلاً.

والوثائق الشفوية التي ذكرت الصيعان كثيرةٌ ومتنوّعةٌ، ولكنها قد يخلو معظمُها من المنهجية العلمية المعتمدة في الدراسات التاريخية. وفي جميع الأحوال لا بد من الخوض فيها وتحليل محتوياتها، خصوصاً وأنها من النوع الأسطوري الذي كان متداولاً بين عامة الناس. كما أن بعض الوثائق المكتوبة قديماً

كانت شفويةً أيضاً قبل أن تخط على الورق، وأن بعض الوثائق الرسمية للإدارة العثمانية، نُشرت في بعض الكتب. أضف إلى ذلك القصص والأشعار الشعبية التي تحمل بين تعابيرها وقوافيها شيئاً من التاريخ أو القَصَص التاريخي.

وقد تناولنا بعض هذه الوثائق، خصوصاً الشفوية منها نثراً وشعراً، في فصول الأبواب السابقة، ولم نتعرّض لها بكامل الدراسة والتحليل، حفاظاً على تقليدية السرد باعتبارها منقولة مباشرة من التراث الشعبي الذي رأينا أنه سيفقد نكهته إذا تعرّض لمثل تلك التحليلات والتأويلات، فخصّصنا لها ولغيرها هذا الباب لإبداء الرأي فيها وطرحها على بساط البحث والنقاش. ولا ندّعي أننا اطلعنا على كل الوثائق التي استهدفت الصيعان بالذكر، كما لا ندّعي أننا بلغنا غايتنا في بحث وشرح أفكار دُفنت مع أصحابها. ولكننا حاولنا إحياء ما ظل كامناً تحت ركام القرون الماضية، لعلّنا نرى من خلاله قبساً من تاريخ هذه الجماعة البدوية التي ساهمت مع غيرها في تعمير سهل الجفارة ورسم معالمه الإنسانية والثقافية والجغرافية والتاريخية.

ملاحظة: لماذا يسمي الصيعان جدّهم (إمْحِمّد) وليس (مُحَمَّد)؟

قبل الخوض في ذلك، نعود قليلاً إلى ظاهرتي التسكين والتحريك أو (التصميت والتصويت) في اللغات القديمة. فمعظم اللغات أو اللهجات الشرقية (العروبية) القديمة كانت ساكنة لا حركة فيها إلاّ نادراً، أي أنها كانت لغات منغلقة بعض الشيء، والدليل على ذلك ما نلاحظه على اللغات (اللهجات) العروبية الأولى التي بقيت آثارها واضحة

على اللهجات الأمازيغية الحالية، والتي بدورها أثّرت على لهجات عرب ما بعد الفتح الإسلامي للمغرب العربي. إذ أن سكان الشمال الأفريقي حالياً ينفردون بالابتداء بساكن عكس إخوانهم المشارقة، مثل: في الأسماء: (غْنب، شْعر، مْطر..) وفي الأفعال: (قْعد، وْقف، هْرب..). وقد اكتُشفت هذه العيوب من قبل الشعوب القديمة أيضاً، فأضافوا حرفاً كالألف المهموزة لتسهيل نطق الكلمات المبدوءة بساكن. وهكذا فعل عربُ الجزيرة في عصرهم الجاهلي، فثبّتوا تلك الهمزة مثل: في أفعال الأمر: (أخْرج، إجْلس، أكْتب..) وفي الصفات: (أبْيض، أحْمق، أجْرب..) وغيرها من الألفاظ التي لا تكون الهمزة أصلاً فيها.

وهكذا فعل سكّان غرب ليبيا وجنوب تونس مع أسماء أبنائهم إذا اختاروا لهم اسم الرسول الكريم (محمد) صلوات الله وسلامه عليه، فاشتهر عندهم اسم (إمْحمِّد) بميمين الأولى ساكنة والثانية مكسورة عكس الأصل تماماً، وصار اسماً مستقلا بذاته، إلى درجة أن البعض يحمل اسمه واسم والده هكذا: (محمد بن إمحمد). والصيعان ينطقون (مُحَمَّد) أيضاً هكذا: (مْحُمُّد) بميم ساكنة وحاء وميم مضمومتين، وينطقون (إمْحِمِّد) بميم ساكنة وحاء وميم مكسورتين، وهو اسم جدّهم الذي يجب أن يكون في الأصل (مُحَمَّد).

أولاً- التدوين الشفوي من خلال الأساطير الشعبية:

6-تصحيح قصة تيجي:

أصل اسم (تيجي) أمازيغي (بربري)، هكذا: (تيجيغت) أو (تيجيخت) والأخير أصح رغم قرب الصوتين (الغين) و(الخاء) في المخرج الحلقي، ويعني عندهم: (مصدر الماء)، وفيه ظاهرة (تائي التأنيث) في أوله وفي آخره، لذا يكون الأصل (جيخ)، والجيخ في العربية الفصحى من (جاخ، يجيخ، جيخاً)[1]، مثل: (جاخ السيلُ الواديَ، أجاخه جيخاً أو جوخاً) أي (أكل أجرافه من شدة دفق المياه)، ويتفق هذا المعنى مع المعنى الأمازيغي: (مصدر الماء).

من خلال القصة الأسطورية التي أوردناها عند الحديث عن مدينة (تيجي) يتضح أن الأدارسة أو (الدرايسة) كما تقول الرواية الشعبية، قاموا بمهاجمة (تيجي) واحتلالها بعد تقتيل أهلها باستثناء شاب هاجر إلى فحص تونس مع أربعين امرأة من أهله، وخلّف منهن أبناءً وأحفاداً، ثم عاد واسترجع مدينته من (الدرايسة). وبغض النظر عن المبالغة في وصف طريقة الاحتلال وبشاعة التقتيل.. وبغض النظر عن سكّان (تيجي) وقتذاك هل هم من العرب القادمين بعد الفتح الإسلامي أو من بقايا (القنطراريين) القدامى الذين توزعوا في الأرجاء.. وبغض النظر عن كل تلك الروايات الشعبية الشفوية غير الثابتة، إلاّ أن مدينة (تيجي) لا بد أن تكون قد دخلت في الصراع الذي حصل بين أهالي نفوسة، من جهة، وإبراهيم بن الأغلب، من جهة أخرى، وذلك عقب هزيمتهم في موقعة (ماني) بين طرابلس وقابس سنة

---

[1] أنظر مثلا: لسان العرب المحيط لابن منظور.

105 هـ (**011**م). ثـم أرسـل إبـراهيم فـي العـام الثـاني ابنـه (أبـو العبّـاس) فاجتـاح نفوسة، لاسيما (قنطرار) فقتل وأسر خلقاً عظيماً[1].

ولعـل الـرواة الشـعبيين تنـاقلوا هـذه الروايـة التاريخيـة، فـألّفوا علـى منوالهـا الأسطورة المذكورة حول مدينة (تيجي= قنطرار)، والتي كانت آنذاك من أهم مراكز نفوسة الطرابلسية، ونفوسة في تلك الأثناء كانت تحارب الأغالبة باسم الرستميين الذين بنوا دولتهم في (تاهرت) (بالجزائر حالياً) سنة **618** هـ (**551**م)، إذ يبدو أن الـرواة الشـعبيين لـم يفقهـوا الروايـة التاريخيـة فحرّفـوا فيهـا، واسـتبدلوا الأدارسـة بالأغالبـة. والثابـت تاريخيـاً أن الأغالبـة فـي المغـرب الأدنى والرستمية فـي المغـرب الأوسط والأدارسة في المغرب الأقصى كانوا يتقاسمون حكم شمال أفريقيا فيما بينهم في نفس الفترة تقريباً، وذلك قبل أن يقضي عليهم الفاطميون بقيادة عبيد الله المهدي الشيعي.

والأدارسة الـذين أقيمـت دولـتهم بـالمغرب الأقصـى منـذ دخـول إدريـس بـن عبـد الله إليـه سـنة **658** هـ (**501**م) كـان لهـم نشـاط كبيـر وصـراع طويـل هنـاك لـم يتجـاوز محـيط دولـتهم. وإذا حصـل لهـم خـروجٌ مـن المغـرب الأقصـى فلـم يكـن عسـكرياً وإنمـا كـان خروجـاً سـلمياً. فكـانوا محتـرمين مبجّلين مـن قبـل كـل القبائـل المغاربية مهما كانت انتماءاتها العرقية ومذاهبها الدينية، فجميعها يحترم آل البيت ويجلّهـم. ويكفي تلك القبائـل شرفاً أنهـا اسـتقبلت إدريـس بـن عبـد الله وولّتـه عليهـا وزوّجته من خيرة بناتها، ثم احتضنت عبيد الله المهدي الفاطمي وساعدته على بنـاء دولته في شمال أفريقيا ثم في مصر. إلاّ أنه عنـدما اسـتولى (موسـى بـن أبـي العافيـة)

---

[1] **سالم**، السيد عبد العزيز: **تاريخ المغرب الكبير في العصر الإسلامي**، مصدر سابق، ص569.

الموالي لبني أمية في الأندلس حاول القضاء نهائيا على أحفاد الأدارسة وإجلائهم عن المغرب الأقصى سنة 565 هـ. فتفرّقوا في كل أرجاء المغرب[1]، وربما وصلوا إلى إقليم طرابلس ودخلوا إلى (تيجي = قنطرار) وسكنوها لفترة من الزمن، فتناقل الرواة قصتهم ومزجوها بقصة احتلال الأغالبة لتلك المدينة.

والحقيقة الثابتة تاريخياً أيضاً أن كثيراً من القبائل المغاربية ناصرت آل البيت على أنهم أحفاد رسول الله (صلّى الله عليه وسلّم)، وبعضها حاربتهم على أنهم شيعة وأئمّة كفر. فبعد أن استُقبل إدريس بن عبد الله (المحض) في المغرب الأقصى بحفاوة بالغة، ثار موسى بن أبي العافية على أحفاده وطردهم. وبعد أن استُقبل عبيد الله الفاطمي في المغرب الأدنى بالترحاب، ثار عليه (أبو زيد مَخلد بن كيدان) وحارب الشيعة وثار عليهم ثورة عارمة، ثم أبطلت صنهاجةُ وكتامةُ العملَ بالتعاليم الشيعية وعادت إلى السنة. ولكن رغم أفول نجمهم سياسياً وإدارياً في الشمال الأفريقي إلاّ أن الأثر الشيعي بقي قائماً ومترسّخاً في بعض العادات والتقاليد إلى زمن ليس ببعيد من الآن، وكنّا قد تعرضنا لذلك في فصول الباب الثاني من هذا الكتاب.

أما استرجاع تيجي من مغتصبيها (الدرايسة) كما ذُكر في قصتها الأسطورية فقد تعود إلى نهاية دولة الأغالبة ودولة الرستميين على يد عبيد الله المهدي مؤسس الدولة الفاطمية في المغرب الأدنى، ثم أيلولة حكم البلاد إلى الصنهاجيين بعد خروج (المعز لدين الله الفاطمي) إلى مصر، ثم تأثر شمال أفريقيا بكامله بالهجرات العربية التي انثالت عليه من الشرق دفعة واحدة في منتصف القرن

---

[1] إبن عِذاري المراكشي: البيان المُغرب في أخبار الأندلس والمغرب، ج1، ط2، 1981، دار الثقافة، بيروت/ لبنان، ص 214.

الحادي عشر الميلادي، وهي هجرات قبائل بني سُليم وبني هلال. وفي تلك الأثناء تفرّقت أيدي القنطراريين من سكان تيجي بين منطقة الجبل الغربي والجنوب التونسي. ويقال أن قنطرار مزدة أسسها (يحي أبو الصيّود الإدريسي القنطراري) سنة 6603م[1] (306 هـ). و لعل في لقب هذا العالم الجليل وتاريخ تأسيسه لقنطرار مزدة إشارة إلى الأدارسة الذين خرجوا من تيجي في زمن تأججت فيه الصراعات السياسية في المغرب العربي إثر سقوط الدولة الصنهاجية في القيروان والدولة الخزرونية الزناتية في طرابلس، ودخول عرب بني سُليم وبني هلال في خضم الأحداث، والصراع المرير بين المرابطين والموحّدين، وانقسام دولة الموحّدين إلى عدّة دويلات، إلى أن قضت عليها جميعاً جحافل الإسبان على إثر حملة الفرنجة ضد العرب والمسلمين وطردهم من الأندلس. مما دفع الدولة التركية الفتية إلى حمل لواء الوصاية على الإسلام في كل الوطن العربي فتحول معظم العرب إلى رعايا عثمانيين يأتمرون بأوامر الآستانة، فصار لهم وضع آخر من حيث التشكل السكاني وتكوين القبائل واستقرار العوامل الجغرافية والتاريخية بصورة مهّدت للوضع الحالي.

ويتضح من خلال هذا السرد التاريخي أن مدينة تيجي التي صارت المركز الثاني للصيعان مع الجوش، كانت قد شهدت صراعاً عنيفاً بين النفوسيين المناصرين للدولة الرستمية التي قامت في تاهرت على المذهب الإباضي القادم من الشرق، من جهة، ودولة الأغالبة في القيروان الموالية للدولة العبّاسية في بغداد، من جهة ثانية. وهو صراعٌ يندرج ضمن ملاحقة الخلفاء العبّاسيين للثائرين

---

[1] أنظر: **العلاوي**، فارس أحمد: **تاريخ مدينة تيجي وقبائل الصيعان وبلدانهم**، ط1،؟، مكتبة أوغاريت، دمشق/سوريا، ص32.

ضدّهم كالخوارج والشيعة والمعتزلة وغيرهم من الحركات التي آثرت التوغّل في الجبال الوعرة كالتي في اليمن وخرسان والمغرب الأقصى بعيداً عن مركز الخلافة. فكانت مدينة تيجي آخر نقطة سهلية يمكن الوصول إليها من قبل الأغالبة لمحاربة الإباضية قبل أن يستعصى عليهم صعود جبل نفوسة. وبالتالي فإن تيجي لم تشهد صراعاً بين القنطراريين والأدارسة، ولكن الصراع كان مع الأغالبة، أما الأدارسة فيبدو أنهم سكنوها سلمياً وعلى مستوى أفراد وليس جماعات كبيرة، وذلك قبل الاجتياح الجماعي لبني سُليم وبني هلال من الشرق، وقبل الهجرات العكسية الفردية التي قام بها المرابطون الأندلسيون والأشراف المغاربة عقب سقوط غرناطة، والذين انبثقت منهم العديد من القبائل المنتشرة حالياً بين مصر شرقاً والمغرب الأقصى غرباً، وقد تكون قبائل الصيعان من ضمنها.

وبما أن وثيقة النسب المخصّصة لذرية الولي الصالح (محمد أبو صاع) ترجعه إلى جده الأول (إدريس بن عبد الله) مؤسس الدولة الإدريسية بالمغرب الأقصى، فقد يكون الأدارسة الذين سكنوا مدينة تيجي الأجداد الأوائل لهذا الشيخ الجليل الذي انبثقت منه القبائل الأربع المذكورة آنفاً، خصوصاً وأن بعض القنطراريين الذين سكنوا تيجي كانوا يحملون لقب (الإدريسي) دليلاً على أن الأدارسة عموماً سكنوا سهل الجفارة منذ القديم قبل تكاثرهم وانتقالهم إلى أماكن أخرى غيره. وهذا ما يؤكد أن الشيخ الجليل (محمد أبوا صاع) لم يأت مباشرة من المغرب وإنما كان سليل أجداده الأوائل الذين انتشروا في الأقاليم الطرابلسية.

1-قصة سبيبة:

يبدو جلياً أن المثل الشعبي المشهور (لْيَا مْشِت تْقَطّع السلاسل ولْيَا جِتْ تْجيبْها سْبيبَة) لا علاقة له بالولي الصالح (سيدي امحمد أبو صاع)، وربما بمدينة سبيبة أصلاً. لأن سبيبة وُجدت -على الأقل- منذ الفترة اللاحقة للفتح الإسلامي للمغرب العربي. وهذا يعني أنها كانت مدينةً قائمةً بذاتها قبل تشكل القبائل التي انتمى إليها هذا الولي. ويعترف ابن عِذاري المراكشي أنها كانت مدينةً، وأن واقعةً حدثت فيها وهي واقعة سنة 168 هـ (013م) في عهد زيادة الله الأغلبي[1] التي قُتل فيها ابن أخيه محمد بن عبد الله بن الأغلب. وزارها صاحب الحمار (أبو يزيد مَخلد بن كَيْدان اليفرني الزناتي) أثناء ثورته المشهورة على الفاطميين. ويقال في وصف سبيبة أنها (كانت ذات ثمار وأنهار، تطحن عليها الأرحاء، وهي كثيرة البساتين، ويجود في أرضها الزعفران، وحولها جبال كثيرة يسكنها من العرب قومٌ يُعرفون ببني المغلس وبني الكسلان)[2]. ولعلّ قصة غرق الفرس أو البغلة في وادي سبيبة تعود إلى أحد الصالحين الفاتحين المارّين بها قبل أن تصير مدينة مشهورة في العهود التي تلت الفتح الإسلامي، أو أنها أسطورة من نسج المخيلة الشعبية التي تكون عادة بدافع الحب والإعجاب ببطولات الفاتحين ورجالات الدول التي أقيمت في المغرب العربي وغيره، إذ تتجاوز تلك الأساطير -في الغالب- مؤشر الكرامات المعروفة لدى الصالحين إلى مستوى المعجزات، مثل هروب الوحوش

---

[1] أنظر: ابن عِذاري، نفس المصدر، ص 100.

[2] أبو صوة، د. محمود أحمد: ملاّك الأرض بأفريقيا منذ الفتح حتى أواسط القرن الرابع للإسلام، ط؟، 2111، منشورات دار (ELGA)، فاليتا/ مالطا، ص69.

أمام عقبة بن نافع عند بنائه لمدينة القيروان، وكذلك فعلت مع عبد الرحمن بن رستم عند بنائه لمدينة تاهرت.

وقد ترد بعض الإشارات هنا وهناك أن (امحمد أبو صاع) عاش في سبيبة إلى أن مات ودُفن فيها، فهاجر أبناؤه أو أنهم واصلوا هجرتهم نحو الشرق، واستوطنوا الشق الشرقي لسهل الجفارة بين البحر المتوسط وجبل نفوسة. غير أن إشارات أبنائه لا تقر هذا الرأي، وترى أن موطن (سيدي امحمد أبو صاع) الأصلي هو (الجوش) وليس (الجوف = سبيبة)، وذلك اعتماداً على الأسطورة القائلة بأنه عندما شعر بقرب منيته قرر الهجرة العكسية إلى المغرب موطن أجداده الأصلي، فحرنت بغلته في سبيبة حيث عاش بقية حياته ودُفن فيها. وكان أبناؤه وأحفاده يتمنون دفنه في الجوش حتى يمكنهم التقرب من ضريحه والتبرك به متى يشاءون بدل التوجّه إلى سبيبة كلما قادهم الشوق لزيارته. ولعل هذا التذبذب -بين الجوش وسبيبة- كان سبباً في توسيع مجالهم الحيوي ومحيط تنقلهم، إلى أن غدت المنطقة الممتدة على طول سهل الجفارة بشقيه الليبي والتونسي (حالياً) منتجعاً لبيوتهم ومرتعاً لحيواناتهم ومسالكَ عبور إلى سبيبة طيلة الفترة السابقة لترسيم الحدود بين البلدين.

يُطلق الصيعان اسم (الجوف) على سبيبة، ربما لوقوعها في أرض منخفضة تقع بين القيروان والحدود التونسية الجزائرية الحالية. ولفظ (الجوف) في اللغة معناها البطن في الإنسان، كما يعني كل منخفض في الأرض، ويتكرر هذا المصطلح الجغرافي (الجوف) في عدة أماكن على خريطة الوطن العربي كله. وقد وردت في وثيقة نسب (سيدي امحمد أبو صاع) بهذه الصيغة: (..والشيخ سيدي

محمد ذريته في الجوف..) ولم تحدد أين يقع هذا الجوف، إلاّ أن الصيعان يحددون ضريح جدهم بالقول: (ساكن في الجوف.. بين سبيبة والعيطوف..). وتذكر الوثيقة أيضاً (الجوش) بالقول: (..وبعض ذريتهم في الجوش..)، ويتمنى الصيعان لو كان جدهم دفين الجوش فيرددون العبارة التالية: (يا ريته في الجوش رقاده)، وفي ذلك إشارة إلى أن سبيبة ليست الموطن الأصلي للولي الصالح (سيدي امحمد أبو صاع) بل موطنه الأصلي هو الجوش، وهذا ما جعل الصيعان يجلبون الحجارة من سبيبة ويبنون بها روضة جدهم في الجوش ثم في تيجي.

ومن خلال السرد التاريخي لمدينة سبيبة، يتضح تشابه الأحداث بينها وبين مدينة تيجي، وذلك من حيث تعرضهما للهجوم الأغلبي وإعمال السيف في رقاب سكانهما. إلاّ أن الواضح أن سبيبة وما جاورها من جبال كانت تعجّ بالعرب، من بني المغلس وبني الكسلان، ربما من اليمانية الذين تمكّنوا من تحويل أرض سبيبة الخصبة إلى جنّات عدن. وربما أيضاً أن بعضهم اعتنق المذهب الإباضي بتأثير من ابن عمّهم (عبد الأعلى المعافري اليمني) ناشر هذا المذهب –مع رفاقه– في المغرب العربي. وهذا سبب ملاحقة العبّاسيين لهم عن طريق أغالبة القيروان القريبة من سبيبة. إلى جانب ذلك كانت سبيبة –فيما بعد– ملجأ (صاحب الحمار) الثائر ضد فاطمية المهدية. وبالتالي فلا يمكن لتلك الصراعات التي حدثت بتيجي وسبيبة وغيرهما، أن تكون صراعات دينيةً أو مذهبيةً أو عرقيةً، بقدر ما كانت سياسيةً متعلّقةً بتأسيس الدول وتغليب إحداها على الأخرى طلباً للزعامة والسيادة، تماماً كما كان يحدث في جميع أطراف العالم الإسلامي آنذاك من شرقه إلى غربه.

ولعل خروج أحفاد الأدارسة من مدينة تيجي وانتشارهم بالجبل الغربي ومنطقة نفزاوة المحاذية لسبيبة، يكون دافعاً من دوافع تواجد ذرية الولي الصالح (امحمد بو صاع) بين الجوف بسبيبة والجوش القريبة من تيجي، وهو المجال الحيوي الذي كان الصيعان يرتحلون خلاله وينتجعون ربوعه بكل حريّة بلا قيود ولا حدود. وهذا ما تؤكده وثيقة نسب الشيخ الجليل وتؤيده أشعار أبنائه وقصصهم.

ثانياً- التدوين الشفوي المقفّى:

المعروف عن العرب أنهم لم يدوّنوا تاريخهم كتابةً، فاعتمدوا فقط على الشعر الذي سجّلوا به كثيراً من الأحداث دون قصد. فصار الشعر –مع الزمن– ديوانهم وسجلهم وصفحات تاريخهم. وليس في ذلك نقيصة، فسكّان ما بين النهرين وقدماء المصريين استهلوا تاريخهم بالأساطير والأشعار، كذلك فعل هوميروس في التاريخ الإغريقي. ولم يعرف العرب التدوين إلاّ في صدر الإسلام، حين قرّر بعضهم تقصّي المعلومات حول مغازي الرسول والصحابة وجمع الأحاديث النبوية الشريفة. فكان ذلك نقطة انطلاق لتأسيس علم التاريخ العربي الإسلامي. وهكذا كلّما ارتقت العقلية العربية درجة إلى العلا تحسنت عندهم أساليب الفهم والمعرفة، فصار لعلم التاريخ مناهجُه المتاحةُ آنذاك والتي تعتمد على إسناد النصوص التاريخية إلى أصحابها فيما عُرف آنذاك بالإسناد والعنعنة. وعندما تراجعت العقلية العربية خطوات إلى الوراء عقب نكبة الاحتلال المغولي في الشرق ونكبة الاسترداد المسيحي في الغرب، انحدر مستوى الفهم والمعرفة، فعمّت الأميّة والجهل عدة أماكن من الوطن العربي، وانتزع الغرب صولجان العلم من أيدي العرب مشارقة ومغاربة، فلم يبق لهم غير العقيدة الإسلامية الراسخة، إلى

جانب بقايا علوم ظلت صامدة في عقول بعض علماء العرب، فمنهم من بقي متشبثاً بثقافته العربية الإسلامية ومنهم من تأثر بثقافة الغرب. أما العامّة فعاد أغلبهم إلى شظف العيش وحياة البداوة، وانسحبت من أفواههم اللغة العربية وطفقت الألسن ترطن بلهجات موغلة في المحلية. وصار أنصاف المثقفين نماذج راقيةً يُحتذى بها ويُعوّل عليها في نهل المعرفة والثقافة. وفي تلك الأثناء عاد الشعر في ثوبه الشعبي إلى أفواه العامة كمتنفس ثقافي يعبّر به الشاعر عن القبيلة وصراعها مع الطبيعة من أجل البقاء.

وإذا صحت مرجعية الصيعان إلى أجدادهم الأُول المهاجرين من المغرب الأقصى، لا بد أن يكون زمن تشكل قبائلهم في الفترة التي أعقبت حركة الاسترداد المسيحي وخروج العرب من الأندلس والضغوط التي فرضها عليهم البرتغال والإسبان، مما سبب في تكتل سكّاني على المغرب الأقصى، فهاجر كثيرٌ منهم إلى الشرق، واستقر كثيرٌ من المرابطين الأشراف في مدن وقرى وصحاري وبوادي الشمال الأفريقي، بل في مصر والخليج والشام والعراق أيضاً، عُرفوا بأولياء الله الصالحين أو المرابطين أو الأشراف.

وقد لا نجد دليلاً تاريخياً مادياً عن مرجعية (سيدي امحمد أبو صاع) إلى أولائك المرابطين الأشراف القادمين من المغرب الأقصى مباشرةً، باستثناء وثيقة قد تكون مستوحاة من جريدة الأنساب التي تصدر في الرباط، وفيها ينتهي نسبُ هذا الولي الصالح إلى الحسن بن علي بن أبي طالب، أو وثيقة التنسيب الخاصة به والتي لها علاقة مباشرة بالوثيقة الأولى. والواقع أن تاريخ (سيدي امحمد أبو صاع) قد تعرّض للتشويه من قبل العامة، مثلما حصل ما غيره. فكل الأولياء

هم – في الأصل – من المشايخ والعلماء الذين جاءوا من المغرب لبناء الزوايا وتحفيظ القرآن للناشئة وتصحيح الدين الإسلامي في أماكن ضعف فيها الدين بسبب الجهل والبعد عن بؤر العلم. ومع الزمن صارت سيرهُم تجري على الألسن بصورة تقليدية تغلب عليها اللهجة العامية، فنسبوا لهم القصائدَ الشعريةَ بحسب ما ألّفه المحبّون المريدون والمتعاطفون مع أولائك الأئمة والمشايخ. فأتباع سيدي (عبد السلام الأسمر) يمدحونه بالقول: (يا لسمر يا ولد سليم.. ألفي واجلي عليّ الضيم). وأتباع سيدي (امحمد بن عيسى) يمدحونه بالقول: (بابا بن عيسى الغربي.. ساكن مكناسي لقصى.. يا سيدي راني نبغي.. في كل عشية حضرة). وعادة ما تكون تلك القصائد المنغّمة مصحوبة بقرع الدفوف والجذب والرقص وحرق البخور.

هذه الظاهرة باتت تسيطر على عقول العامة والمنساقين وراء الحركات الصوفية الشعبية، وليست الصوفية الفلسفية التي لها علماؤها وفلاسفتها، ولكنها الجماعات التي تتجمهر في الزوايا لأداء الذكر والإنشاد والمدح وقرع الدفوف وحرق البخور.. ومن خلال تلك القصائد يمكننا أن نستخلص مجموعة من الأفكار حول أناس أثّروا في مجتمعاتهم، ولكنهم لم يتركوا لنا تاريخاً موثقاً ومكتوباً. وقد قيلت في سيدي (امحمد أبو صاع) أيضاً كثير من القصائد والمدائح والأذكار تعطينا جملة من الأفكار حوله، فعلى سبيل المثال المدحة المشهورة التي تجري على ألسنة العامة حتى وإن لم يكونوا من الصيعان أصلاً، والتي تقول: (بوصاع يا راقد سبيبة.. ندهتك للغايب تجيبه)، فهي تشير إلى أن سيدي (امحمد أبو صاع) له جاه عند ربه فيستجيب لدعائه. كما نسبوا له القول: (أني

ندهة المطرّف.. ليا كان ولدي لا خنب لا حرّف)، فهي إشارة إلى أن هذا الولي وعد أبناءه باستجابة الله لدعائهم بشرط ألاّ يسرقون ولا يكذبون، وهي دعوة لترسيخ مبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الذي ينتهجه المصلحون عادة. إضافة إلى أن في المقولتين إشارة إلى أن (سبيبة) البعيدة عن الصيعان هي مرقد جدهم وضريحه.

ولا نعتقد أن الكلام المنقول عن سيدي (امحمد أبو صاع) كان – في الأصل – باللهجة العامية الخالصة وهو العالم العارف، وإنما كان ترجمةً وتبسيطاً وتسهيلاً لما كان يقوله باللغة العربية الفصحى، إلى درجة أن التأثير لم يكن في لغة الخطاب فقط وإنما في الأفكار والرؤى والمعالجات الشعبية التي تفهمها العامة وتتعاطها ببساطة مفرطة. ولا نعتقد أن سيدي (امحمد أبو صاع) كان يلتجئ إلى الدعاء بالشر على ظالميه، وهو الولي الصالح المخلص لربه، والأكيد أن العامة نسبوا إليه هذا القول: (ما لزّنا زول واربح.. بالله وأهل العبادة.. ويغدي كما دحية المح.. ليا صادفتها الرشادة)، فقط ليكون دعاءً مخيفاً للغير من باب الدفاع عن النفس وحمايتها من الأذى.

وفي مجال التنسيب – وهو فرع من فروع علم التاريخ قديماً – يرى بعضُ الصيعان أن جدّهم (امحمد أبو صاع) تزوج من امرأة (عوينية)، وهي من قبيلة (الربايعة) المحاذية للصيعان، وأنجب منها (الكوني)، فاعتبره الصيعان جدّهم الثاني، فذكروه شعراً: (ذرية الكوني شغلوني.. هم ميم عيوني.. وبيهم ينحلّوا لنظار). وقد ذُكر هذا الجد في خاتمة حجة النسب باسم (محمد الكوني). وهذا

يعني أن الشاعر لم يأت باسم (الكوني) من فراغ وإنما استوحاه من رواية تاريخية متواترة، والأكيد أنه لم يطلع على تلك الوثيقة المكتوبة.

وبما أن التاريخ يعتمد على عنصري الزمان والمكان، فقد وردت إشارات عديدة في أشعار الصيعان وغيرهم ممن عاشرهم تحدد أماكن تواجدهم والمجال الجغرافي الذي كانوا يتحرّكون فيه. وأول إشارة لذلك : (بوصاع يا راقد سبيبة..) التي تحدد مكان ضريح الجد الأول في سبيبة الواقعة بين القيروان والحدود التونسية الجزائرية الحالية، بل ويصفه الشاعر بدقة إذ يقول ما أوردناه سابقاً: (ساكن في الجوف.. بين سبيبة والعيطوف) أي في مكان منخفض من الأرض يليه انعطاف إلى جبل مرتفع. وكان الصيعان يتمنون لو كان جدّهم دفين وطنهم، فيضيف الشاعر: (قبره محدوف.. ياريته في الجوش رقاده)، والجوش مركز الصيعان قديماً كما يشير الشيخ الطاهر الزاوي، تقع على الطريق العام بين طرابلس ونالوت. ويؤكد شاعرٌ آخر أن الجوش موطن الصيعان فيقول: (فوت النخلات.. تلقاهم لربع لحمات.. ولاد أمي)، والنخلات علامة مميزة للجوش، واللحمات الأربع التي ذكرها الشاعرُ هي قبائل الصيعان الأربع: (أولاد سلاّم وأولاد امحمد وأولاد شرّادة والهمايلة). أما مجالهم الحيوي الذي يتحرّكون فيه فيرد في عدّة قصائد قالها الصيعان واعترف بها غيرهم من الجيران. وهذا شاعر من الصيعان يستغرب توغلَ أهله شرقاً فيقول: (رحل نجعي زاز الميشار.. لقيت غير اوهامه والدار)، والميشار مكان يقع خلف (بئر الغنم) الواقعة على الطريق العام بين العزيزية وبئر عياد. وتَكرّر ذكرُ الميشار في العديد من القصائد على أنه أقصى نقطة يصلها الصيعان في تحركهم نحو الشرق. وهذا شاعرٌ من الجبل يمدح

الصيعان ويحدد مجالهم الحيوي ويقول: (سكّانين الفج شبحه مطوّح.. من شرق الميشار ليا كاف شنّيني) وتقع قرية شنينّي هذه قرب مدينة قابس الواقعة شمال شرقي جبال مطماطة في الجنوب التونسي، أي في نهاية سهل الجفارة، ولكن الشاعر ذكر (الكاف = الجبل) وهو قد يعني به (جبل شنّيني بتطاوين). وإضافةً إلى كل ذلك فبعض الصيعان كانوا يجلبون القمح من مدينة باجة الواقعة في أقصى شمال القطر التونسي الشقيق، وحداء الإبل التالي يشير إلى ذلك: (أجنابها والمطارق بعد انقضت كل حاجة.. يا مقربك يا لبرق ويا مبعدك يا سوق باجة) والأبرق هضبة رملية شمال مدينة تيجي التي اشتهرت هي الأخرى كمركز للصيعان ويذكرها الشعراء عامة في قصائدهم ضمن هذا المجال الجغرافي المحدود بالقول: (لبرق وتيجي وجبل نالوتي..). وغير ذلك كثير من الإشارات والمعلومات التي يمكن استخراجها من الشعر الشعبي، سواء أكان مدائحَ وأذكاراً أو قصائدَ اجتماعيةً عامةً.



الفصل الثاني

تحليل المصادر المكتوبة

تمهيد:

لم يحظ الصيعان بتخصيص بحوث ودراسات أو كتب تتحدث عنهم وعن دورهم في تركيبة المجتمع الليبي وتأثيرهم في الحياة البدوية ومساهمتهم في التشكل القبلي الحاصل بُعيد سقوط الدويلات المغاربية وخروج العرب والمسلمين من الأندلس، وما سببته تلك الأحداث من تجدد التشكل السكاني وإعادة التوزيع الديموغرافي عبر خطوط الهجرات والهجرات المعاكسة الرابطة بين الشرق والغرب. ومن خلال هذه الحركة المتأثرة بالأوضاع السياسية، من جهة، والمحكومة بالدوافع الدينية، من جهة ثانية، تكوّنت القبائل العربية التي تعود بالأصالة إلى أجدادها المرابطين الأشراف القادمين من المغرب الأقصى. إلى أن قام الشيخ الجليل والعالم العارف والولي الصالح (محمد أبو صاع) بتكوين قبائل انتمت إليه وسميت باسمه. فصار لهم – مع الزمن – خصوصية تستحق الدراسة والكتابة والتسجيل. والشيء المؤسف حقّاً أنه لم يلتفت أحد من البحّاث والكتّاب إلى هذه الخصوصية التي تميّز الصيعان عن غيرهم من القبائل في جميع نواحي الحياة الإنسانية والاجتماعية والثقافية والأدبية، وكذلك النواحي التاريخية والجغرافية.

هذه الأسباب وغيرها دفعتنا إلى تقديم هذه المحاولة التي تناولنا فيها الجوانب الثقافية بما فيها من خصوصية التصرف والحركة والتركيبة النفسية والشخصية وأثر كل ذلك على السلوك اللغوي المتمثل في الألفاظ والتعبيرات

اللهجية نثراً وشعراً. وحتى لا نقع في المحظور لم نتطرق بصورة مباشرة إلى الجوانب التاريخية والخوض في مسألة الانتماءات وعناصر التركيب القبلي كاللحمات والبيوت والأسر والعائلات، إذ رأينا أن ذلك لا يتم بغير الرجوع إلى مصادر ثابتة وأكيدة، وهذا ما لم نحصل عليه حالياً على الأقل، فآثرنا فقط تناول الجوانب التي نستطيع ملامستها والتعامل معها وملاحظتها والخوض فيها. وقد اعتبرنا بعض القصص والأساطير الشعبية على أنها موروث ثقافي اجتماعي تراكمي، فأوردناها دون اعتمادها كمرجع تاريخي علمي.

لذا كان لزاماً علينا ألاّ نعتبر هذا الكتاب مرجعاً تاريخياً بقدر ما هو دراسة اجتماعية تميل كثيراً إلى الدراسات اللغوية التي تتخذ من العادات والتقاليد أساساً لفهم السلوك اللغوي لدى جماعة معينة من الجماعات الإنسانية. واستكمالاً لهذا البحث الاجتماعي والثقافي الخالص رأينا أنه لا يمكن له أن يكتمل دون الاطّلاع – ولو قليلاً – على النواحي التاريخية والجغرافية التي اعتبرناها لصيقة وملازمة لهذه الدراسة فقط من أجل توصيل الفكرة وتعميم الفائدة مع إيماننا بأن الجوانب التاريخية لأي جماعة من الجماعات البشرية تشكّل جزءاً مهمّا من حياتها الثقافية. وتأسيساً على ذلك فإننا لاحظنا أن بعض الوثائق التاريخية المتفرّقة هنا وهناك على بعض صفحات الكتب والدوريات أشارت إلى الصيعان وذكرتهم ذكراً عابراً دون التركيز عليهم، فقد تجاهل كثيرٌ من الكتّاب والبُحّاث – بصورة أو بأخرى – تلك الوثائق وأبدوا عدم الرغبة في دراستها، فاكتفوا بنشرها بين صفحات مقالاتهم أو في ملاحق كتبهم دون التعرّض لها بالشرح والتحليل ضمن نصوص ومتون

دراساتهم وأبحاثهم. فكان لنا ذلك دافعاً لتخصيص هذا الفصل لتحليل بعض الوثائق التي تتعلق بالصيعان.

أولاً- التدوين المكتوب من خلال شجرة الأنساب:

6–حُجّة نسب (سيدي امحمد أبو صاع):

تحتوي هذه الحُجّة التي تحمل عنوان: (هذا نسب سيدي محمد أبو صاع نفعنا الله ببركاته)[1] على أهم ثلاثة أجزاء:

الجزء الأول: وهو المقدمة التي تشير إلى أن هذه الحجة تثبت نسب ذرية إدريس بن إدريس بن عبد الله بن حسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب وفاطمة الزهراء بنت رسول الله (صلى الله عليه وسلم).

الجزء الثاني: وهو إشارة إلى نجاة إدريس بن عبد الله من القتل في زمن هارون الرشيد، وهروبه إلى المغرب الأقصى، وزواجه من بنت سلطان البرابرة (عبد العجمية الربيب)، ووفاته مسموماً بواسطة قارورة سم قدّمها له (سليمان!) الذي أرسله هارون الرشيد، تاركاً زوجته حاملاً، فولدت إدريس الصغير. وتمسك مولاه راشد بالإمامة حتى كبر إدريس الثاني الذي تزوج من (حسنى بنت سليمان بن محمد) فأنجبت له إثني عشر ولداً ذكراً. وعندما تولّى ابنه محمد قسّم البلاد على اخوته واحتفظ لنفسه بمدينة فاس وأحوازها، كما أعطى لأخيه (زين العابدين) كلاًّ من القيروان وطرابلس وأحوازهما. وتذكر الوثيقة أن إدريس الثاني مات بالسم أيضاً، إثر أكله عنباً مسموماً.

[1] أنظر هذه الوثيقة في: العلاوي، نفس مصدر، ملحق الوثائق.

الجزء الثالث: وهو الأطول والأكثر تعقيداً، إذ يحتوي على تنسيب أحفاد إدريس بن عبد الله الذي ينتهي إلى الحسن بن علي بن أبي طالب. ومن بين الأنساب تذكر نسب الشيخ العامل العارف والولي الصالح سيدي محمد أبو صاع، الذي ينتهي إلى إدريس بن عبد الله. ومن ذريته:

(..سيدي محمد بو صاع عقّب سيدي زيد، وعقّب سيدي امعلّة "أو معلاّ"، وعقّب سيدي ناج المهير "أو ناجي المهيد أو المطير"، وعقّب سيدي محمد بو دخان، وعقّب سيدي المشري "أو المشرد أو الشراد"، وعقّب سلام، وسلام عقّب ذريته أولاد سلام، ومحمد عقّب ذريته أولاد محمد، وهميل عقّب ذريته الهمايل "أو الهمايلة". هذه ذرية الشيخ العامل والعارف سيدي محمد بو صاع ابن الحسن بن علي بن أبي طالب وفاطمة الزهراء بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم).

وتنتهي هذه الحجة بخاتمة يذكر فيها كاتبها أنها مأخوذة عن نسخة صحيحة ذكرها "أو حضر إعادة نسخها" الشيخ سيدي عثمان بن الحاج بن نصر بن نصر بن عبد السيد بن حامد بن سلام بن عثمان بن خليفة بن محمد الكوني.. وهي مؤرخة بسنة **6101** هـ. وشهد عليها عدلان من عدول بلدة الحامّة.

التحليل:

تتطابق الأحداث التاريخية المدوّنة بالكتب مع الجزء الثاني لهذه الحُجّة. فقد جاء في قصة أبناء عبد الله (المحض) بن حسن بن الحسن (السبط) بن علي بن أبي طالب (كرّم الله وجهه) وفاطمة الزهراء بنت رسول الله (صلى الله عليه

وسلم)، وهم ستة: (إدريس وسليمان ومحمد وإبراهيم وعيسى ويحي)، أنهم وقعوا مع بعض من أبناء عمومتهم في موقعة (فخ) قرب مكة، دبّرها لهم أبو جعفر المنصور، فنجا إدريس من الموت وهرب مع مولاه راشد إلى مصر عبر خليج العقبة ثم إلى المغرب عبر برقة وطرابلس وتلمسان سنة 658هـ (501م)، واستقر في (ولّيلي) من أرض طنجة، فأطاعه المغاربة وولّوه إماماً عليهم، وزوّجوه من إحدى بناتهم وهي (كَنزة). ولكن هارون الرشيد بعث له شخصاً يدعى (الشمّاخ) فقتله بالسم، وترك زوجته حاملاً. فقام راشد بمهمة الإمامة حتى وُلد إدريس الثاني – وتسمّيه الوثيقة (الياقوت الأحمر)– وبلغ إحدى أو إثني عشر سنة، فسُلّمت له الإمامة بإجماع المغاربة. ولكنه توفي مسموماً هو الآخر. وترك من بعده إثني عشر ولداً ذكراً وهم: (محمد وأحمد وعبد الله وعيسى وإدريس وجعفر ويحي وحمزة وعبد الله والقاسم وداوود وعمر)[1]. وكانت الولاية الأولى لمحمد الذي قسّم البلاد على إخوته بأمر من جدّته كَنزة. ويقول ابن عِذاري أنه أعطى للقاسم طنجة وما يليها، وأعطى لعمر صِنهاجة الهبط وغمارة، وأعطى لداوود هوارة تامْليت، وولّى عيسى ويحي وعبد الله بلاداً أخر[2]. وتقول الوثيقة – صدد الحديث – أنه أعطى لزين العابدين القيروان وطرابلس وأحوازهما، ولا ندري من الذي لُقّب بزين العابدين من بين الإخوة الثلاثة (عيسى ويحي وعبد الله) الذين ولاّهم محمّدٌ بلاداً أخرى على ذكر ابن عِذاري. أو أن تلك التولية كانت في عهد يحي بن محمد بن إدريس الذي قام هو الآخر بتولية أعمامه وأخواله. ويُذكر أن إدريس الأول لم يأتِ المغرب

---

[1] تكرر اسم عبد الله مرتين، هكذا ورد في: ابن عِذاري: نفس المصدر، ص211، وفي رواية أخرى لم يتكرر إسم (عبدالله) وذُكر (عمران) و(علي) ولم يُذكر (إدريس)، والواقع أننا لم نسمع بإدريس بن إدريس بن إدريس (ثلاثاً) في نسب الأدارسة المعروف عند معظم المؤرخين.

[2] ابن عِذاري، نفس المصدر، نفس الصفحة.

لوحده، بل لحق به أخوه سليمان الذي استقر بتلمسان، وكذلك ابن عمهما (داوود بن القاسم بن اسحاق بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب) الذي عاد إلى المشرق تاركاً ذريته بالمغرب[1]. وكان للعائلة العلوية الهاشمية الشريفة تواجد عظيم على طول المغرب العربي وعرضه، فانبثقت منهم سلالات شتى. وتتفق هذه الوثيقة مع عدة مصادر تاريخية ذكرت تأسيس الدولة الإدريسية في المغرب الأقصى. وقد تعرضت هذه الوثيقة لتلك السلالات والتي كان من بينها تنسيب الولي الصالح (سيدي محمد أبو صاع) إلى إحداها، فتُرجعه إلى نسل إدريس بن إدريس بن عبد الله بن حسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب وفاطمة الزهراء بنت رسول الله (صلى الله عليه وسلّم).

أما أبناء (امحمد بو صاع) المباشرون فتقول الوثيقة أنهم كانوا سبعة، وهم: (زيد، امعلّة، ناجي المهير، محمد بو دخان، المشري أو المشرد ، سلام، الهميل)، ومن هؤلاء الأبناء السبعة لا يتضح غير أربع قبائل معروفة إلى الآن وهي: أولاد امحمّد (نسبة إلى جدهم محمد بو دخان) وأولاد سلاّم (نسبة إلى جدهم سلاّم) والهمايلة (نسبة إلى جدهم الهميل) وأولاد شرّادة (نسبة إلى جدّهم الشرّاد أو المشرد أو المشري). أما الابن المسمى (زيد) فلا بد أن تكون له علاقة ما بالمكان الذي يسمى حالياً (سيدي أبو زيد) الواقعة بين القيروان ومكناسي بالوسط التونسي (جنوب سبيبة أين يقع ضريح سيدي امحمد بو صاع)، وهي المنطقة التي وقعت ضمن إمارة (زين العابدين) حسب الوثيقة التي تقول بأن أخاه ولاّه القيروان وطرابلس وأحوازهما. وتسمية هذه المنطقة بـ(سيدي بو زيد) ربما تعود إلى اسم

---

[1] ابن عِذاري، نفس المصدر، ص211.

الولي الصالح (امحمد أبو صاع) نفسه باعتباره الأب المباشر لزيد (أكبر أبنائه السبعة). ولم تذكر الوثيقة (محمد الكوني) على أنه الابن الأول، وربما الوحيد للولي (امحمد بو صاع) كما ذكرت الرواية الشفوية الشعبية، ولكنها ذكرت نسب صاحب الوثيقة (سيدي عثمان بن الحاج بن نصر) وانتهت بنسبه إلى (سلاّم بن عثمان بن خليفة بن محمد الكوني). وفي هذه الحالة فلا يكون (سلاّم) الابن المباشر للولي (امحمد بو صاع) بل هو حفيد حفيده. وهذه واحدة من التناقضات الواضحة بين الوثيقة المكتوبة والرواية الشفوية المتواترة. مع العلم أن (عثمان بن خليفة) أبا سلاّم هو جد قبيلة أولاد سلاّم مدفون حالياً بزلطن (أولاد خويلد) الواقعة على الطريق الساحلي بين زوارة وأبي كمّاش.

وبعد اطلاعنا على شجرة نسب الولي الصالح (سيدي أبوغرارة) وُجد بها اسم (سلاّم) الذي قارنه البعض بـ(سلاّم) المذكور بحجة (سيدي امحمد أبو صاع)، واستنتج من ذلك أن (سيدي أبو غرارة) أخو (سيدي امحمد أبو صاع)، وسيدي (أبو غرارة) هو جد الغرارات بسوق الجمعة بطرابلس وغيرها، دفين منطقة مارث الواقعة بين مدنين وقابس بالقطر التونسي. بذا يكون (أبو صاع وأبو غرارة) ينتسبان إلى (عبد الله بن إدريس بن إدريس) الذي كلّفه أخوه (محمد) بولاية القيروان وطرابلس وأحوازهما، وتسميه الوثيقة (زين العابدين). ولكن (أبو غرارة) لقب أو كنية وليس اسماً، يقابله (أبو صاع) كلقب أو كنية للشيخ امحمد. فما اسم سيدي أبو غرارة الحقيقي يا ترى؟ ويسميه البعض (سلام أبو غرارة).

ملاحظة: وعن علاقة الصيعان بالأدارسة، يذكر دي أوغستيني في كتابه سكّان ليبيا أنه من بين صيعان ورفلّة لحمة يقال لهم: الدرايسية (ربما نسبة لإدريس).

أبناء (محمد أبو صاع) بين هذه الحُجّة والرواية الشعبية:

أ- تقول الرواية الشفوية أن (سيدي امحمد بو صاع) تزوج امرأة من أولاد عوين، وأنجب منها (الكوني) كما سبق الذكر، وهو الجد الثاني لكل الصيعان. وورد في ذيل هذه الوثيقة اسم (سيدي عثمان بن خليفة) جد أولاد سلاّم دفين زلطن أنه (عثمان بن خليفة بن محمد الكوني)، والفرق بين ذيل الوثيقة والرواية الشعبية الشفوية أن الأولى ذكرت الكوني كنيةً لمحمّد وليس اسماً له. ويقول أحمد الشرّادي في قصيدة له: (ذرية الكوني شغلوني) ويقصد الصيعان إجمالاً. وتضيف الرواية الشفوية أن خليفة هو أحد أحفاد الكوني البعيدين، بينما تقرّه خاتمة الوثيقة ابناً مباشراً للكوني. ويتفق كلاهما على أن خليفة أنجب عثمان وهو جد أولاد سلاّم (سيدي عثمان بن خليفة) دفين زلطن كما ذُكر.

ب- تقول الرواية الشفوية أن إحدى نساء خليفة كانت نفزاوية من توّات تدعى (شرّادة) فسميت بها قبيلة أولاد شرّادة تبركاً بجدها (سيدي حامد) جد الحوامد. بينما لا تذكر ذلك الوثيقة التي تقول أن للشيخ (سيدي محمد) ذرية في الجوف، ومن أبنائه سلاّم وذريته أولاد سلاّم، ومحمود الهميل وذريته الهمايلة وأولاد شرادة وبعضهم في الجوش، وتقفز الوثيقة ثانيةً إلى سيدي سلاّم وتقول أنه عقّب سيدي محمد وذريته أولاد محمّد. وتعود الرواية الشفوية فتشير إلى أن زوجة خليفة الثانية

كانت صويعية، وأنها أنجبت عثمان وبلقاسم ومنهما جاء أولاد سلاّم وأولاد امحمّد ولا تذكر الهمايلة الذين أرجعتهم الوثيقة إلى محمود الهميل. أما أولاد شرّادة فتقول الرواية أنهم ينتمون إلى جدّتهم النفزاوية (التوّاتية) كما ذُكر. ويقول البعض أن (شرادة) ابنة سيدي (حامد)، وأن سيدي حامد هو الجد الأعلى للحوامد، بذا يكون الصيعان من أولاد شرادة أخوال الحوامد، مما يؤكد أيلولة القبائل الليبية في المنطقة الغربية إلى أصول شريفة واحدة.

ج- لم تذكر الوثيقة جد أولاد شرادة صراحة مثلما فعلت الرواية الشفوية التي أرجعت جدتهم إلى سيدي حامد بنفزاوة. وهذا الأمر المحير قد يثير أمامنا قضية أخرى، وهي هل سمي أولاد شرادة والهمايلة بأسماء أمهاتهم (شرادة وهميلة) حقيقة، أو أن أصل تلك الأسماء ذكوراً (شراد وهميل)؟ وللإجابة عن هذا السؤال يقول الهمايلة أن أمهم (هميلة) هي إحدى بنات (سيدي امحمد بو صاع)، وهذا ما ذكره (دي أوغستيني) في كتابه (سكان ليبيا)[1]، بينما تفنّد الوثيقة المذكورة ذلك وتقول أن جد الهمايلة هو (محمود الهميل)، وفي هذه الحالة يكون (الهميل) كناية لمحمود وليس اسماً له. وفي كلا الحالتين يمكن أن يكون أصل الاسم (هميل أو هميلة) لأن هذه الصفة قابلة للتأنيث والتذكير، وكذلك الحال بالنسبة لـ(شرّاد أو شرّادة). إلاّ أن اسم (شرّاد) بصيغة التذكير لم يرد في أي من الرواية الشفوية ولا في الوثيقة، ولكنه يرد مؤنثاً عند ذكر القبيلة عموماً (أولاد شرّادة).

وتبعاً للوثيقة نعتقد أن محمود الهميل كانت له زوجة اسمها (شرّادة) فسمي أبناؤها بها، لأن الوثيقة تقول حرفياً في هذا الخصوص: (..وعقّب ذريته

---

[1] دي أوعستيني، نفس المصدر، ص421.

أولاد محمود الهميل عقّب ذريته الهمايل وأولاد شرادة) وواو العطف هنا عطفت أولاد شرادة على الهمايل كما لو كانوا جميعاً ذرية محمود الهميل. ونلاحظ أن كاتب هذه الوثيقة يُهمل غالباً حروف النسبة والمد والتأنيث في آخر الكلمات، مثل: (ناج = ناجي) و(العدنان = العدناني) و(قمّود = قمّودة) و(الهمايل = الهمايلة) و(قبيل = قبيلة)..

أما (دي أوغستيني) فيُرجع شرّادة وهميلة إلى كونهما زوجتي (امحمد بو صاع) وليستا بنتيه، فسمي الولدان (خليفة وعبد الناصر) باسمي أمهاتهما، وهما من أبناء (امحمد بو صاع) وإخوة سلام وامحمد. ولا ندري سبب تسمية الولديْن باسم أمهما دون أبيهما الولي الصالح. وفي هذه الحالة تكون الرواية الشفوية التي تُرجع أولاد شرّادة إلى أمهم شرّادة بنت سيدي حامد وزوجة خليفة بن محمد الكوني هي الأقرب للحقيقة لأن شرّادة بنت ولي صالح أكثر شهرةً من خليفة زوجها في ذاك الزمان البعيد عن زمان جده سيدي (امحمد بو صاع) الذي لا يمكن أن يسمي أبناءه بأسماء زوجاته في حضرته.

ملاحظة: لكن ما حقيقة اشتقاق هذه الأسماء من صفتي (الهملة والتشرد) السلبيتين؟

نرى أنها بسبب الاعتقاد الذي كان سائداً لدى عامة الناس في أن الصالحين أناس زاهدون للحياة وضاربون متاع الدنيا عرض الحائط وجانحون للعزلة والانفراد والتوحش في البراري والبوادي والاعتكاف في مغارات الجبال، فتنطبق عليهم كل هذه الصفات: الهامل والشارد

والسايح والطايش والرّاحل والدرويش والبهلول والمهبول.. ولعل لفظ (المرابط) الشعبي يختزل كل تلك الصفات. وقد اعتاد العامّة على أن المرابط محاطٌ بهالة من القدسية الربّانية، ويرون أن أقواله وأفعاله محكومةٌ بأوامر إلهية، فلا يعترضون طريقه ولا يرفضون طلبه ولا يهملون تنبؤاته الغامضة عادة، بل يقومون بتحليل سلوكه ومن ثم القبول بنتائجها المجرّبة من قبل السابقين. وإذا وافته المنية يدفنونه بوقار ويقيمون له الولائم ويقدّمون عند ضريحه القرابين ويتبرّكون بجاهه عند الله ويطمعون في بركاته حتى بعد مرور مئات السنين عن وفاته، حيث تسري البركة في أبنائه وأحفاده!

تاريخ ومكان نسخ هذه الحُجّة:

أرِّخت حُجة نسب سيدي امحمد بو صاع في سنة **6101** للهجرة، **6051** للميلاد. أي في صميم الحكم العثماني الثاني لولاية طرابلس الغرب، وهي الفترة التي نشطت فيها حركة الذهاب والإياب بين مناطق سهل الجفارة (أي بين ليبيا وتونس) من قبل قبائل بدو المنطقة الغربية كالصيعان والنوايل وغيرهم، وذلك بسبب اضطهاد عمّال الباشوات العثمانيين لهم وإجبارهم على دفع الضرائب حتى وإن كان الوقت قحطاً. وهذه الوثيقة كُتبت في منطقة (الأعراض)، بني يزيد، ببلدة (الحامّة) الواقعة في أقصى شمال سهل الجفارة غربي مدينة قابس، وهي في قلب المناطق التي يدّعي الصيعان أن لهم فيها مراعٍ وآبار وغابات، أي أن لهم فيها تواجد منذ القديم بحكم وقوعها على الطريق المؤدي إلى ضريح جدّهم بسبيبة، أو فيما سبق وأن أسميناه تجاوزاً برحلتي الشتاء والصيف.

يبدو أن هذه الحُجّة كانت قد نُسخت أساساً لصالح الوافد (القادم) من أرض الصيعان إلى الحامّة (سيدي عثمان بن الحاج بن نصر بن نصر بن عبد الله بن حامد بن سلاّم بن عثمان بن خليفة بن محمد الكوني)، وهو من قبيلة أولاد سلاّم. ويُعتبر عثمان بن الحاج -في هذا الحالة- من التوّاقين لمعرفة أصوله وتحديد أسماء أجداده وملاحقة العارفين بالأنساب أينما وجدوا، وربما يكون هو أيضاً عارفاً لبعض التفاصيل، إذ يبدو أنه ساهم في إثراء هذه الوثيقة ببعض المعلومات. ويذكر ناسخُ الحُجّة أنها نُسخت سنة 6101 هـ. وهي مأخوذة من أصل سابق لها بـ488 سنة، ولعلّه يقصد حجة الولي الصالح سيدي محمد أبو صاع، المأخوذة أصلاً من وثيقة نسب إدريس الأول السابقة لها بـ588 سنة. وهذا يعني أن حُجّة محمد أبو صاع الأصلية أُخذت عن حُجّة نسب إدريس الأول سنة 001 هـ. أي (6101 – 488 سنة = 001). وأن حُجة نسب إدريس الأول كُتبت سنة 601 هـ. أي (001 – 588 = 601)، أي مباشرة بعد وفاته وتولي ابنه إدريس الثاني الإمامة، ثم تولي أحفاده الإثنى عشر شؤون المغرب العربي بأسره، من فاس إلى طرابلس الغرب، حيث كان بداية تأسيس دولة الأدارسة سنة 651 هـ. أي أن الوثيقة الأولى كُتبت خلال العشرين سنة اللاحقة لتأسيس دولة الأدارسة، مما يُضفي شيئاً من المصداقية على هذه الحُجّة قيد الحديث. وتتوافق هذه التواريخ الواردة في الوثيقة مع تواريخ الأدارسة الواردة في كتب التاريخ. حيث كان تأسيس الدولة الإدريسية في المغرب الأقصى سنة 651 هـ. ووفاة إدريس الأول سنة 653 هـ. وولادة ابنه إدريس الثاني بعد شهرين من نفس السنة. ثم تنصيبه سنة 605 هـ. ووفاته وتولية ابنه محمد سنة 165 هـ. وتقسيم الأقاليم – من بينها القيروان وطرابلس وأحوازهما – على إخوته سنة 164 هـ. وفي نفس السنة بدأ الانشقاق

يدبّ بين الأخوة، فتعرّض الأدارسة جميعاً لمضايقة موسى بن أبي العافية الموالي للأمويين في الأندلس. وظل حالهم هكذا إلى أن قضى الفاطميون على دولتهم في أوائل القرن الرابع الهجري، فتفرّقوا بين الأندلس والمغرب الأدنى[1]. وفي سنة 010 هـ. سقطت آخر معاقل المسلمين في يد الفرنجة، ازدادت بعدها هجرة المرابطين والأشراف وأولياء الله الصالحين إلى الشرق حتى بلغوا العراق.

أما تواريخ الوثيقة: ففي سنة 601 هـ. كُتب نسبُ إدريس بن عبد الله، أي بعد 65 سنة من تأسيس الدولة الإدريسية. وفي سنة 001 هـ. كُتب نسبُ امحمد أبو صاع، أي قبل سقوط غرناطة بـ1 سنوات، وخلالها كثرت الهجرة العكسية نحو الشرق والتي بدأت في التكاثر مع بداية سقوط الإمارات الأندلسية بيد الفرنجة. وأعيد نسخ الوثيقة في سنة 6101 هـ. أي في زمن كثر فيه تحرك قبائل المنطقة الغربية إلى القطر التونسي هروباً من اضطهاد ولاة طرابلس الغرب مع بداية العهد العثماني الثاني (6058م) وتفشي الأوبية، وعلى إثر ثورة غومة المحمودي (توفي سنة 6154 هـ. 6030م) ضد الأتراك ونشاطه الجهادي المعروف في الجنوب التونسي، واختلاط القبائل العربية في حركة جهادية واحدة، خصوصاً بعد احتلال فرنسا لشمال تونس سنة 6111 هـ. (6006م). واستناداً على هذه التواريخ فإن تواجد قبائل الصيعان في سهل الجفارة المنقسم بين ليبيا وتونس الحاليتين يعود – على الأقل– إلى ما قبل كتابة حجة نسب جدهم الأولى التي أُرّخت بسنة 001 هجرية الموافقة لسنة 6404 ميلادية، وهو تاريخ يقع في خضم حركة تساقط دويلات الأندلس الواحدة تلوى الأخرى بيد الفرنجة، وهجرة علماء الأشراف

---

[1] ذُكرت هذه التواريخ في العديد من المصادر، من بينها: البرغوثي في **تاريخ ليبيا الإسلامي**، ص ص177-181. وابن عِذاري في **البيان المُغرب**، ص214.

والمرابطين وأولياء الله الصالحين عبر طرق القوافل الصحراوية إلى الشرق، وبداية تكوين القبائل العربية في أقطار المغرب العربي المعروفة حالياً بالمغرب الأقصى وموريتانيا والجزائر وتونس وليبيا، وربما وصلوا أيضاً إلى مصر والشام والعراق.

ملاحظة: توّات والتوّاتية في التراث العقائدي لقبائل الصيعان:

*يُكثر الصيعان من استعمال اسم (التواتي)، خصوصاً في قبيلتي (أولاد شرّادة وأولاد امحمد) التي تحمل بعضُ لحماتهما -إلى جانب أسماء الأشخاص- كنية (التواتي). ويقول الرواة الشعبيون أن (سيدي خليفة) وهو أحد أحفاد (سيدي امحمد أبو صاع) تزوّج امرأة توّاتية من نفزاوة، وهي (شرّادة بنت سيدي حامد) وأنجب منها (أولاد شرّادة)، وسمّوا باسمها تبرّكاً بأبيها الولي الصالح. ومن هنا تتضح قدسية هذا الاسم واحترام الصيعان له لأنه يحمل -حسب اعتقادهم- كثيراً من البركة. وتوّات هذه منطقة واحات تقع حالياً ضمن ولاية أدرار بالصحراء الجزائرية (على طريق القوافل الواقعة بين المغرب الأقصى والحدود المشتركة بين تونس وليبيا حالياً). فتحها عقبة بن نافع سنة **41** هـ. ولكن أهلها ارتدّوا وعادوا إلى النصرانية، إلى أن اعتنقوا الإسلام نهائياً إثر حملة حسّان بن النعمان سنة **01** هـ. وأقدم مسجد بها يوجد بقصر (تيلوت) بمدينة العلم والعلماء (تمنطيط) ويحمل تاريخ **681** هـ*[1]*. (**513**م). وبما أن بها مدينة العلم والعلماء كانت مقصد الأدارسة، حيث توافدوا إليها*

[1] موقع (توّات) الإلكتروني.

بكثافة سواءً أكان ذلك إثر تولية محمد بن إدريس الأصغر لإخوته بالمغرب الأدنى، أو إثر مضايقتهم من قبل الدولة الأموية بالأندلس (من الغرب) والدولة الفاطمية بالمهدية (من الشرق)، فكانت الواحات الصحراوية ملجأً آمناً لهم، فوصلوا عبر توّات إلى المناطق النفزاوية بالجنوب التونسي (حالياً) من بينها مدينة (سبيبة)، وسكنوا سهل الجفارة بالغرب الليبي (حالياً) من بينها مدينة (تيجي). فشكّلوا في هذه المناطق السلالات الشريفة. ولا نعتقد أن الولي الصالح (سيدي امحمد أبوصاع) كان قد وُلد في الساقية الحمراء ووادي الذهب بالمغرب الأقصى كما يردد البعض، وإنما هو سليل الشرفاء القادمين من هناك.

وكل من يحمل اسم (تواتي) ليس بالضرورة أن يكون توّاتي الأصل، وإنما يحمله تيمّناً وتبرّكاً برجال توّات المباركين، تماماً كما تسمي قبائل المنطقة أبناءها بـ(الصويعي) تيمّناً وتبرّكاً بالولي الصالح (سيدي امحمد أبو صاع). ويبدو أن المرابطين وأولياء الله الصالحين من الأشراف كانوا يهاجرون شرقاً من المغرب الأقصى عبر الواحات الواقعة على طول طرق القوافل الصحراوية في الجنوب بعيداً عن الخط الجبلي الساحلي في الشمال، بذا تكون تلك الواحات مقراً لسكناهم ونهايةً لاستقرارهم مثل ساجلماسة بجنوب المغرب وواحات توات بجنوب الجزائر وواحات الجريد ونفزاوة بجنوب تونس وواحات غدامس وغات والجفرة وغيرها بجنوب ليبيا، وهكذا.. وكل من ينتسب لهذه الواحات يكون مصدرَ فقه وعلم بحكم قدومه من الأندلس بؤرة الحضارة العربية الإسلامية، وبالتالي

يكون شريفاً ووليّاً صالحاً ومباركاً بحكم انتمائه للأسر الشريفة من الأدارسة الذين كانوا يحكمون المغرب الأقصى.

أما مسألة البداوة التي تتضح معالمها عند قبائل الصيعان في طرق العيش كالتنقل والترحال وضرب بيوت الشعر السوداء وتربية الغنم والإبل، وكذلك العادات والتقاليد والتصرفات واستخدام اللهجات البدوية الخالصة.. فهي من إفرازات مرحلة فرضت على الجميع التأثّر بأساليب وطرق العيش التي جاء بها عربُ بني سُليم وبني هلال من قلب الجزيرة العربية، حيث يقال أن تلك القبائل ساهمت بقدر كبير في تعريب كافة أنحاء المغرب العربي.

1-وثيقة النسب الشريف الصادرة عن الرابطة العالمية للأشراف:

في أعقاب سنة 1868، زار الأخ/ أبوصاع امحمد ابْسَيْسَّة المغرب الأقصى، وهو من قبيلة أولاد سلام إحدى قبائل الصيعان، وقُبل كعضو فاعل في الرابطة العالمية للأشراف، وعند عودته إلى طرابلس جاء بوثيقة معنونة بـ(النسب الشريف) الصادرة عن الرابطة العالمية للأشراف بالمغرب الأقصى تحتوي على نسب سيدي امحمد أبي صاع وانتمائه للبيت النبوي الشريف، جاء فيها حرفياً[1]:

"هذه شجرة نسب الشريف الحسيب النسيب الولي الصالح والقطب الواضح الشيخ سيدي امحمد أبي صاع (الجد الجامع للسادة الأشراف الصيعان وفروعهم) وهو ابن سيدي محمد بن عبد الله بن علي بن أحمد بن آفق بن إدريس بن محمد بن سالم بن عبد الله بن منصور بن علي بن إبراهيم بن فرج بن علي بن محمد بن عمار بن أبي القاسم بن عبد الواحد بن محمد بن عمر بن أحمد بن علي بن عمار

[1] ناقل هذه الوثيقة: أبوصاع امحمد ابْسَيْسة

بن إبراهيم بن علي بن محمد بن إبراهيم بن الأمير مولاي عبد الله الملقب بالمخلص ابن مولانا الخليفة الإمام إدريس الأزهر باني فاس بن مولانا الإمام إدريس الأكبر المبايع له بالخلافة بالمغرب سنة **651** هجرية ابن الإمام مولاي عبد الله الكامل إمام المدينة المنورة على ساكنها أفضل الصلوات وأزكى السلام والمسمى بالمحض والخالص لكونه أول مولود حسني من أم حسينية وهو ابن مولانا الإمام الحسن المثنى بن مولانا الإمام الحسن السبط ريحانة الرسول وسيد شباب أهل الجنة وحليم آل البيت ابن مولانا أسد الله الغالب الإمام أمير المؤمنين الخليفة سيدنا علي بن أبي طالب وأميرتنا ومولاتنا فاطمة الزهراء بضعة الرسول وسيدة نساء أهل الجنة بنت رسول رب العالمين وإمام المرسلين وقائد الغر المحجلين حبيبنا ومولانا وقائدنا محمد بن عبد الله صلى الله عليه وعلى آله الطيبين الطاهرين وسلم تسليما إلى يوم الدين وشرف وكرم وعظم ومجد –آمين– نقلها الشريف أبو صاع ابسيسة. وممهورة بتوقيعات وأختام الرابطة العامة للأشراف".

التحليل:

في ما يتعلق بنسب عبد الله بن إدريس الأصغر الذي ينتهي إلى البيت النبوي الشرف تتفق مادة هذه الوثيقة مع السرد الذي جاءت به بعض كتب التاريخ، من أن عبد الله أخا الخليفة محمد بن إدريس الأصغر بن إدريس الأكبر جاء إلى المغرب الأدنى والياً على القيروان وطرابلس، وهو حسب هذه الوثيقة الجد الأكبر للولي الصالح سيدي امحمد أبي صاع. ولعل في هذه المعلومة تأكيد

على أن امحمد أباصاع من مواليد المنطقة الواقعة ما بين طرابلس والقيروان، وهي حدود ولاية جده عبد الله بن إدريس بن إدريس، وليس كما جاء في بعض الروايات من أنه قادم من الساقية الحمراء ووادي الذهب أو من المغرب الأقصى مباشرة. وفي حال تصديق الرواية الأخيرة يكون من المحتمل رجوع ذرية عبد الله بن إدريس والي طرابلس والقيروان إلى المغرب الأقصى تحت أي ظرف سياسي خصوصاً بعد تولي الفاطميين حكم البلاد. ولعل تأثر المنطقة الواقعة بين طرابلس والقيروان بالعادات الشيعية يكون أقرب للفاطميين من الأدارسة بحكم القرب الزمني من الفاطميين وتشبثهم بالمذهب الشيعي وفرضه على محكوميهم، بينما يكون مذهب الأدارسة أقرب إلى السنة من الشيعة ربما بحكم اعتناق المغاربة المذهب الإباضي الأقرب للسنة من الشيعة.

تبقى أمامنا مسألة الأحفاد – أو الأجداد – السبعة والعشرين بين عبد الله بن إدريس والي طرابلس والقيروان، من جهة، والولي الصالح سيدي امحمد أبي صاع دفين سبيبة، من جهة ثانية. ما هي المصادر التي استقت منها هذه الوثيقة أسماء هؤلاء الأحفاد السبعة والعشرين؟ ومتى وأين وُلدوا؟ وأين ترعرعوا وعاشوا؟ وعلى أي المصادر اعتمد تسلسل هذه الأنساب إلى أن وصلت إلى سيدي امحمد أبي صاع؟ ومن هم أبناء وأحفاد هذا الولي الصالح الذين تكونت منهم قبائل الصيعان الأربع؟.. فإلى حد الآن لازلنا نعتمد على ما ذكرته حجة النسب سابقة الذكر التي ذكرت أبناء سيدي امحمد أبي صاع بشيء من الازدواجية وصعوبة التحديد، وكذلك ما يتواتر على ألسنة كبار السن من الصيعان رغم الاختلافات الجوهرية في تحديد الأبناء الأربعة والقبائل المنتمية إليهم، وكذلك

على وثيقة النسب الشريف التي أصدرتها الرابطة العالمية للأشراف والتي زودتنا بهذا التسلسل المنسّق بين إدريس الأول وسيدي امحمد أبي صاع. لذا يكون البحث في هذا الأمر عصياً على الدارس في غياب الوثائق الحاسمة له.

هذه الوثيقة – صدد التحليل –، قد تضفي عليها أختام واعترافات الرابطة العامة للأشراف شيئاً من المصداقية التي ترضى النفس البشرية أكثر من منهجية البحث العلمي، ولكنها – ومثيلاتها – تفرض نفسها على الباحث والدارس لمثل هذه المواضيع، وتبقى على درجة عالية من الأهمية ما دامت وحدها البارزة في هذا المضمار.

ثانياً= التدوين المكتوب من خلال الوثائق التاريخية:

معظم الوثائق التاريخية التي ذكرت الصيعان تعود إلى فترات معينة من العهد العثماني الثاني، ولم نصادف ما يعود تاريخه إلى ما قبل ذلك. وهذه عينات منها:

6–الوثيقة الأولى:

كنت في بداية ثمانينيات القرن الماضي أبحث في تاريخ الصحافة والطباعة الليبية بدار الوثائق التاريخية بالسراي الحمراء بطرابلس، فعثرت بالصدفة على وثيقة لا علاقة لها بالصحافة والطباعة، إذ كانت مخطوطة باللغة التركية (بخط الرقعة العثماني القديم)، ومثبت بها قصاصة من الورق الحديث بها ملخص الوثيقة باللغة العربية وبالحرف العربي، وكانت الدولة الليبية قد استقدمت أحد المترجمين

الأتراك المتخرجين من جامعة إسطنبول درس الحرف العربي الذي كان معتمداً دون غيره في الإدارة العثمانية قبل استبداله بالحرف اللاتيني من قبل مصطفى كمال أتاتورك عقب ثورة الاتحاد والترقي على السلطان عبد الحميد الثاني وبناء تركيا الجديدة. وقد لفت انتباهي كلمة (الصيعان) في ذاك الملخص، فتأكدت على التو من أن تلك الوثيقة كانت عبارة عن تعهد قبائل الصيعان بعدم مغادرة أراضيهم بأيالة طرابلس والتوقف عن الخروج المزاجي إلى الأراضي التونسية. وكان الدافع من وراء تلك الوثيقة هو ضمان جباية ضرائب (الميري) من الرعايا العثمانيين، خصوصاً وأن الصيعان من أكبر الملاك للحيوانات بالمنطقة الغربية لأيالة طرابلس الغرب. ولم أتمكن من تصوير تلك الوثيقة نظراً للعطب الذي أصاب آلة التصوير الضوئية يومها، ثم فشلت في العثور عليها مرة أخرى بسبب فوضى الوثائق غير المصنّفة وقتها.

1-الوثيقة الثانية:

وفي السياق نفسه وُجدت وثيقة أخرى تعود إلى سنة 6044م تتضمن التزام قبائل الصيعان والنوايل بعدم المغادرة إلى تونس، وتفرض عليهم حكومة الولاية دفع الضرائب المقررة عليهم، أو ربما هي غرامة عن مخالفة قوانين الحكومة فيما يتعلّق بالخروج إلى تونس. وبما أن الإدارة العثمانية كانت في مواجهة مع الشيخ غومة المحمودي فقد ألزمت تلك القبائل بعدم حماية الفارين من الجيش العثماني والثائرين عليها والهاربين منها وتفرض عليهم ضريبة مترتبة على ذلك. وقد نشر الأستاذ محمد أحمد الطوير في كتابه (مقاومة الشيخ غومة

للحكم العثماني بإيالة طرابلس)[1] وثيقة يظهر عليها قبول الصيعان بدفع القسط الأول من تلك الضريبة والتعهد بتقديم عدداً من رؤساء قبائلهم كرهائن لدى حكومة ولاية طرابلس الغرب إلى حين استكمال دفع بقية أقساط الضريبة.

5-الوثيقة الثالثة:

إشارات أخرى أوردها الأستاذ أحمد صدقي الديجاني في كتابه (ليبيا قبل الاحتلال الإيطالي)[2] تحدث فيها عن مضايقة فرنسا – عن طريق ورغمة – لقبائل الصيعان، ومحاولة ترسيم الحدود بين البلدين على حساب أرضهم، وعدم سماع ولاية طرابلس لنداءاتهم المتكررة. أما الحاج عبد السلام أدهم في كتابه (وثائق تاريخ ليبيا الحديث، الوثائق العثمانية 6006-6166)[3] فيضيف أن الإدارة العثمانية تفطنت أخيراً للخطر الفرنسي، فقامت بتشكيل قائمقامية من الصيعان والنوايل ليكونوا حراساً يحمون الحدود من ورغمة المشجّعة من قبل فرنسا، وأطلق عليها اسم (قضاء نجاد) تكريماً لابن رجب باشا.

4-الوثيقة الرابعة:

وهي التي نشرها الدكتور إبراهيم أحمد أبو القاسم في ملحق الوثائق لكتابه (المهاجرون الليبيون بالبلاد التونسية)[4] دون التعرض لها ضمن متن الكتاب. وهذه الوثيقة حتى وإن كانت مؤرخة بسنة (6556هـ. 6165م) أي في بداية الاحتلال

---

[1] **الطوير**، محمد امحمد: **مقاومة الشيخ غومة المحمودي للحكم العثماني بإيالة طرابلس (6053-6030)**، ط؟، 1988، منشورات مركز دراسة جهاد الليبيين ضد الغزو الإيطالي، طرابلس/ ليبيا، ص ص67،66. أنظر نص الوثيقة المؤيدة لذلك بالملحق.

[2] **الديجاني**، أحمد صدقي، **ليبيا قبل الاحتلال الإيطالي أو طرابلس في آخر العهد العثماني الثاني**، ؟، 1971، القاهرة، ص229.

[3] أنظر: العلاوي، **نفس المصدر**، ص112و113.

[4] **أبو القاسم**، **مصدر سابق**، ص225،224.

الإيطالي لليبيا، إلاّ أنها متأثرة بعلاقة الصيعان بالحكومتين العثمانية والفرنسية منذ عقود سابقة لتلك السنة. والدليل أن مشايخ قبيلة أولاد سلاّم الموقّعين على الوثيقة طالبوا حكومة تونس الفرنسية (الحامي والمحمية) أن تعيد إليهم أراضيهم بورغمة ونفزاوة، والتي امتلكوها في السابق.

3-الوثيقة الخامسة:

رسالة من السيد (سليمان الباروني) نائب الجبل الغربي في البرلمان العثماني مؤرخة بـ 13 كانون الثاني 6513 هـ الموافق لـ 68 فبراير 6168 م، ترجمها عن التركية المرحوم (محمد الأسطى)، ناولني صورة منها الأستاذ (التواتي قمبي)، يروي فيها كاتبها ما كانت تقوم به السلطات العسكرية الفرنسية من تطاول واستفزاز ضد أهالي المناطق الطرابلسية وضم أراضيهم إلى القطر التونسي بما فيها بنقردان والذهيبة وغيرها، وتحريض بعض قبائل ورغمة لمساعدتهم على ذلك.. أما أراضي الصيعان فقد احتلت فرنسا جزءاً مهم منها وهي المشهورة بـ(قرُع الصيعان)، إذ يقول الشيخ الباروني كاتب التقرير: *"تقع قرُع الصيعان في الجهة الشرقية من ذهيبة، وتُنسب هذه الأرض لقبائل الصيعان من القديم، وتجبي أعشَارها حكومتُنا، ولكن بعد احتلال الفرنسيين لذهيبة طردوا قبائل الصيعان من قرُع الصيعان والأراضي التي حولها وأنشأوا فيها أبنية حكومية لهم"* . وفي اجتماع انعقد في زوارة بموافقة باشا طرابلس وباي تونس قدّم خلاله *"النوايل والصيعان ونالوت"* كل *"الوثائق والمستندات والحجج الشرعية والوقفيات"* التي تؤكد أن (وادي العشوش) هو آخر الخطوط الفاصلة المتفق عليها مؤخراً بين القطرين، إلا

أنه بسبب تراخي وتساهل الوفد الطرابلسي انتهت المفاوضات على اعتبار *"الأراضي التي بين وادي العشوش وأم الفار أراض محايدة"* .

التحليل:

-الوثيقتان الأولى والثانية تشيران إلى تشبث الصيعان بحرية الحركة والتنقل. وكان لذلك دوافع عديدة وهي في – مجملها – لا تنضوي تحت المفهوم الحرفي والإداري لمصطلح (الهجرة)، وإنما كانت – بالنسبة لهم – حركة عفوية تفرضها عليهم ظروفهم المعيشية التي قد تتعارض مع النظم الرسمية المفروضة من قبل الحكومات آنذاك. ويمكننا تلخيص تلك الأسباب في الآتي:

أولا: الصيعان من قبائل البدو الرحّل التي لا تستقر في مكان، فلا يقومون ببناء المساكن، ولا يتعاطون بغير عمليتي الحلّ والترحال دون قيود.

ثانيا: وعلاوة على كونهم من البدو الرحّل فهم أيضاً مرابطون يتحرّكون ببركة جدّهم (سيدي امحمد أبو صاع)! ومن سوء حظهم أن ضريح جدّهم كان بعيداً عنهم، فيضطرون – بين الحين والآخر – لزيارته رغم القيود الإدارية. علاوة على معرفتهم بأن أجدادهم الأوائل كانوا من ضمن المهاجرين من المغرب الأقصى، فتتولّد لديهم الرغبة في الهجرة العكسية إلى المغرب. لذا، تكون وجهتهم غالباً إلى الغرب، إلى سبيبة، في الوسط الغربي للقطر التونسي.

ثالثا: يقال أيضاً أن بعض الصيعان، ولعلهم أولاد سلاّم، يقصدون دائما مدينة باجة في أقصى شمال القطر التونسي، بقصد بيع إبلهم وشراء كميات من القمح الممتاز المشهورة به تلك المنطقة، حتى غدت باجة سوقاً للصيعان.

رابعا: الظروف المناخية التي تصيب أحياناً أراضيهم بالجدب والجفاف، فيضطرون للتحول إلى أماكن أكثر خصوبة ووفرة لوسائل العيش. وهذه العملية متبادلة بين قبائل المنطقة.

خامسا: الظروف السياسية، حيث تفسد علاقة الصيعان أحياناً بحكومة ولاية طرابلس الغرب العثمانية. ويتمثل ذلك في أهم أمرين، أولهما: فرض الضرائب الباهضة خصوصاً في أوقات الجفاف، فقد تتطور عملية الجباية إلى العقاب الجسدي واستخدام القسوة ضد الأهالي من قبل موظفي الدولة. أما الأمر الثاني: فمتمثل في استخدام الصيعان كحرّاس لحدود الأيالة وإقحامهم في الصراع السياسي بين الحكومتين التركية والفرنسية، وهو أمر لا ناقة للصيعان فيه ولا جمل.

سادسا: وفوق هذا وذاك، هناك مصاهرة قديمة بين أجداد الصيعان الأوائل وبعض القبائل العربية في تونس، إذ يقال أن (امحمد أبو صاع) تزوج امرأة من أولاد عوين وهم ربياعة من قبائل ورغمة. وكذلك فعل حفيده خليفة الذي تزوج امرأة من أبناء سيدي حامد من قبائل نفزاوة. وبالتالي فكل القبائل المنتشرة بين سهل الجفارة وسهل باجة، وهي قبائل (الجلاص والهمّامة والفراشيش وبني يزيد ونفزاوة والأعراض وورغمة والتوازين).. يستحسنون مجاورة الصيعان ويحترمون جدّهم (راقد سبيبة) وينتفعون ببركاته. علاوة على أن كل القبائل البدوية كانت تشكل

لوحدها الحدود بين ولايتي تونس وطرابلس الغرب. إلاّ أن الدولة العثمانية بدأت تهتم إدارياً بمسألة الحدود عقب أحداث متتالية كانت سبباً في بعض المتغيرات السياسية الخطيرة، وهي استيلاء فرنسا على الجزائر سنة 6058 وعلى تونس سنة 6006، واستيلاء بريطانيا على مصر سنة 6001، الشيء الذي جعل الدولة العثمانية تفكر جديّا في تخطيط حدود ولاية طرابلس الغرب مع كل من فرنسا غرباً وبريطانيا شرقاً وفقاً لمؤتمر برلين سنة 6003.

لم تصل القوات الفرنسية إلى الجنوب منذ بداية احتلالها لشمال تونس سنة 6006. إلاّ أنه عندما رأت خطورة المقاومة تلوح من طرابلس الغرب، بتشجيع من الدولة العثمانية والمؤتمر الإسلامي، قامت بالزحف رويداً رويداً نحو الجنوب بعد احتلال عاصمته صفاقس، وبدأت تستميل إليها بعضاً من قبائل ورغمة وتؤلبهم ضد الثوار الملتحمين بقبائل الصيعان والنوايل، إلى أن وقّعت فرنسا مع الدولة العثمانية في مدينة طرابلس اتفاقية ترسيم الحدود بين البلدين، وذلك يوم 6168/4/66، بعد تمهيد لذلك في السنة السابقة. فتوقفت تلك الحدود عند آخر نقطة وصل إليها الفرنسيون، وهي من البيبان بجرجيس شمالا، إلى الذهيبة بالرمادة جنوبا[1] بخط مستقيم استُخدمت فيه المسطرة دون مراعاة للعلاقات القبلية بين الأهالي ودون احترام لأملاكهم كالمراعي والآبار باعتبارهم من البدو الرحّل.

[1] **تشايجي**، عبد الرحمان: **الصراع التركي–الفرنسي في الصحراء الكبرى**، ترجمة: د. علي اعزازي، مراجعة: محمد الأسطى، تقديم: د. محمد الطاهر الجراري، ط؟، 1982، منشورات مركز دراسة جهاد الليبيين ضد الغزو الإيطالي، طرابلس/ ليبيا، ص233.

وبناءً على ما تقدّم، فالصيعان كانوا يرون أن الذهاب إلى تلك الأماكن لا يُعدّ هجرة كما تراها الإدارة العثمانية في ولاية طرابلس الغرب والإدارة الفرنسية في تونس، وإنما هي انتقال طبيعي جُبلوا عليه منذ أقدم العصور، أي منذ تشكل نواة قبائلهم الأولى. وهو إجراء بدوي قبلي اجتماعي إنساني بحث، لا علاقة له بالنظم الإدارية الرسمية. وقد ذكر لي الشيخ (بلقاسم بن زعيمة) أن قبيلة أولاد سلاّم كانوا – في يوم ما – يتقاسمون مع قبيلة أولاد شهيدة الأرض الواقعة بين الرمادة والذهيبة بالجنوب التونسي بالقرب من قرع الصيعان كما سبق الذكر، رافضين أوامر إدارة ولاية طرابلس الغرب بالتحول إلى وسط قضاء الحوض ليشملهم نظام جباية ضرائب الميري. وقد عبّر (عثمان بن بلقاسم البقري) عن ذاك الرفض بقصيدة شعرية طويلة، يقول من بين ما يقول فيها: (ما نخلّي منزلي وفلاتي.. كانش نخلّي قبلتي وصلاتي)، إلى أن يقول: (مسعود ومسيعيدة.. وجت قرعتي وقرعة اولاد شهيدة.. ونجيهم نواوي من بلاد بعيدة.. وعماهم نربّع زاهية قمراتي)، علماً بأن (مسعود ومسيعيدة) أماكن في المنطقة المذكورة. إلاّ أن الوثيقة التي نشرها الأستاذ الطوير المنوه عنها آنفا تشير إلى أن أولاد سلاّم عادوا إلى قضاء الحوض وقبلوا شروط الولاية وبدأوا بدفع الأقساط الضريبية المفروضة عليهم، وكان أحد أقارب (عثمان بقير بن زعيمة) – صاحب القصيدة – أحد الرهائن الستة الذين طلبتهم إدارة الولاية كضمان لاستكمال دفع بقية أقساط الضريبة.

–أما الوثيقة الثالثة التي تشير إلى مضايقة الحكومة الفرنسية المحتلة لتونس آنذاك، وذلك بواسطة تأليب قبائل ورغمة على الصيعان، فقد أشارت وثيقة أخرى

نشرها الحاج عبد السلام أدهم إلى أن ولاية طرابلس الغرب قامت بتشكيل قائمقامية من الصيعان والنوايل ليكونوا حرّاسا للحدود، سميت (قضاء نجاد) تكريماً لنجاد إبن رجب باشا. وكانت بعض أفراد من صبايحة ورغمة يغيرون على الصيعان حتى قالوا فيهم دعاءً: (ديرنّا همّة.. يا امحمد يا وافي كمّه.. جْعِلتْ دعانا في ورغمّة.. قمح وواتاته حصّادة). وتؤكد الرواية الشفوية تلك الأحداث، وتضيف أن قبائل ورغمة لم ينجرّ جميعهم وراء رغبات الحكومة الفرنسية في توسيع الحدود على حساب الصيعان والنوايل، بل أن كثيراً من ورغمّة هربوا من الاضطهاد الفرنسي والتجأوا للصيعان، وبدأوا يغيرون بدورهم على الفرنسيين المحتلين لأراضيهم. وأمام هذا الوضع قامت فرنسا بتكليف العميل الإيطالي (جوزيف ألليغرو) بتولّي شؤون منطقة الأعراض (وهي المنطقة القريبة من قابس)، فبذل قصارى جهده في إعادة اللاجئين (المجاهدين) التونسيين، إلى جانب مساعيه لتوسيع حدود تونس نحو طرابلس الغرب[1].

ويؤكد (عبد الرحمن تشايجي) في كتابه (الصراع التركي–الفرنسي في الصحراء الكبرى) أن فرنسا اضطرت لاحتلال (بر ورغمّة) لصد الهجمات المتوالية عليها من القطر الطرابلسي، ومنع تسرب الأسلحة إلى الثوار العرب في كل من تونس والجزائر. واستمالت بعض الأفراد من قبائل ورغمة لصالحها بعد أن أعفتهم من دفع الضرائب، بينما التحم بعضهم الآخر بالقبائل الطرابلسية لصد الهجمات الفرنسية على ديار الإسلام بتشجيع من السلطات العثمانية[2]. كما أشار أن الجنوب التونسي والغرب الليبي لم يكونا محكومين بالإجراءات الحدودية

---

[1] وهو (Joseph Allegro) إيطالي الأصل دخل في خدمة الفرنسيين، أنظر: تشايجي، المصدر السابق، ص 117.

[2] تشايجي: المصدر السابق، ص 121.

المتعارف عليها إدارياً في العهد العثماني لاعتبارات قبلية محلية إلاّ بعد احتلال فرنسا للقطر التونسي سنة 6006م[1]. إلاّ أن ذلك لم يكن دفعةً واحدةً، بل كان على مراحل. وآخر مرحلة كانت عقب عودة المهاجرين التونسيين إلى أوطانهم، وفشل مباحثات ترسيم الحدود بين الحكومتين الفرنسية والتركية بين عامي 6015 و6011م، فقامت فرسا بتوطيد قواتها العسكرية بين البحر (منطقة البيبان بجرجيس) والذهيبات (منطقة الرمادة) لصالح حكومتها بتونس. ويبدو أن ذلك لم يرض القبائل الطرابلسية، لاسيما الصيعان منهم، فحصل الصدام بين بعض قبائل ورغمة الموالية لفرنسا، من جهة، وبعض قبائل الصيعان والنوايل الموالية للعثمانيين، من جهة أخرى. وكانت تلك الصدامات تأخذ الطابع القبلي في كثير من الأحيان مثل (الزغوب) والاستيلاء على الإبل والأرزاق، وهي شيمة ذاك العصر. ولعل قصة (ضو الخنجاري وأخيه علي) سالفة الذكر كانت من نتائج تلك الصدامات التي استغلتها قوى الاستعمار الفرنسي أكثر من نوايا الدولة العثمانية الرامية لحماية ديار الإسلام من الأوروبيين (الكَفرة)، وبالتالي الحفاظ على امتيازاتها في المنطقة. إلاّ أن تركيا خضعت أخيراً، وتراجعت عن حماية الأراضي الطرابلسية من فرنسا، ربما تخوفاً من مطامع إيطاليا التي بدأت تلوّح باحتلال طرابلس الغرب، فقامت الدولة العثمانية بتوقيع اتفاقية ترسيم الحدود المذكورة آنفاً. وهذا يعني أن إيطاليا – عند احتلالها طرابلس الغرب وبرقة سنة 6166– وجدت حدود البلاد الغربية على ذاك الوضع. إلاّ أن قبائل الصيعان واصلت تحركاتها في المنطقة واتصالها بقبائل ورغمة ونفزاوة التي تربطها مع الصيعان صلات قديمة رغم مكائد فرنسا، كما أن لهم فيها مراعٍ وآبار.

[1] تشايجي: نفس المصدر، ص 145.

–ولعلّ الوثيقة الرابعة التي نشرها الدكتور إبراهيم أحمد أبو القاسم تؤكد ما ذهبنا إليه في شرح الوثيقة السابقة، حيث احتوت هذه الوثيقة على طلب الصيعان من الحكومة الفرنسية استرجاع أملاكهم في نفزاوة وورغمة، علماً بأن الوثيقة مؤرخة في سنة **6165**م أي بعد معاهدة أوشي بلوزان وتخلي تركيا عن المجاهدين الليبيين مما فتح المجال أمام الإيطاليين للتنكيل بالشعب الليبي، وهذا ما أثبته الصيعان في تلك الوثيقة. وقد ذكر الأستاذ فارس أحمد العلاّوي في كتابه (تاريخ مدينة تيجي..)[1] ما يؤكد أن الحكومة الفرنسية لم تستجب لطلب الصيعان، فهاجر رؤساؤهم مثل (علي كلّة وسعد حلبودة) إلى سوريا، أما البقية فعاد بعضهم إلى أراضيهم بسهل الجفارة سنة **6164**م بعد أن سمحت لهم السلطات الإيطالية بذلك. علماً بأن الصيعان ذكروا للحكومة الفرنسية أنهم يملكون أراض في وادي العكاريت وسيدي مهذب وإيدران والحاج قاسم ومحروقة.. وكلها في تونس بعد الترسيم.

هذا التنقل لا يعني – عند الصيعان – هجرةً بالمفهوم السياسي للهجرة، وإنما كانوا يعتبرونه نظاماً من أنظمة الحِلّ والترحال الذي يعتمده البدو عموماً. والذي كان محكوماً بعلاقات متينة ربطت قبائل الصيعان بالقبائل العربية الأخرى بالقطر التونسي، حتى بعد ترسيم الحدود، حيث كانت لهم فيه أملاك وآبار ومراع، كما كانت لهم مع أهله عِشرة وماء وملح.. وما كان لذاك التواصل أن ينقطع لولا تلك الحدود الوهمية المصطنعة التي فرضها الاستعمار بين الأخوة الأشقاء، والتي

---

[1] العلاّوي، نفس المصدر، ص191.

بدأت الهجرة بموجبها تتخذ منحى آخر محكوماً بالقوانين الدولية خصوصاً بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية.

ثالثاً- الخرائط القديمة:

أهم خريطة عُثر عليها حتى الآن تعود إلى العهد العثماني، مدوّن عليها التقسيم الإثني المزعوم لأقاليم ولاية طرابلس الغرب: (عرب)، (عرب-بربر)، (بربر)، (توارق)، (تبو)، إذ يبدو أنه تقسيم أوروبي، ربما قام به الإيطاليون قبل احتلالهم لليبيا رغم حداثة رسم الخريطة. فكان الصيعان من بين القبائل العربية الليبية الواضحة على هذه الخريطة كدليل على أن قبائل الصيعان لم تكن من القبائل الصغيرة المهمّشة بل كانت من بين القبائل الأبرز على الإطلاق، حيث يقع موطنهم في أقصى الشمال الغربي لولاية طرابلس الغرب (سهل الجفارة)، ضمن الأراضي المحصورة بين جبل نفوسة جنوباً والبحر الأبيض المتوسط شمالاً، أي جنوبي مدينتي طرابلس وزوارة. (أنظر الخريطة بالملاحق)، ويمكن التحقق منها بواسطة الرابط الإلكتروني التالي:

http://www.joshberer.wordpress.com/maps/middle-east/

رابعاً- التدوين المكتوب من خلال الكتب:

الكتاب المنهجي الوحيد الذي خُصّص للحديث عن الصيعان هو:

6-عنوان الكتاب: تاريخ مدينة تيجي وقبائل الصيعان وبلدانهم.

1–مؤلفه: فارس أحمد العلاوي (من القطر السوري الشقيق).

5–عدد صفحاته: 145 صفحة من القطع المتوسط.

4–محتوياته: مقدمة، عشرة فصول، ثبت المصادر، الوثائق، الفهرس.

3–الطبعة الأولى: 588 نسخة.

1–تاريخ الإصدار: (تاريخ توقيع المقدمة: سنة 1888م)

5–تنفيذ الطباعة: دار أوغاريت بدمشق.

عرض الكتاب:

الفصل الأول: تحدث الكاتب عن مدينة تيجي عبر التاريخ، وأنها كانت تسمى (قنطرار)، واستعرض ولاتها خلال العهد الرستمي، وعلماءها وبعضاً من معمارها، ووصف طبيعتها، ثم كيف كان دمراها وتفرق أهلها بين تونس والجبل الغربي.

الفصل الثاني: كان بعنوان (قبائل الصيعان)، حيث تعرض فيه أولاً لوثيقة النسب الخاصة بسيدي (امحمد أبو صاع)، ولم يذكر الكاتب مصدرها واكتفى بأنها توجد لدى أحد سكّان تيجي. ثم شرح تركيبة القبائل الأربع معدداً لحماتها وفروعها وبيوتها.

الفصل الثالث: وخصصه لبلدان الصيعان. فبعد الحديث عن مدينة تيجي في الفصل الأول تناول الكاتب في هذا الفصل بقية البلدان مثل: بدر وأم الفار والعجمية وزقزاو والهيبلية..

الفصل الرابع: وهو خاص بالنمو السكاني في مدينة تيجي وما جاورها من بلاد الصيعان.

الفصل الخامس: تعرض فيه الكاتب لمعالم مدينة تيجي وبادية الصيعان وآثارها الطبيعية والتاريخية وأسماء الأماكن التي اشتهرت بها. وقام الكاتب في هذا الخصوص بتسمية تلك الأماكن بمسمياتها المحلية، مثل السواني والحسيان والآبار والعيون والعتل والأطوال والظهاري والقرع والهناشير..

الفصل السادس: قام الكاتب باستعراض أخبار الصيعان في العهد العثماني من خلال بعض الوثائق والإشارات الواردة في الكتب والدوريات.

الفصل السابع: استعرض فيه معارك الجهاد الليبي ضد الغز الإيطالي التي شارك فيها الصيعان.

الفصل الثامن: ويذكر فيه مساهمة الصيعان مع أشقائهم في تونس في معارك الجهاد ضد الاستعمار الفرنسي.

الفصل التاسع: خصصه المؤلف لأخبار الصيعان في العهد الإيطالي، وهو فصل مكمل للفصل الثامن، وقد اعتمد فيه الكاتب على سجل الروايات الشفوية لبعض المجاهدين الصيعان.

الفصل العاشر: وهو أيضاً مكمل للفصلين السابقين حيث استعرض فيه الكاتب قائمة بأسماء بعض الشهداء الصيعان في معارك الجهاد ضد الطليان.

تحليل مضمون الكتاب من خلال مصادر متفرقة:

6-مسألة التشكل الأول:

نظراً لعدم توفر المصادر لم يتمكن الكاتب من تحديد الفترة الزمنية التي تكونت فيها قبائل الصيعان، أو على الأقل تحديد الفترة الزمنية التي ظهرت فيها تلك القبائل على مسرح الأحداث بدقة. وكل ما استطاع تحديده يعود إلى العهد العثماني الثاني، أي بين سنتي **6053**م و**6166**م وهي الفترة الوحيدة التي ذكرت بعضُ وثائقها الإدارية قبائلَ الصيعان. وكانت القبائل الأربع قد عُرفت بالتقسيم الموجود حالياً.

وفي هذه الحالة يمكننا –استناداً على ما ذكرناه آنفا في هذا الخصوص– إضافة فكرة أن قبائل الصيعان كانت قد اشتهرت بين الأوساط الحكومية آنذاك في فترة لا تقل عن **188** سنة قبل تلك الفترة. أما بداية التشكل فالأرجح أنها تزامنت مع تواجد فرسان القدّيس يوحنّا في طرابلس الغرب، أي قبل دخول الأتراك إليها سنة **6336**م، وذلك عقب الهجرات الفردية من المغرب الأقصى في اتجاه الأراضي المقدسة عبر مدن وقرى المغربين الأوسط والأدنى، أو هروب البعض من ويلات الاسترداد المسيحي وسقوط آخر معاقل الأندلس في قبضة الفرنجة سنة **6411**م. لذا تكون بداية تشكّل قبائل الصيعان ومثيلاتها محصورةً في الستين سنة الواقعة بين سقوط الأندلس سنة **6411**م ودخول العثمانيين إلى طرابلس الغرب سنة **6336**م. ولا بد أن يكون مسرح التشكل ممتداً بين الجوش وسبيبة والعكس، أي بعد وفاة الجد الأول (سيدي امحمد أبو صاع) ودفنه في سبيبة وعودة أو هجرة أبنائه إلى الشق الشرقي من سهل الجفارة، وخاصة بالمناطق القريبة من

الجوش وتيجي وغيرهما. ومن أولائك الأبناء تشكلت النواة الأولى لقبائل الصيعان. وهذا التاريخ يتفق تماماً مع ما ذكرته حُجّة سيدي محمد أبو صاع سالفة الذكر والتي وافقت تقريباً سنة 6488 ميلادية (001 هـ.)، وهي فترة انهيار ملوك الطوائف الأندلسية الواحد تلوى الآخر أمام الزحف الفرنجي.

1–حُجّة النسب:

وعند متابعتنا لصفحات وثيقة النسب التي أوردها الكاتب، والتي تكّرم علينا الدكتور الطاهر علي الرقيق بترجمة قانونية لها[1]، والتي تعرضنا لها في الصفحات الفائتة، لم نتمكن من التوصل إلى نسل (سيدي امحمد أبو صاع) بالوضوح اللازم، فلم تُفصح لنا الوثيقة مثلاً عن اسم أبيه وبقية أجداده. وقد لا نقتنع بالمذهب الذي ذهبت إليه الوثيقة التي تقول حرفياً: (هذه ذرية الكامل العارف سيدي محمد أبو صاع بن الحسن بن علي بن أبي طالب وفاطمة الزهراء بنت رسول الله صلى الله عليه وسلّم)، فهي تُرجعه مباشرة إلى الحسن بن علي، بينما نراها تُمهّد لهذا النسب بقصة إدريس بن عبد الله ودخوله إلى المغرب الأقصى وتوزيع ذريته في البلاد الواقعة بين فاس وطرابلس، كأنها تشير إلى مرجعية (امحمد أبو صاع) إلى إدريس الأول وليس مباشرة إلى الحسن بن علي. ولكن وثيقة النسب التي أحضرها أبو صاع ابسيسة من المغرب تذكر بوضوح تام تسلسل النسب من سيدي امحمد أبي صاع إلى جده مولانا إدريس بن عبد الله المحض

[1] قام بترجمتها (محمد عبد السلام الشبوكي) صاحب (مكتب المعرفة للترجمة القانونية) بالعجيلات، والدكتور الطاهر هو أحد أبناء الحاج علي الرقيق، أحد مثقفي ووجهاء الصيعان، من قبيلة أولاد المحمد.

إلى أن تصل به إلى فاطمة الزهراء بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولم يكن الأستاذ علاوي قد اطلع على هذه الوثيقة.

ولم يكشف لنا المؤلفُ عن بعض أسرار حجة النسب – التي اطلّع على أصلها – فيكتفي بالنقل حرفياً، مثلاً: (وأما تسمية أولاد إسماعيل وأولاد سليمان هم أهل مدينة نفطة والشيخ العالم العارف سيدي محمد أبو صاع عقّب ذرية في قمودة..)، فورودُ مدينتي (نفطة) وقمّودة) التونسيتين لم يوضح لنا علاقة (امحمد أبو صاع) بهما وبأولاد إسماعيل وأولاد سليمان. لأن الوثيقة تذكر – في موقع آخر – أن ركناً من ذرية امحمد أبو صاع وُجد في الجوف = سبيبة، وركناً آخر وُجد في الجوش.

5–إحصاء القبائل وتفرعاتها:

أول محاولة إحصاء تلك التي أجراها (هنريكو دي أوغوستيني) سنة 6165م عندما أحصى قبائل ليبيا وسكان مدنها وقراها. ويبدو أنه كان مرسلاً من قبل حكومته بروما لمعرفة طبيعة هذا الشعب البدوي الأعزل من السلاح الذي وقف بقوة أمام جحافل جيش مدجج بأحدث أنواع الأسلحة، فلم يتقدم خطوة واحدة بعيداً عن شاطئ البحر الذي رست عليه بوارجُه الحربية. لذا يمكننا اعتبار هذا الكتاب – الذي ترجمه الدكتور التليسي – تقريراً استخباراتياً يستهدف المعلومات العسكرية أكثر منه بحثاً علمياً، فوقع صاحبه في الأخطاء المنهجية. أما الأستاذ فارس فقد كان اجتهاده وصدقه مدفوعان برغبة أكيدة لرد الجميل لأناس أحبّهم وأحبّوه خلال ثلاث سنوات عاشها بين ظهرانيهم، عندما كان مدرساً في (تيجي). فنقل أسماءَ قبائل الصيعان ولحماتهم وبيوتهم وفروعها من أفواه

كبارهم كل على حدة، مما أثار -بعد صدور الكتاب- بعض الحساسيات والتعليقات. فالعمل من هذا النوع يبقى ناقصاً مهما وفّر له صاحبه وسائل الكمال ومهما كان مدفوعاً بحسن النية، لأنه متعلّق بمسألة الانتماءات التي تثير الحساسيات عند البدو، والتي مرّ عليها الزمن دون تدوين، فصارت تميل لوجهات النظر الخاصة والتعصّب للعائلة أكثر من ميلها لحقيقة لاكتها الألسن وتناستها الذواكر، علاوة على كثرة الهجرات والتنقلات والزواج من الغير ودخول بعض الأفراد في صميم قبائل الصيعان فتكاثروا فيها، وغير ذلك من طرق التنوع والاختلاط، وهذا إجراء كان يحصل مع كل القبائل البدوية قديماً وحديثاً. ولكن رغم الانتقادات التي وُجّهت لهذا الفصل بالذات يبقى للأستاذ فارس حقّه في الحصول على أجر الاجتهاد كاملاً وغير منقوص بإذن الله. خصوصاً وأنه بذل جهداً كبيراً في مقارنة أرقام التعداد السكاني لقبائل الصيعان منذ سنة **6168**م إلى الآن، وهذا الجهد المشكور أيضاً لا يعطي العدد الحقيقي لقبائل الصيعان خصوصاً وأن البدو في ليبيا عموماً غادر عددٌ كبيرٌ منهم بواديهم وقراهم بعد اكتشاف النفط نحو المدن سعياً لتحسين ظروف العيش والأخذ بأسباب الحضارة التي لا تتوفّر في غير المدن حسب اعتقادهم. ولم يغفل الأستاذ فارس عن ذلك بل ذكر أن معظم أحياء طرابلس الغربية مثل غوط الشعال وأبي سليم والدريبي وغيرها تعج بالصيعان، علاوة على بعض المدن الأخرى كالجميل وجدابيا وبنغازي وغيرها التي هاجر إليها الصيعان واستقروا فيها، ناهيك عن ورفلّة التي تكاثر فيها الصيعان منذ القدم.

4-أسماء معالم بادية الصيعان:

كل ما يتعلق بالكلام المتداول بين البدو هو أحد الأهداف الأساسية من كتابنا هذا. وقد ذكرنا في أبوابه السابقة بعض الأسماء والمسميات وشرحناها شرحاً معجمياً بقصد إثبات أصلها العربي. وها هو الأستاذ فارس يذكّرنا في هذا الفصل من كتابه ببعض أسماء أماكن بادية الصيعان ويحصي لنا قائمة مهمة منها دون أن يتعرّض لها بالشرح، مثل: (الحسي والسانية والهنشير والعرق والظهرة والكاترة والطويل والبحِيرة والقرعاء)، وقد شرحنا بعضها سابقاً، ونعود إلى شرح بعضها الآخر الآن، ومقابلتها بما في العربية الفصحى، معتمدين في ذلك على (اللسان) لابن منظور:

-الحسي: الحِسيُ في العربية = سهل من الأرض يَستنقع فيه الماء. وجمعه (أحساء). ويقال (احتسى حِسياً)= احتفره.

-السانية: وفي العربية: سنا، يسنو، سنواً وسناية وسناوة، أي سقى. وتعني في العامية بئر ماء، وكذلك مساحة صغيرة من أرض صالحة للزراعة يكون فيها بئر بالضرورة.

-الهنشير: ربما تكون الهاء زائدة وهي ظاهرة معروفة في اللهجات العربية القديمة مثل هراق الماء= أراقه، وهجمل= الجمل، أي معرّفة بالهاء بدل الألف واللام. لذا يكون (النشر) في العربية هو الكلأ إذا يبس ثم أصابه مطر في دُبر الصيف فاخضر. والنواشر والرواهش= عروق باطن الأرض. أما (الهيشور) فهو شجر ينبت في الرمل.

-**العرق** (بكسر العين): في العربية نجد: عروق الأرض= ثراها. والعِرق= الأرض الملح التي لا تنبت، وكذلك: العِرق= سبخة تنبت الشجر. ويقال (استعرقت الإبل) إذا أتت ذاك المكان.

-**الظهرة**: (من الظهور)، مكان مرتفع من الأرض، أي ظاهر وناتئ. والهضبة كذلك.

-**البْحِيرة**: (من البحر)، مكان منخفض في الأرض يتشرب ماء المطر فيستصلح ويزرع، ثم يسمى بالغلّة المزروعة فيه، مثل (بحيرة بطيخ..).

-**الطويل** (ربما القصد منه= مجرى الوادي)، ففي العربية: الطّوْل= الحبل الذي يطول للدابة فترعى في المروج. والطويلة= موقع به روضة واسعة فيها مساك لماء السماء. والبدوي يقول: طوّل الزايلة: أي أطل لها الحبل لترعى.

-**القرعا**: (جمع قرُع). والقرَع في العربية موضع لا نبات فيه كالقرَع في الرأس. ويمكن تسميتها قرعاء، وتصغّر إلى قُريعاء.

-**العقيلة**: وجمع عَقيلة في العربية (عقائل)، وهناك (العُقيلى) وهي حصرم الكرم قبل أن يطيب طعمه. وعاقول النهر والوادي والرمل: ما اعوجّ منه، وكل معطف وادٍ عاقولُ.

-**المقيريس** (تصغير المقرس أو المقرص): وأصل القَرس في العربية شدّة البرد، وقرّس الماء إذا جمد. أما المُقرّص فتعني المقطّع المأخوذ بين شيئين. والقُرّاص نبت ينبت في السهول والأودية، فيُسمى بها.

-زقزاو (وادي زقزاو): نعتقد أنها بتأثير أمازيغي، لأن (أزيزاو) تعني (الأخضر). وإذا كانت إحدى الزائين مبدلة بجيم، فإن (أجِز الزرع) في العربية= (حان أن يُزرع) و(أزِج العشب)= (طال)، أي إخضرّ وظهر اخضراره.

-أبو شول: والشَّولُ في العربية مفردها (شائلة)، وتعني الإبل التي أتى عليها من حملها أو وضعها سبعةُ أشهر فخفّ لبنُها. و(أبو شول) ربما قَصد بها العامّةُ مكانَ تلك الإبل. أما إذا كانت (شوال) فهو لحمل الحبوب.

-المرزوزية: لا بد أن تكون من الفصيح الثلاثي (رزز)، ويقال: (رزَّ الشيءَ في الأرض)= أثبته فثبت. و(رِزُّ الإبل)= صوتُها تَسمعه ولا تَراه.

-الهبلية: ربما أصلها من (المَهبِل) وهو الهوّة الذاهبة في الأرض، أو الهواء من رأس الجبل إلى الشُعب.

-الهيشة (عين الهيشة): وفي العربية (الهَيْشة)= الجماعة. و(الهَيْشُ)= الاختلاط. وهاشت الإبل هوشاً إذا نفرت وتبدّدت وتفرّقت في الغارة، فهي هوّاشة.

-الوخيم (عين الوخيم): وفي العربية (أرض وخام ووخيم)= لا ينجع كلأُها.

-العِتلة (عتلة أم الفار): العَتَلة -في الأساس- المَدَرة الكبيرة تَتَقلّع من الأرض إذا أثيْرت. ربما سمي بها هذا المكان أو ذاك نظرا لقوة أرضه وصلابتها.

-سافل (ليس سافر كما ورد في الكتاب المذكور): والسافل نقيض العالي، وأسافل الأودية أماكن يقصدها الرعاة.

-الجبّارة (سافل الجبّارة): والجبّارة بنت النخلة، أي النخلة الصغيرة.

3-أخبار الصيعان في العهد العثماني الثاني:

أقدم وثيقة قدّمها المؤلف تعود إلى سنة 6044م. وقد تعرّضنا لهذه الوثيقة والوثائق التي تلتها زمنياً في الصفحات الماضية من هذا الفصل، وذكرنا أن معظمها متعلّق بمشاكل الذهاب والإياب بين غرب طرابلس وجنوب القطر التونسي وما ينجرّ عن ذلك من صعوبة جباية الضرائب وحراسة الحدود والتجنيد وغيرها. أما بقية فصول الكتاب فقد تعرضت لحركة الجهاد الليبي ضد الغزو الإيطالي. وهذا ما لم نبحثه في كتابنا هذا، حيث اعتبرناه مرحلة زمنية لاحقة لموضوعنا، كما أنه موضوع مستقل بذاته لا علاقة له بالعادات والتقاليد وطرق العيش والكلام والآداب والحياة العامة عند البدو. إلاّ أننا وجدنا مسألة حركة الصفوف وعلاقتها بسمات الحيوانات مهمة في بحثنا هذا، لارتباطها بالنواحي الاجتماعية التقليدية عند قبائل البدو، فعدنا إلى ما قاله فيها الأستاذ (عمرو بغني) وخرجنا منها بالاستنتاج التالي:

1-حركة الصفوف وسمات الحيوانات:

كتب الأستاذ (عمرو بغني)، الباحث بمركز دراسة جهاد الليبيين ضد الغزو الإيطالي[1]، مقالاً تحدّث فيه عن أصول حركة الصفوف وأثرها على حركة الجهاد الليبي. وقد أرجع الأستاذ بغني تلك الحركة في الأساس إلى نظام قبلي كان قد وُضع أثناء الصراع الذي نشب بين أحد حكام تونس وابنه الثائر عليه، ثم عاد به العرب إلى فريقين منبثقين من أبناء قبائل بني سليم وبني هلال (يوسف وشدّاد).

---

[1] **بغني**، عمرو: (أصول حركة الصفوف وأثرها على حركة الجهاد الليبي)، **مجلة الشهيد**، مركز دراسة جهاد الليبيين ضد الغزو الإيطالي، العدد الثالث، 1983، ص ص135،91.

وهذا التقسيم – في رأينا – لم يكن وليد تلك الحقبة التي انتشرت فيها العرب الحجازية في المغرب العربي. فقد عُرف عن العرب منذ عصرهم الجاهلي تقسيم قبائلهم دائما إلى صفين، عبّر عنه المؤرخون أو الأخباريون بـ(العرب العاربة والعرب المستعربة) التي تحولت مع الزمن إلى (العرب القحطانية والعرب العدنانية)، وعُرفت بعد الإسلام بـ(اليمنية والقيسية)، ونسج على منوالهم سكان الشمال الأفريقي فقسّموا أنفسهم إلى (بُتر وبرانس)، وبعد استقرار الإسلام انقسم الجميع إلى (عرب وبربر) وهكذا.

أما تقسيم القبائل العربية إلى الصفين الشهيرين (يوسف وشدّاد) فيُرجع الأستاذ بغني ظهوره الأول إلى تونس، حيث سميت النزعة الأولى باسم زعيم الهمّامة: يوسف، والنزعة الثانية باسم زعيم المثاليث: شدّاد. وهي أصول هلالية كما سبق الذكر. ثم تسربت إلى الجزائر وليبيا مع أقارب كل قبيلة. وقد أثر هذا التقسيم في السمات، وهي علامات مميزة تطبع على رقاب وأفخاذ الحيوانات بواسطة قضيب يسمى شعبيا (مطرق) يحمى بالنار حتى يصير جمرة وتُكوى به أجسام تلك الحيوانات بأشكال مختلفة.

ويستنتج الأستاذ بغني –من عدة مصادر– تصنيفات القبائل الليبية وتقسيمها إلى الصفّين أو الحلفين (يوسف وشدّاد)، من بين ذلك تقسيم قبائل الصيعان الأربع كالتالي:

- صف شدّاد: قبيلة أولاد امحمد وقبيلة الهمايلة.
- صف يوسف: قبيلة أولاد سلاّم وقبيلة أولاد شرّادة.

ويضيف أن كل صف يميز سماته بوضعها على إحدى جنبي الحيوان. فصف يوسف يضع سمته على الجنب الأيمن، وصف شدّاد يضعها على الجنب الأيسر. بذا تكون سمة أولاد امحمد والهمايلة على الجنب الأيسر، وأولاد سلاّم وأولاد شرّادة على الجنب الأيمن. ويستشهد على ذلك بقصيدة قالها الشاعر الشيخ الجليل الحاج (عون محمد لبز) من أولاد امحمد، يثبت فيها أن قبيلته توسم حيواناتها على الجنب الأيسر، أي أنها من صف شدّاد، فيقول:

يا ناري عل نجع كحيلـــة.. ناري عل نجع الخوّارة
مشهور السيمة من يسارى.. الميّة ايفكّوا منها حارة
بو صاع ليا قطروا خيلـــه.. وبالضيفة يكرم خطّارة

ويبدو أن الشاعر يفتخر بأبناء قبيلته (أولاد امحمد) حيث اشتهر منهم (الخناجرة) الذين كانوا يستردّون إبلهم المغتصبة عادة من (ورغمّة) ويضيفون على المائة أربعة من إبل المغيرين المغتصبين. كما يشير إلى شهرة بعضهم أيضاً بإكرام الضيف إلى درجة المبالغة في إكرامه، مثلما فعل (بوبكر بن عزيز) المشهور بـ(قصعة الساروط) التي يأتيها المرق مباشرة من بيت النساء إلى بيت الضيافة عبر قنوات خاصة.

خامساً- كتاب "الحوض":

تفضل الأستاذ الشاعر والأديب (التواتي أحمد قمبي) وهو من (أولاد التواتي) قبيلة (أولاد شرّادة) بتحرير رواية تاريخية غاية في الحبكة الأدبية المشوقة والمثيرة، وبلغة عربية كانت من النوع السهل الممتنع. عَنون التواتي روايته

ب(الحوض)، وهو منتجع معتاد للصيعان يقع في قلب سهل الجفارة المحصور بين جبل نفوسة والبحر المتوسط. فانقسمت الرواية ذات 615 صفحة إلى الأقسام التالية: إهداء، ومقدّمة بقلم الدكتور/ أبو القاسم عمر صميدة، وأجزاء ثلاثة: (الحوض)، (الرحيل)، (العودة). حرص الكاتب على أن يخلّص نفسه من براثن السرد التاريخي المعقّد والبحث العلمي المضني، وطفق ينسج قصته الأدبية وينظمها في لوحة فنية تعجز عن رسمها ريشة الفنان التشكيلي وتفشل في تصويرها أحدث عدسات التصوير. ورغم الخيال في الوصف والجمال في التعبير، إلاّ أن الكاتب استطاع بحصافته أن يرسّخ روايته في ذهن القارئ على أنها رواية تاريخية حقيقية جرت أحداثها على أرض هذا الوطن الطيب الذي نعشقه جميعاً ونبذل فيه الأرواح رخيصة لكي يبقى شامخاً إلى الأبد.

احتوى الجزء الأول (الحوض) على وصف دقيق لحياة الصيعان البدوية الهانئة في هذا الحوض واسع الأرجاء.

أما الجزء الثاني (الرحيل) وهو بيت القصيد، روى فيه الكاتبُ قصة مبعوث الدولة العثمانية (سليمان باشا أبو فاطمة) لقبائل الصيعان يأمرهم ببيع أراضيهم بثمن بخس ثم إعادة شرائها بأسعار تفرضها الدولة، بحجة تثبيت ملكيتها على مستندات التمليك الرسمية، وفي حالة الرفض فإن المبعوث مخوّل بمصادرتها على أنها أملاك الدولة العثمانية. ولم يكتف الصيعان برفض الفكرة من أساسها وبيع أراضيهم بهذه الكيفية، بل قاموا بقتل ذاك المبعوث الحكومي ومن معه وحرّقوا سجلاته وأوراقه. وهذه القصة مشهورة لدى كافة قبائل المنطقة ومتواترة بين أفرادها منذ ذاك الزمان إلى يومنا هذا. وخوفاً من رَدّة فعل الدولة

التركيـة قـام الصـيعان بمغـادرة أراضـيهم والنجـاة بـأرواح النسـاء والأطفـال والعُجّـز وحماية الأرزاق وقطعان الماشية والإبل.. وغيرها من رموز الذود عن العرض وصون الكرامة المشهورة عند البدو، خصوصاً وأن الولاية أعدّت لهم قوّة عسكرية لا قبل لهم بها.

وأما الجزء الثالث والأخير (العودة)، فيروي فيه الكاتبُ قصةَ عودة قبائل الصيعان من غربتهم بعد غياب دام عشرين سنة، وذلك عقب صدور فرمان العفو عنهم من الدولة العثمانية بمسعى من ابن أحد مشايخ الصيعان كان يدرس في تركيا. وبعودتهم عادت مياه (الحوض) إلى مجاريها.

التحليل:

كان الكاتب صادقاً في نقل أحداث هذه القصة التي حصرها بين سنتي 6055 و6188 ميلادية، فنقل أسماء الشخوص والأماكن حقيقةً دون رمزية أو ابتكار، ولكنه سمح لخياله أن يصف أجواء القصة عموماً بشيء من المبالغات الأدبية والسرود الدرامية فألبس قصته حُلّةً شفّافةً من الحسن والجمال، وليس في ذلك عيب طالما بقي عمودها الفقري ثابتاً كما شاء له القدر أن يكون تاريخاً وإن لم توثّقه كتبُ التاريخ العلمية والمنهجية.

والمأخذ الوحيد الذي يؤخذ على هذه الرواية التي اعتمدت كثيراً من الوقائع والحقائق التاريخية – حسب وجهة نظرنا – هو أن الكاتبَ تجنّب قدر المستطاع ذكر (تونس) كمقصد لقبائل الصيعان في تلك التغريبة الشهيرة، بل نراه

يذكر قضاء فرنسا والأراضي الفرنسية، ووصل إلى ذكر الجزائر دفعة واحدة، ولم يذكر تونس إلاّ قليلاً، ولم يتعرّض لوجود مدفن جدّ الصيعان في (سبيبة)، رغم ذكره لقبائل عربية معروفة بالقطر التونسي الشقيق، وهي قبائل تقدّر الصيعان كثيراً وتجلّ جدّهم سيدي (امحمد أبو صاع). ونجد أنفسنا مضطرين لمناقشة هذه المعضلة بكل جرأة وشفافية على النحو التالي:

6- في ذاك الزمن تحديداً كانت القبائل العربية تُعمّر هذه الأماكن والبوادي من سهل الجفارة (بين الخمس وقابس) إلى القيروان، وأشهر تلك القبائل: قبائل وسط تونس حالياً مثل (المثاليث والفراشيش والهمامّة والجلاص)..، وقبائل (بر نفزاوة وبني يزيد والجريد والمرازيق والأعراض)..، وقبائل الجنوب التونسي حالياً مثل (ورغمة والتوازين ومزطورة)..، وقبائل أقصى الجنوب في (بر تطاوين، مثل الودارنة وأولاد شهيدة والجليدات والربايعة)..، وقبائل غرب طرابلس، ليبيا حالياً، مثل (الصيعان والنوايل والعجيلات والعلالقة وخويلد والمحاميد بكل فروعهم).. وغيرهم كثير من القبائل العربية التي كانت تحي - في تلك الربوع - حياة البداوة والتنقل والترحال بكل حرية، وتتفاعل مع بعضها البعض سلباً وإيجاباً وبحسب ما تقتضيه الحياة الرعوية والبدوية الخالصة، دون قيود الحكومات الأجنبية المتعاقبة على المكان، خصوصاً في الأزمان السابقة للحربين العالميتين. وبالتالي فإن لجوء التوازين إلى النوايل، ولجوء الصيعان إلى أولاد شهيدة مثلاً لا يُعد في ذاك الزمان اجتيازاً للحدود التونسية الليبية أو خرقاً لقوانين الدولتين بالمفهوم الذي صار عليه الوضع فيما بعد.

1- عندما احتلت فرسا البلاد التونسية بمقتضى اتفاقية باردو سنة 6006، كانت قد اكتفت مبدئياً بشمالها، أي بالأماكن الأكثر خصوبةً والمحيطة بوادي مجردة. ولكن السلطان عبد الحميد الثاني ألّب القبائل العربية ضد فرنسا بدعوى حماية ديار الإسلام وخوفاً من تتطاول فرنسا على احتلال طرابلس الغرب، فأرادت فرنسا تأمين مستعمرتها الجديدة باحتلال مدينة صفاقس التي دافعت عنها القبائل العربية البدوية المنتجعة لبادية وسط تونس لمدة أكثر من شهر بقيادة (علي بن خليفة). وعندما عجزت القوات الفرنسية عن التقدم عسكريا نحو الجنوب قامت بتعيين العميل الإيطالي (جوزيف ألليغرو) لرعاية شؤون منطقة الأعراض بمدينة قابس بهدف شق صفوف المجاهدين من البدو المدعومين من الدولة العثمانية، فقام هذا العميل بتأليب القبائل العربية ضد بعضها البعض عن طريق إغداق الأموال والإعفاء من دفع الضرائب وغيرها من الدسائس، فالتحمت بعض القبائل الجنوبية (ورغمة وتوازين ونوايل وصيعان) وغيرهم ضد مكائد العميل الإيطالي، بينما انطلت الحلية على شق آخر من تلك القبائل فصارت تغير على أرزاق القبائل المتمردّة مقابل حصولها على بعض الامتيازات، وقد عُرفت تلكم الغارات شعبياً بـ(الزغوب). وفي هذه الحالة يمكننا وضع السؤال التالي: أين هي تونس وأين هي ليبيا؟، ومن يستطيع وضع حدود بينهما في هذا الخضم المشحون بالدسائس والمؤامرات والتذبذب بين الحكومتين العثمانية والفرنسية؟ إلى درجة أن العامة كانوا يعتقدون أن حدود ولاية طرابلس الغرب هي (ساقية الزيت) بصفاقس، أو هكذا كان السلطان عبد الحميد الثاني يتصور قبل احتلال فرنسا لمدينة صفاقس. علماً بأن الحدود بين البلدين لم تُرسم بوضعها شبه الحالي إلاّ في سنة 6168 تطبيقاً للاتفاقية الموقّعة في طرابلس بين الحكومتين العثمانية والفرنسية عقب ثورة

الاتحاد والترقي في تركيا وفشل السلطان عبد الحميد في تحقيق مساعيه للحصول على لقب خليفة المسلمين.

5- يُشار عادة إلى أن الصيعان يشدّون الرحال أكثر من غيرهم إلى تونس، بينما الواقع يحتّم علينا الاعتراف بأن معظم قبائل غربي طرابلس وبعض القبائل الأخرى شرقها كانت تسيح - هي الأخرى - في الأراضي التونسية في حالات معيّنة كالقحط والجفاف وغيرهما.

4- والأخطر من هذا كله أن بعض السطحيين ممن لا يقرؤون التاريخ جيداً أو من المتصيّدين في المياه العكرة، يشككون في أصول الصيعان الليبية، على اعتبار أن جدّهم (سيدي امحمد أبو صاع) دفين مدينة (سبيبة) غربي القيروان بتونس، وهذه ليست خاصية انفرد بها الصيعان لوحدهم، فكثير من القبائل الليبية - خصوصاً تلك التي تنتمي إلى أصول شريفة - أجدادها الأوائل مدفونون في القطر التونسي الشقيق، فنجد مثلا (المزاوغة) جدهم (سيدي عامر) دفين ساحل سوسة بتونس، و(الغرارات) جدهم (سيدي سلاّم أبو غرارة) دفين (مارث) بين قابس ومدنين بتونس، و(المخاليف) جدهم (سيدي عبد الله أبو جليدة) دفين تطاوين بتونس، وغير ذلك كثير.. علاوة على أن كثيراً من الأخوة في تونس من أصول ليبية، وأن كثيراً من العائلات الطرابلسية لا زالت تحمل أسماءً تونسية دليلاً على أصولها التونسية، وأن كثيراً من القبائل منقسمة بين القطرين. وهذا الأمر لا علاقة له بالتفرقة بين أبناء الوطن الواحد، فالعروبة والإسلام سابقان للحدود المصطنعة بين البلدان، تلك الحدود التي فُرضت على أناس ينتمون لأصل الواحد.

3- معظم القبائل التي تنتجع البوادي الليبية استمدت أصولها الأولى من نسل الأشراف والمرابطين وأولياء الله الصالحين القادمين من المغرب الأقصى على إثر سقوط الأندلس، وهؤلاء السادة الأشراف لم يأتوا إلى طرابلس الغرب على متن الطائرات والبواخر وإنما جاءوها سيراً على الأقدام، تلك الأقدام التي قُدّر لها أن تطأ أرض الجزائر وتونس، (فلا مفرّ من المرور بتونس والبقاء فيها ولو لحين). وإذا فُرضت الهجرة على أحفادهم فلا يُفكّرون في غير الغرب، الاتجاه الذي جاء منه أجدادهم الأوائل، وهو أمر محكوم بعوامل نفسية لا علاقة لها بالدوافع المادية إلاّ من باب قضاء الحوائج والبحث عن سبل عيش أفضل إذا ضاقت الأرضُ بما رحبت وبخلت السماءُ بما حملت. فهل يجوز لكائن من كان أن يسحب الهوية الليبية (وهي وثيقة إدارية لا علاقة لها بالأصول) من كل القبائل الليبية التي جاء أجدادُها الأوائل من المغرب عبر الجزائر وتونس؟ ما بالك في من جاء من شبه الجزيرة العربية واليمن قبل الإسلام وبعده، ومن جاء من الشام وعموم الشرق قبل ميلاد المسيح (ع) وبعده.

سادساً- ملاحظة أخيرة لا بد من ذكرها:

ورد ذكر (الصيعان) في موقع إلكتروني خاص بقبيلة (مطير) من بني غطفان الموجودة حاليا بالسعودية[1]. جاء فيه أن هناك قبيلة يقال لها (الصيعان) ينتمون إلى (الرحامين)، وهم ينتمون أصلا إلى (الشلالحة) الركن الرئيسي الثاني من قبيلة (مطير) المذكورة. ولم يذكر الموقع شرحاً لمسمى (الصيعان) هل هو

---

[1] (www.mutir.com)

مفرد (صاع) كما نعتقد نحن؟ وهل يصغّر الفرد منهم إلى (صويعي) كما هو الحال عندنا؟ وفي غياب هذا الشرح لا يمكن اعتماد قبيلة (مطير) السعودية أصلاً لقبائل الصيعان في ليبيا. ويذهب بعض مدوّني هذا الموقع إلى أن أولائك (الصيعان الرحامين) يسكنون منطقة (الرميثة) أو (الرمثية) بالحجاز (بين مكة والمدينة)، وهم من البدو الرحل المستقرّين أخيراً في تلك المنطقة الخصبة، فبنوا لهم فيها بيوتاً وحفروا آباراً. وفي المدة الأخيرة افتتحوا منتدى على الشابكة العالمية بعنوان "مجالس الصيعان الرسمية" يقولون فيه أنهم من ذوي (مقيت) من (مشره) من (رحيم) أي أنهم من (الرحامين) من (الشلالحة) من (مطير). وقد لوحظ من خلال توقيعات بعض الأعضاء إسم (الصويعي) و(صاع من الصيعان).. رابط الموقع كالآتي: **http://www.alse3an.net**

ورغم صعوبة إثبات العلاقة بين هؤلاء (الصيعان) المنتمين لـ(امحمد أبوصاع)، وأولائك (الصيعان) المنتمين للرحامين الشلالحة من قبيلة (مطير) بن غطفان، إلاّ أن بعض أسماء القبائل والعائلات هناك تتفق مع بعض الأسماء هنا، وذلك مثل (مطير) نفسها، وهو اسم يكثر عندنا، علاوة على صيغة التصغير وأصله (مطر). وكذلك وجود عشيرة (الهماليين) التابعين للصيعان هناك، يمكن مقابلتها بقبيلة (الهمايلة) هنا، مع فارق بسيط في كيفية استخدام صيغة الجمع، كالفرق بين (الرحامين والشلالحة) وكلاهما صيغة جمع، والجدير بالذكر أن الصيعان يستخدمون اسم (الشلحي) أيضاً. وكذلك وجود عشيرة (آل محمد) هناك، التي يمكن مقابلتها بقبيلة (أولاد امحمد) هنا، فلا فرق بين (آل) و(عائلة) و(أبناء)

دلالياً. علاوة على وجود أسماء متشابهة أخرى، مثل: (الزهاميل) ومفردها (زهمول) عندنا، وغيرها.

ومن خلال البحث عن أسماء الأماكن والأشخاص التي تحتوي على كلمة (صاع)، تبين أن واديين يحملان هذا الاسم، الأول: (وادي صاع) الذي يلتقي بوادي ملوية في المغرب الأقصى ويصبان في البحر، حسب ذكر الإدريسي في (نزهة المشتاق)، ويسمى بالأمازيغية (واد زا) لأن الصاد العربية تتحول إلى زاي في الأمازيغية، مثل (الصلاة= تزاليت) و(الصوم= أزومي)[1]، والعين غير أصيلة في الأمازيغية على ذكر محمد شفيق في (المعجم العربي الأمازيغي). أما وادي صاع الثاني فيكون في سلطنة عمان، ولا ندري ما علاقة هذا بذاك. علاوة على وجود قبيلة بالجزيرة العربية تحمل اسم (بي صاع) ربما (أبي صاع) مسهّلة، وأصلها (أبو صاع).

خلاصة الباب الرابع:

خُصص هذا الباب لتحليل المصادر التي ذكرت الصيعان. فتحدّث الفصل الأول عن نوعين من المصادر، منها الشفوية المنشورة على هيئة أساطير شعبية، ومنها المقفّاة على هيئة قصائد شعرية من الأدب الشعبي. ومن خلال كليهما نجد إشارات تاريخية وجغرافية معينة تُعطي فكرة عامّة عن تحرّكات قبائل الصيعان وعلاقتهم بالقبائل الأخرى المجاورة، وقد نجد لها مقارنات ببعض الأحداث التاريخية المدوّنة بطريقة منهجية، والتي تؤيد ما ذهب إليه القصّاصون والشعراء

[1] وكذلك في الفصحى، مثل: صمصمة= زمزمة. وفي العامية: الصغار= الزغار.

الشعبيون. وذلك مثل القصص التي نُسجت حول مدينتي (تيجي) و(سبيبة) وتحليلها بما أورده المؤرخون عنهما. أما الفصل الثاني فقد اهتم بالتوثيق المدوّن الذي ذكر الصيعان، مثل حجّة النسب التي ذكرت الولي العالم العارف (سيدي امحمد أبوصاع) وما عقّبه من ذرية، ومقارنتها بما يرويه أبناؤه عنه، ووثيقة النسب الصادرة عن الرابطة العالمية للأشراف بالمغرب الأقصى. وكذلك ذكر وتحليل وثائق أخرى أوردها بعض المؤرخين في كتبهم وأبحاثهم، كانت قد ذكرت الصيعان بطريقة أو بأخرى، فوجدنا إشارات مناسبة لها في بعض الروايات الشعبية التي يراها البحث العلمي غير منهجية، ولكنها أفادتنا في تحليل تلك الوثائق الرسمية الممنهجة.

إلاّ أن التركيز الأكبر كان على الكتاب الوحيد الذي خُصص لذكر الصيعان وبلدانهم، كان قد ألّفه أستاذ كريم من سوريا الشقيقة، ألا وهو (فارس أحمد علاّوي)، فكانت لنا عنده وقفة، خصوصاً وأنه أول من نشر الوثائق الخاصة بنسب (سيدي امحمد أبو صاع) نفعنا الله ببركاته.

والملاحظة التي يمكننا إبداؤها في هذا المقام، هي: أن هذا الباب يشوبه شيء من التحفظ، وذلك بسبب انعدام الوثيقة الكفيلة بإظهار الحقيقة التاريخية بجلاء تام وغير منقوص، خصوصاً فيما يتعلّق بمسألة الأنساب والأصول. فقد عُرف عن العرب قديماً اهتمامهم بالأنساب، واشتهر من بينهم النسّابة المعنيون بحفظ الأسماء. ورغم نهي الرسول الكريم عن عصبية وحمية الجاهلية، إلاّ أن الإسلام – عند بداية الفتح – انتشر في الأصقاع بواسطة القبيلة العربية. فكان العرب يتفاخرون بأنسابهم أمام الشعوب المفتوحة غير المهتمة بذلك في السابق،

فطفق الجميع يبحث عن نسله وسلالته وأجداده وإرجاع أصله إلى شخصيات تاريخية معينة، كنوع من خلق توازن اجتماعي بين الأطراف المنضوية كلها تحت راية الدين الواحد. إلاّ أن قوائم الأجداد الطويلة التي تحويها ما عُرف بـ(شجرة النسب) لا تحمل إشارات تاريخية معيّنة ولا تدقق الأحداث والأماكن، إذن فهي خالية من أي مصدر علمي يمكن الاعتماد عليه وتقريره كمرجع تاريخي يُعوّل عليه. لذا وجب لفت الانتباه إلى مثل هذه الوثائق والتحقق منها ومقارنتها بالأحداث التاريخية إن وجدت مدوّنة، وهذا ما حاولناه، ولا ندّعي فيه الكمال، لأن الكمال لله وحده، وإنما نعتقد أننا فتحنا مجالاً للبحث في هذا الخضم، علّه يجد ربابنةً يحسنون مصارعةَ أمواجه العاتية في المستقبل، ونسأل الله التوفيق للجميع.

ملاحق

وثائق متعلقة بالصيعان

https://archive.org/details/@hassan_ibrahem



عمر أبو رغيف العويني

-6-

حجة قديمة مكتوبة على الجلد، أصلها محفوظ عند أحد أهالي الصيعان بتيجي، نشر صورة ضوئية لها الأستاذ (فارس أحمد علاّوي) في كتابه المعنون ب(تاريخ مدينة تيجي وقبائل الصيعان وبلدانهم). وأعاد قراءتها الأستاذ (محمد عبد السلام الشبوكي) صاحب مكتب المعرفة للترجمة القانونية بالعجيلات. قدّم لنا صورة ضوئية لها (الدكتور الطاهر علي الرقيق). اختصرنا مقدّمتها واكتفينا بما تعلق منها بشجرة ذر ية سيدي امحمد ابو صاع:

((جزء من مكان الختم – هذا نسب سيدي محمد بو صاع نفعنا الله ببركاته آمين هو وذريته... – الأختام الخمسة غير واضحة

الحمد لله الذي أظهر الحق بالأحكام والحمد لله الذي فضّلنا بالإسلام وجعلنا في أمته محمد عليه الصلاة والسلام. وهي شجرة من ذرية أبو الحسن علي ابن أبي طالب رضي الله عنه والحسين وزين العابدبن وذرية زين العابدين الأكبر وكان من ذريتهم شأن "أو بيان" أهل السنة ومصابيح أهل السنة وهما "وهم" الحسن والحسين وزين العابدين فكان من ذريتهم الإمام الأشهر "الأشهد" صاحب الحظرة قاضيا وهو إدريس الأكبر وابنه إدريس الأصغر شبيه الياقوت الأحمر وهو إدريس ابن إدريس ابن عبد الله ابن محمد ابن الحسن ابن على بن طالب رضي الله عنهم أجمعين فولد السيد عبد الله المذكور ستة أولاد...))

وتواصل الوثيقة قصة نجاة إدريس بن عبد الله من موقعة (فخ) قرب مكة وهروبه إلى المغرب الأقصى وبناء دولة الأدارسة هناك. ثم تسترسل في ذكر أعقاب إدريس الأصغر وتستغرق صفحات كثيرة، إلى أن يصل إلى التالي:

((...وأولاد إبراهيم وأولاد سليمان وذرية نبيل وأولاد عيسى هم أهل طرابلس وأما تسمية أولاد جعفر هم أهل مدينة تلمسان وأما تسمية أولاد محمود هم أولاد عبد القادر هم أهل خلف وأما تسمية أولاد اسماعيل وأولاد سليمان هم أهل مدينة نفطة والشيخ العامل العارف سيدنا

محمد بوصاع وعقب ضريحه في قصور سيدي بو زيد عقب سيدي دخان؟ ضريحه في المكان المذكور وعقب حسين؟ ناجي بو رتيمة في القيروان وعقب سيدي الشراد؟ وعقب سيدي ابو دخان والشيخ سيدي محمد بو رتيمة؟ في...وعقب سلام وعقب ذريته اولاد سلام وعقب ذريته اولاد محمد بو صاع عقب ذريته... ولد الشراد ... لما يتذكر في... المذكورين موطنهم الجوش... الجوف... بحرف والبعض يذكره كما هذه... والبعض من ذريتهم في الجوش... بن عثمان بن نصر السلام الشريف الحسن الادريسي السيد سيدي محمد بو صاع ونبيل المذكور؟ في السابق وسيدي محمد المذكور عقب سيدي ابو زيد وسيدي ابو زيد عقب سيدي معلى وسيدي معلا عقب سيدي ناجي بكبنوت "كنبوت" ناجي المهير "المهيد" "المطير" وعقب سيدي محمد بو دخان وعقب سيدي الشراد "المشرد" المشري" وعقب سيدي سلام وسيدي سلام عقب سيدي محمد وسيدي محمد عقب ذريته اولاد محمد وسيدي سلام عقب ذريته اولاد سلام وسيدي مهيري عقب ذريته... اولاد... وكذلك... سيدي محمود بن محمد العكرمي الادريسي الحسين من نسل سيدي الشيخ الكامل العالم عبد القادر بن صالح و... سيدي الحاج عثمان بن الحاج نصر... ضريح جدهم... سيدي محمد بو صاع عقب سيدي زيد وعقب سيدي مكل "محل" "معلاّ" وعقب سيدي المهيد "المهير" وعقب سيدي محمد بو دخان وعقب سيدي المشرد "الشراد" "المشري" وعقب سلام وسلام عقب ذريته اولاد سلام وهم؟ عقب ذريته اولاد محمد وهميل؟ عقب ذريته... ذرية الشيخ العامل العارف سيدي محمد بو صاع ابن الحسن بن علي بن ابي طالب وفاطمة الزهراء بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم)).

((هذه نسخة نقلت من نسخة بشهرة العزيز في جميع البلاد خيف عليها نقلتها حرفا بحرف وبمقابلتها كما هي مرسومة بجلد القبيل "القبيلة" وبأحرف الذهب شهروا "شهدوا" تحقيقها فيها فمنهم سيدي الشيخ العالم سيدي علي الصالح "صالح" بفاس والعاطف عليه اعلاه فيما "بما" تقدم حيث نقلت من دفتر... الشكل المعقود... ادريس نفعنا الله به وبعده امين وهي مؤرخة باربعة ماية سنة واما النسخة المنسوخة منها مؤرخة سبعة ماية سنة. هذا ما وجدناه "وجدنا" من العلي العظيم والله المعبود من غير مفقود بين يدي سيدي الحاج عثمان بن الحاج نصر الشريف نسب جدهم غير مفقود والحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وبعد فهذه

الشجرة الشريفة النبوية الأولى سيدي علي العدنان؟ والآن هي بيد محلها الفاضل الكامل العارف بالله عفاه صدقا المتوكل على العزيز للبلاد المعروف بكل الأقطار سيدي عثمان بن حمد الشريف العكرمي بن القاسم بن محمد بن الجراري "الحراري"... سيدنا قطب الزمان سيدي بلقاسم بن محمد بن حسن ابن الشيخ العزيز... سيدنا "سيد" البركة والأسرار سيدنا ومولانا.. وغرائب زمان سيدنا... بن علي بن... بن بالقاسم بن... هلال "طلال" بن... هلال... بن حمد بن علي... ...؟ بن أحمد بن محمد بن خالد بن ابراهيم بن منصور بن علي بن احمد بن عبد الواحد بن علي بن عبد الواحد سالم بن محمد بن عمر بن حمد بن عبد المجيد بن يحي... بن يوسف بن... بن علي بن محمد بن عبد المجيد بن عبد الواحد بن علي بن حمد بن ابراهيم بن ادريس الأصغر بن ادريس الأكبر ابن عبد الله بن علي فيكون ... يشهر منار "فنار" بن محمد بن سبطي الزكي؟ القصري سيدنا مولانا الحسن بن... وفاطمة الزهراء بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم شفيع الأنام في يوم الزحام... السيد علي... فقيض؟ وترك ذريته... ففر بنفسه إلى جبل ...)) الخ..

حيث يعود إلى ذكر ذرية إدريس في المغرب. ثم يختتم الشجرة بالأختام الخمسة ويذكر بعدها شجرة عثمان بالحاج نصر التي تنتهي بمحمد الكوني الذي يقول الصيعان بأنه الإبن المباشر للولي الصالح سيدي امحمد أبو صاع من زوجته الأولى العوينية، وابنه عثمان بن خليفة جد أولاد سلام دفين زلطن:

((الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبي بعده هذه شجرة صحيحة فاخرة النسب وكل ما ذكر فيها صحيحا كما أعلاه فيها بالولي الصالح وزاد القادم الشيخ سيدي عثمان بن الحاج نصر بن عبد الله بن حامد بن سلام بن عثمان بن خليفة بن محمد الكوني بن بط...؟ وعلى هذا يكون ان شاء الله من أهل الصلاح بجاه سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم تسليما ان شاء الله آمين... سمعها وتعم على المسلمين والمسلمات والمؤمنين... انك غفور رحيم.

من محمد... بن عبد الكريم... الجليدي...))

-1-

خطاب أعيان قبيلة أولاد سلاّم إلى الوزير الأكبر بتونس يطالبونه فيه باسترجاع أملاكهم. استخرجه الدكتور إبراهيم أحمد أبو القاسم من الأرشيف الوطني التونسي، ونشره بملحق الوثائق (ص 114 و113) بكتابه المعنون ب(المهاجرون الليبيون بالبلاد التونسية):

((الختم G-T-CABINET -5 JUIN 1913 – الحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا محمد النبي – الشهم الهمام الأعز الأمجد الصدر العالي أمير الأمراء مولانا الشيخ سيدي يوسف جعيّط الوزير الأكبر دام حفظه السلام عليك ورحمة الله وبعد فإن المصحّحين أسفل هذا من جملة عشرهم أولاد سلاّم صيعان لمّا دخلت دولة إيطاليا إلى عمالة طرابلس وشهدنا منها ما أحدثته بالأهالي التي بقوا تحت نظرها فاقشعرّت جلودنا مما شاهدناه عيانا فاغتنمنا فرصة الدخول إلى العمالة التونسية تحت ضلّ الدولتين الحامي والمحمية لما لهما من العدل والانصاف الذي عاش في ظلهما كل من التجيء إلى احترامها وإن كنا نحن في الحقيقة سابقا استقرينا بتراب تونس وأصحاب أملاك به منها عدّة غابات بنفزاوة وعدّة آبار ماء أنشيناها وأراضي محراث لزراعات بعمل ورغمة ولنا جالية كثيرة تسكن الآن بالسواسي الذين كانوا مقيّدين بعمل مدنين وعليه فإننا راغبين من جناب الدولتين المذكورتين صدور إذن لنا بالدخول للعمالة التونسية والاستيطان بها في المحل الذي تعينه لنا الدولة والدخول تحت جميع المأموريات مثل أهل العمل لأننا لا نقدروا على الرجوع حيث لا ملك لنا ولا دشرة سوى ملكنا التي بنفزاوة راغبين من مراحمكم إغاثتنا وإجابة مطالبنا وندعوا لكم بطول البقاء وزيادة الارقاء ودمتم بخير والسلام –

في جماد ثاني 6556 هـ. من مشايخ الصيعان وأعيانهم –

التوقيعات والأختام:

-الشيخ سعد حلبودة (مع الختم). -الشيخ سلاّم بن عبد الله. -الشيخ نصر بالحاج. -الشيخ محمد أبو الطيب. -الشيح حامد بن نصر (مع الختم). -الشيخ عبد الله بن مرزوق. -...محمد الصغير (مع الختم). -الفقيه عبد الله بن الحاج (مع الختم). -حمد بن عبد الله (مع الختم). -سلاّم بن عثمان. -عثمان بن عبد الله. -نصر بن عثمان. -الحاج خليفة بن عطية. -أحمد بن عبد الله (مع الختم). -محمد بن خليفة (مع الختم).)).

-5-

وثيقة عثمانية عن الصيعان بتاريخ سنة 6118 هـ - 6044م، نشر صورتها الضوئية (فارس علاّوي) بالصفحة 153 من كتابه المذكور. وتتعلّق بتعهّد الصيعان بدفع أقساط من مال مفروض عليهم من قبل ولاية طرابلس الغرب، وتقديم رهائن من رؤساء قبائلهم إلى حين التسديد، قمنا بإعادة قراءتها فكانت كما يلي:

((بعد القراءة المشروحة أعلاه بالمجلس المومي إليه بمحضر المرابط عبد العظيم بن حمد الصويعي بن عبد العزيز الشرادي ومحمد بن امحمد الصويعي الشرادي المرسلين من طرف كافة قبيلة المرابطين الصيعان من أجل الكلام فيما يصلح ويهدى به الأمر لراحة قبيلتهم المذكورة فالذي بات عليه القرار أنهما قبلا الشروط الأربعة المشروحة أعلاه بوجهها وصورتها وتعهدوا بدفع ألفين وخمسماية محبوب (اسلمبولي) في كل عام؟ مبدو ذلك من عام ستين ومايتين وألف ويكون دفعهم لذلك أشطار الشطر الأول بعد حصاد الزرع والشطر الثاني مع دخول الخريف مع إلتزامهما بإعطاء ستة عشر نفرا من؟ رؤساء قبائلهم ومن قبيلة الشراردة أخ عبد العظيم الشرادي وولد جلوط الشرادي وولد كرش الشرادي وولد لصفر الشرادي ومن قبيلة الهمايل ولد عبد السميع الهميلي وولد قنبي الهميلي وولد الغثيث الهميلي وولد أحمد الهلاك الهميلي ومن قبيلة المحمدية ولد سعد بوراس المحمدي وولد الشيخ أحمد المحمدي وولد شنفير المحمدي وولد بيت العافية المحمدي ومن قبيلة السلالمة ولد عثمان بنير السلامي وولد العنابي السلامي وولد عبد الله الناجح السلامي وولد نصر بن عبد السيد السلامي والكافل لهما في ذلك الفقيه سعيد الرحيبي نايب الرحيبات والفقيه سليمان بن عمر نايب فساطو والشيخ عبد الله بن عون الرحيبي والشيخ محمد بن عطية الرحيبي والشيخ محمد الحرابي والكافل للجميع فيما شرح الأجل المحترم ناظر الجبل الغربي الشيخ علي بن عبد الرحمن أبا سيف فعلى هذا تم الأمر؟ والتزم به كل من حضروا هنا -

حرر وختم في أواخر ربيع الأول الذي هو من شهور سنة ستين ومايتين وألف -

آخر ربيع الأول 6118 -   التوقيعات والأختام))

- 4 -

اعتراف الرابطة العالمية العامة للأشراف بنسب الولي محمد أبي صاع



بسم الله الرحمن الرحيم

إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا

محمد الله محمد

الرابطة العالمية العامة للأشراف

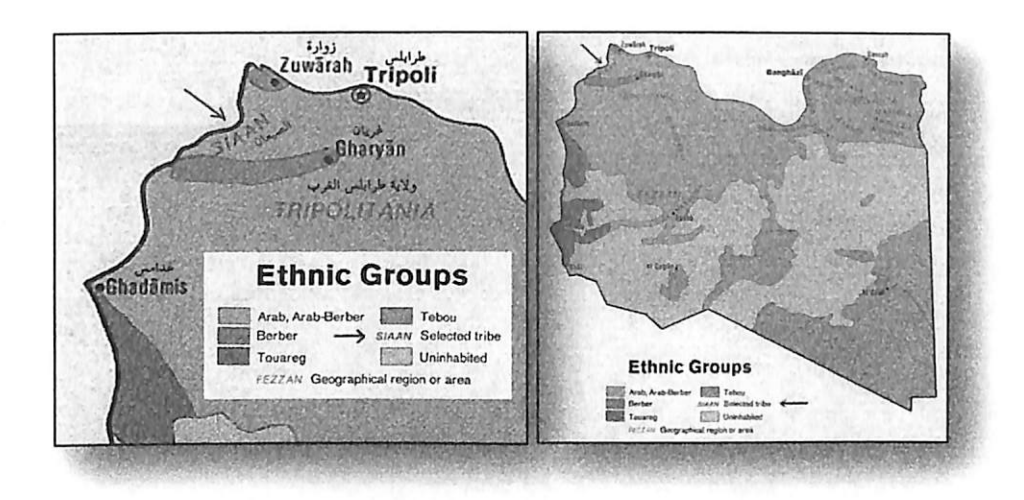
النسب الشريف

هذه شجرة نسب الشريف الحسيب النسيب الولي الصالح والقطب الواضح الشيخ سيدي امحمد أبي صاع (الجد الجامع للسادة الأشراف الصيعان وفروعهم) وهو ابن سيدي محمد بن عبد الله بن علي بن احمد بن أفق بن إدريس بن محمد بن سالم بن عبد الله بن منصور بن علي بن ابراهيم بن فرج بن علي بن محمد بن عمار بن أبي القاسم بن عبد الواحد بن محمد بن عمر بن أحمد بن علي بن عمار بن إبراهيم بن علي بن محمد بن إبراهيم بن الأمير مولاي عبد الله الملقب بالمخلص ابن مولانا الخليفة الإمام ادريس الازهر باني فاس بن مولانا الإمام ادريس الأكبر المبايع له بالخلافة بالمغرب سنة 172 هجرية ابن الإمام مولاي عبد الله الكامل امام المدينة المنورة على ساكنها أفضل الصلوات وأزكى السلام والمسمى بالمحض والخالص لكونه اول مولود حسني من أم حسينية ، وهو ابن مولانا الامام الحسن المثنى بن مولانا الإمام الحسن السبط ريحانة الرسول وسيد شباب أهل الجنة وحليم آل البيت ابن مولانا أسد الله الغالب الامام أمير المومنين الخليفة سيدنا علي بن أبي طالب واميرتنا ومولاتنا فاطمة الزهراء بضعة الرسول وسيدة نساء أهل الجنة بنت رسول رب العالمين وإمام المرسلين وقائد الغر المحجلين حبيبنا ومولانا وقائدنا محمد بن عبد الله صلى الله عليه وعلى آله الطيبين الطاهرين وسلم تسليما الى يوم الدين وشرف وكرم وعظم ومجد - أمين.

نقلها الشريف ابوصاع ابسومة

الرابطة العالمية العامة للأشراف

-3-



خريطة ليبيا القديمة يبدو عليها التقسيم القبلي في العهد العثماني، كانت قبائل الصيعان من بين القبائل العربية الليبية المختارة، وموطنها يقع في أقصى الشمال الغربي من ليبيا، بين جبل نفوسة والبحر المتوسط.

هذه الخريطة منشورة على الرابط التالي:

http://joshberer.wordpress.com/maps/middle-east/

-1-

جزء من خريطة ضخمة عَثر عليها في مكتبة برلين الوطنية د. سالم عاشور، فأرسل صورةً منها إلى الحاج صالح العائب الذي بدوره سلّمنا إياها.

لم نتحصّل على مزيد من المعلومات حول هذه الخريطة سوى أنها رُسمت في باريس سنة 6038 بواسطة الفرنسييْن (براكس **Prax**) و(رينو **Renou**) مركّزيْن بالخصوص على رحلتيْ الرّحّالة المشهور (هارتش **Harche**) إلى (تنبكتو **Tembectou**) و(كانو **Kanou**).

ومن خلال تتبعنا لتفاصيل هذه الخريطة لاحظنا التقسيم القبلي لبدو طرابلس الغرب (**Tripolitain**) المنتجعين بسهل الجفارة (**Plaine de Djefàra**) المحصور بين ساحل البحر المتوسط وجبل نفوسة (**Djebel Nefouça**)، وذلك مثل قبائل الصيعان (**SIÁN**) والنوايل (**NOUAÏL**)، مع ذكر بعض تفاصيل اللحمات المتفرعة منها.

ففي ما يتعلّق بالصيعان وردت القبائل الأربع كاملة (أولاد سلاّم **O^d. Sellam** وأولاد إمحمد **Mohàmmed** وأولاد شرّادة **Charràda** والهمايلة **Hameila**) إلى جانب لحمتي (أولاد دغمان **Doughman** والخلايفة **Khelïfa**).

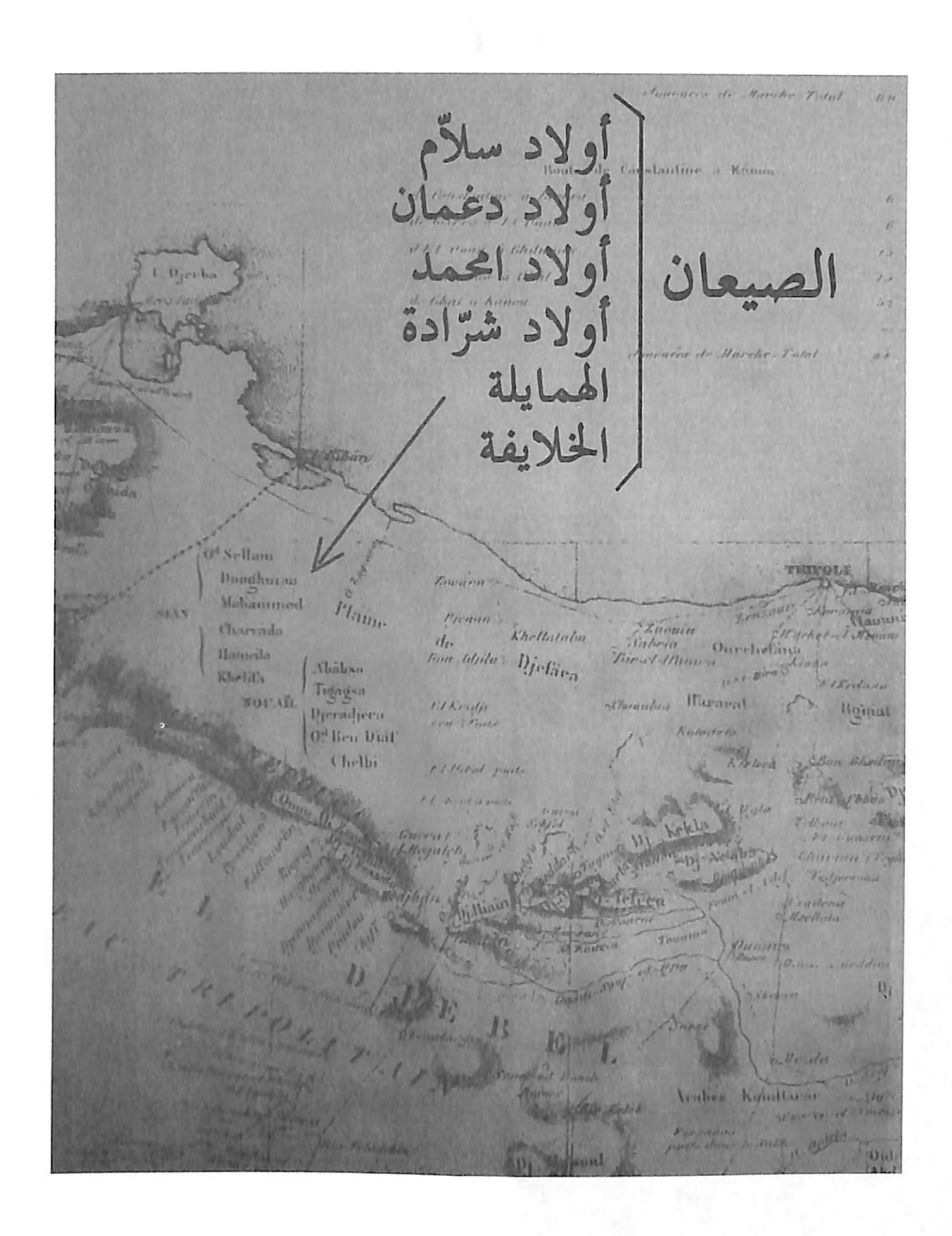
(أنظر الجزء المستهدف من هذه الخريطة بالصفحة الموالية)

المصدر:

مكتبة برلين الوطنية (قسم الميراث الثقافي البروسي)

Staatsbibliothek zu Berlin

(Preusischer kulturbesitz)



الصيعان
أولاد سلّام
أولاد دغمان
أولاد امحمد
أولاد شرّادة
الهمايلة
الخلايفة
I. Djerba
Od Sellam
Doughman
Mahammed
Cherrada
Hameila
Khelifa
SIAN
Abâbsa
Tigagsa
Djeradjera
Od Ben Diaf
Chelbi
Plaine
Djefâra
Khellataba
TRIPOLI
Ourchefana

أهم المصادر

أولاً- الكتب والدوريات:

* إبن عذاري المراكشي: *البيان المُغرب في أخبار الأندلس والمغرب*، ج6، ط1، 6108، دار الثقافة، بيروت.

* إبن منظور: *لسان العرب المحيط*، إعداد وتصنيف: يوسف الخياط، ؟، ؟، دار لسان العرب، بيروت/ لبنان.

* أبو صوة، د. محمود أحمد: *مُلاَّك الأرض بأفريقيا منذ الفتح حتى أواسط القرن الرابع للإسلام*، ط؟، 1886، منشورات دار (ELGA) فاليتا/ مالطا.

* أبو القاسم، د. إبراهيم أحمد: *المهاجرون الليبيون بالبلاد التونسية*، ط؟، 6111، منشورات عبد الكريم بن عبد الله للنشر والتوزيع، تونس.

* البرغوثي، د. عبد اللطيف محمود: *تاريخ ليبيا الإسلامي*، ط؟، 6151، منشورات الجامعة الليبية، ليبيا.

* البرغوثي، د. عبد اللطيف محمود: *التاريخ الليبي القديم*، ط6، 6156، دار صادر، بيروت/ لبنان.

* بغني، عمرو: أصول حركة الصفوف وأثرها على حركة الجهاد الليبي، *مجلة الشهيد*، العدد الثالث، 6105، مركز دراسة جهاد الليبيين ضد الغزو الإيطالي، طرابلس/ ليبيا.

* تشايجي، عبد الرحمن: *الصراع التركي/الفرنسي في الصحراء الكبرى*، ترجمة: د. علي اعزازي، ط؟، 6101، مركز دراسة جهاد الليبيين ضد الغزو الإيطالي، طرابلس/ ليبيا.

* التليسي، خليفة محمد: *قاموس إيطالي عربي*، ط1، 6115، دار الربان، ؟.

* الدسوقي، د. عاصم: *عوامل الوحدة والتفكك العربي*، ط5، ؟، مؤسسة ابن خلدون، منشورات معهد البحوث والدراسات العربية، القاهرة/ مصر.

* دي أوغستيني، هنريكو: *سكان ليبيا*، تعريب وتقديم: خليفة محمد التليسي، ط6، 6153، دار الثقافة، بيروت/ لبنان.

* الزاوي، الطاهر: *معجم البلدان الليبية*،؟.

* سالم، د. السيد عبد العزيز: *المغرب الكبير، العصر الإسلامي*، ط؟، 6106، دار النهضة العربية، بيروت/ لبنان.

* سالم، د. السيد عبد العزيز، *التاريخ السياسي والحضاري للدولة العربية*، ط؟، ؟، دار النهضة، بيروت/ لبنان.

* سعيد، د. عبد الستار عبد اللطيف أحمد: *مباحث في اللغة العربية*، ج5، ط6، 6115، منشورات الجامعة المفتوحة، طرابلس/ ليبيا.

* الطوير، محمد امحمد: *مقاومة الشيخ غومة المحمودي للحكم العثماني بإيالة طرابلس (6030-6053)*، ط؟، 6100، مركز دراسة جهاد الليبيين ضد الغزو الإيطالي، طرابلس/ ليبيا.

* عبد الحميد، د. سعد زغلول: *تاريخ المغرب العربي*، ج6، ط؟،؟، دار المعارف، ؟.

* العلاّوي، أحمد فارس: *تاريخ تيجي وقبائل الصيعان وبلدانهم*، ط6، ؟، مكتبة أوغاريت، دمشق/ سوريا.

* قبيسي، د. محمد بهجت: *ملامح في فقه اللهجات العربيات*، ط1، 1888، دار شمأل، دمشق/ بيروت.

* القشاط، محمد سعيد: *صدى الجهاد الليبي في الأدب الشعبي*، ط؟، 6158، طباعة دار لبنان للطباعة والنشر، بيروت/ لبنان.

*كورو، فرنشيسكو: *ليبيا أثناء الحكم العثماني*، تعريب: خليفة محمد التليسي، ط1، 6104، المنشأة العامة للنشر والتوزيع والإعلان، طرابلس/ليبيا.

* المرزوقي، محمد: *الأدب الشعبي*، ط؟، 6115، الدار التونسية للنشر، تونس.

* المرزوقي، محمد: *مع البدو في حلّهم وترحالهم*، ط؟، **6108**، الدار العربية للكتاب، تونس.

* ميكاكي، رودولفو: *طرابلس الغرب تحت حكم أسرة القرمانلي*، تعريب: حسن محمود، ط؟، **6116**، ؟، القاهرة/ مصر.

* قمبي، التواتي أحمد: الحوض (رواية تاريخية)، ط**6**، **1881**، ؟.

ثانيا- الوثائق:

1- ترجمة قانونية لحجة نسب الولي الصالح سيدي (محمد أبي صاع)، قدمها لنا الدكتور الطاهر علي الرقيق.

2- وثيقة النسب الشريف للولي الصالح سيدي (امحمد أبي صاع)، قدمها لنا الأخ/ أبو صاع امحمد إبسيسة.

3- خريطة قديمة لطرابلس الغرب، عَثر عليها بمكتبة برلين د. سالم عاشور، وزودنا بها الحاج صالح محمد العايب.

ثالثاً- المقابلات الشخصية:

أ- المتوفون:

1- سعيد بن خليفة بن علي شريوط (لحمة الجهر) قبيلة (أولاد سلاّم).

2- بلقاسم بن خليفة بن علي شريوط (لحمة الجهر) قبيلة (أولاد سلاّم).

3- علي بن عظيم (فوفي، من لحمة الأفّاف) قبيلة (أولاد سلاّم).

4- مبروكة بنت لطيف الحطّاب (لحمة السوحة) قبيلة (أولاد امحمد)، توفيت سنة **1868**.

ب- الأحياء:

1- فرج بن نصر بن فرج جلّة (لحمة السوحة) قبيلة (أولاد امحمد).

2- بلقاسم بن عثمان بن بلقاسم بن زعيمة (لحمة الأبقار) قبيلة (أولاد سلاّم).

3- علي بن محمد بن خليفة بريبش (لحمة الأبقار) قبيلة (أولاد سلاّم).

https://archive.org/details/@hassan_ibrahem

فهرس المحتويات



كتب صدرت للمؤلف:

1- المخرج الصحفي، 6151، الشركة العامة للنشر والتوزيع والإعلان، ليبيا.

2- فن صناعة الصحافة، ماضيه وحاضره ومستقبله، 6104، المنشأة العامة للنشر والتوزيع والإعلان، ليبيا.

3- المطابع والمطبوعات الليبية قبل الاحتلال الإيطالي، 6103، المنشأة العامة للنشر والتوزيع والإعلان، ليبيا.

4- بدايات الصحافة الليبية (6011–6111)، 6101، الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان، ليبيا.

5- الحرف العربي، تحفة التاريخ وعقدة التقنية، 6101، الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان، ليبيا.

6- الإخراج الصحفي والتصميم بين الأفكار والأقلام والحواسيب، 6110، دار الملتقى ودار الآن، لبنان وقبرص.

7- أصول الحرف الليبي، تطور الكتابة عند قدماء الليبيين، 6111، الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان، ليبيا.

8- أصول اللغة الليبية القديمة، 1885، دار الملتقى للطباعة والنشر، لبنان.

9- التيفيناغ، رحلة الحروف العروبية بين الكنعانيين والتوارق، 1884، منشورات مجلة "المؤتمر"، ليبيا.

10- التيفيناغ، رحلة الحروف العروبية بين الكنعانيين والتوارق، 1881، اللجنة الشعبية العامة للثقافة والإعلام، ليبيا.

11- رمال متحركة على الجليد (في أدب الرحلات)، 1881–1885، اللجنة الشعبية العامة للثقافة والإعلام، ليبيا.

12- الفرعون الليبي (شيشنق الأول) وإمبراطوريته الأفرو/آسيوية، دار الرواد، 1865.

13- تاريخ الحضارة الليبية القديمة، وزارة الثقافة، 1865.

14- اللغة الليبية القديمة وكتابتها (مقاربة بين الأمازيغية والعربية)، دار الرواد، 1865.

بحوث ومخطوطات جاهزة:

1- ملاحظات عن تاريخ الفتح الإسلامي للشمال الأفريقي (المغرب العربي).

2- Shishanq I and his Afro-Asiatic Empire

3- Spots on the Old Libyan Civilization

علي فهمي خشيم

أهم المشاركات في الندوات العلمية:

1- ورقة بحثية بعنوان (التيفيناغ والتماشق إرث حضاري وثقافي كبير لكل الوطن العربي من شرقه إلى غربه) مقدمة إلى ندوة (الوحدة والتنوع في اللغات العروبية)، مجمع اللغة العربية بطرابلس، ليبيا، **1884**. منشورة في كتاب.

2- ورقة بحثية بعنوان (من وادي جبّارين إلى وادي النيل) مقدمة إلى ندوة (التحركات البشرية والهجرات اليمنية إلى الشام وشرق وشمال أفريقيا قبل الإسلام)، جامعة محمد الخامس بالرباط، المغرب. **1884**.

3- ورقة بحثية بعنوان (التوافق والتنافر بين اللين والصرامة وتأثير ذلك على لهجة القبائل الليبية، الصيعان أنموذجا) مقدمة إلى ندوة (اللهجة الليبية في فضائها الأوسط بين المشرق والمغرب، الحلقة الأولى)، مجمع اللغة العربية بطرابلس، ليبيا، **1881**. منشورة في كتاب.

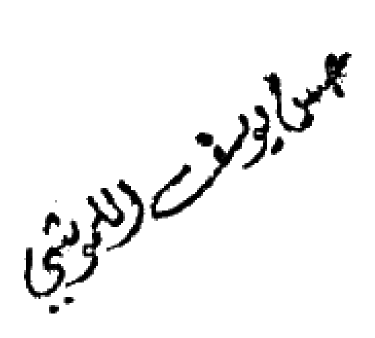
4- ورقة بحثية بعنوان (اللغة العربية وتاريخ انتقالها من التبسيط المفكك إلى التعقيد المركب، صعوبة قراءة وكتابة العربية) مقدمة إلى ندوة (اللغة العربية والتحديات المعاصرة) جامعة دمشق، سوريا، **1885**. منشورة في كتاب.

5- ورقة بحثية بعنوان (لهجات البدو بالمنطقة الغربية، مقاربة بين العامية والفصحى) مقدمة إلى ندوة (اللهجة الليبية في فضائها الأوسط بين المشرق والمغرب، الحلقة الثانية)، مجمع اللغة العربية بطرابلس، ليبيا، **1885**. منشورة في كتاب.

6- ورقة بحثية بعنوان (الصلة بين اللغتين الليبية والمصرية القديمتين في محيطهما العروبي) مقدمة إلى ندوة (الجذور المشتركة للحضارات العروبية القديمة)، مجمع اللغة العربية بطرابلس، ليبيا، 1881. منشورة في كتاب.

7- ورقة بحثية بعنوان (اللغة العربية بين عمق الأصالة وضرورة التحديث) مقدمة إلى المائدة المستديرة حول التعريب بأكاديمية الدراسات العليا بطرابلس، 1868.

Private website: www.dr-aziz-swei.webs.com
E-mail: abdullaziz2011swei@yahoo.com





الدكتور عبد العزيز سعيد الصويعي

حديث الحِلّ والتّرحال

بين الجُوش والجُوف

لا تعتمد هذه الدراسة على أهم عناصر البحث التاريخي، كالمراجع التاريخية الموثقة من كتب وبحوث ودراسات سابقة، وهي عناصر يفتقدها الباحث في تاريخ القبائل العربية المعاصرة عموما، والليبية على وجه الخصوص. فيلجأ مكرها لتتبع خيوط الأساطير المتواترة عبر الروايات الشفوية الشعبية، وتسليط بعض الأدوات المتاحة عليها، لتحليلها واستخراج منها ما أمكن من حقائق قد تتفق وقد لا تتفق مع عقلية الإنسان المعاصر. فإذا اتفقت ستكون إضافة جديدة يجد فيها الباحث والمتلقي ضالتهما، وإذا لم تتفق ستكون سجلا مدونا تستفيد منه الأجيال القادمة في معرفة أفكار أجدادهم مهما كانت بسيطة وبدائية وساذجة، قد يجدون وسائل أكثر تطور لتحليلها وكشف مكامنها في المستقبل. والواقع أن هذه الدراسة لم تكن -منذ البداية- دراسة تاريخية بأتم معنى الكلمة، وإنما تميل ميلا شديدا إلى الدراسات الاجتماعية واللغوية والثقافية التي تبحث في العادات والتقاليد وأساليب العيش وطرق التفكير والعقائد والآداب واللهجات المتداولة وغيرها من عناصر الحراك الاجتماعي التي تختص بها الجماعات الإنسانية وتتميز بها عن غيرها. لذا، اعتمدت هذه الدراسة -أساسا- على العمل الميداني واللقاءات مع كبار السن وأصحاب الخبرة والتجربة والضالعين في التحدث والتذكر وحافظي القصص والأساطير الأولى والشعراء الشعبيين، وغيرهم ممن وافاهم الأجل ومن لا يزالون على قيد الحياة (أطال الله أعمارهم)، والذين لولاهم لضاع كم هائل من معلومات وأفكار وقصص لها أهمية بالغة في الذاكرة الشعبية التي قد تكون -في يوم ما- أساسا لبحوث ودراسات تاريخية تظهر قيمتها العلمية فيما بعد.

